رُباع

الكتاب : رُباع

المؤلف : أحمد السعيد مراد

غلاف: م. فاطمة الجندي

خطوط: د. شاكر بدران

تدقيق لغوي : محسن عباس غريب

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١١١٤٤

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٣٦-٧١-٨

الطبعة الأولى : ٢٠١٤

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

رُباع

رواية لــ

د. أحمد السعيد مراد

ن للنشر والتوزيع

الإهداء

" إلى حواء الممثلة في أمي وأختي وزوجتي..

لكنَّ عليَّ فضلٌ كبيٌر بما حوت قلوبكن من محبة وتضحية ومشاعر طيبة راقية "

" المرأة في مجتمعاتنا يقهرها رجلٌ؛ ليتلاعب بها الآخر؛ فنصمها بأنها إنما ولدت عاهرة "

الفصل الأول

وسط الظلام

تفصدت جبهة وفيق بحبات العرق المتتالية، والتي تسابق سرعة تجفيفه لها؛ كأنما هي ثقوب لقربة ماء آسن متفجرة من كل ملليمتر فيها، وذلك رغم برودة جو شهر يناير، وكان صوت لهاثه أشبه بفحيح حية تصارع آلام وضع خمسة آلاف بيضة..

مشهده هذا طبيعي جدًا مع كرشه المتدلي أمامه كقاع جوال يحمل بداخله خمس جراء مختطفة، وتتصارع فيما بينها وتصارع الاختناق والموت بالداخل، ويده المبللة بعرقه الذي يفشل في توقيف مصدره تنزلق على مسند السلم الضيق والصاعد بزاوية حادة.

بصق عبارته المتقطعة بصوت أنفاسه المتشابكة مع أحرفه وهو يقول:

- تبًا لك لو كنت أعلم بهذا الفخ ما جئت.

ألقى ببصره إلى مداه ليرى بأن بضع درجات تفرق بينه وبين بغيته بالطابق الرابع في هذا المبني العتيق، والذي لم ير كائنًا به منذ دخوله لبوابته، ومع إضائته الخافتة والهابطة عبر بئر السلم قبيل مغيب الشمس بساعة لم يسمع سوى مواء قط أصم لم ينتبه لأصواته المختلطة والمكونة من فحيح وسباب متكرر وبصاق لا ينقطع، و صرخ القط فزعًا عندما فرم وفيق ذيله بقدمه الشبيهة بمطرقة عملاقة هبطت عليه بلا رحمة.

ودون ذلك لم يطرق سمعه أي صراخ متبادل بين أي طرفين بالعائلات المصرية التي هي من المفترض مقيمة بهذا العقار القديم، وفي هذا الحي النائي، ولا حتى صوت مُسجل ترتج له جدران البيت بأصوات ناعقة بكل ما هو قبيح، وسوء الكلام الذي يدّعون ظلمًا وجورًا أنها أغاني أو أشعارًا.

وصل أخيرًا أمام باب الشقة المتشقق بدهانه القديم جدًا؛ ليسترد أنفاسه المتبقية كي يتمكن من الحديث فور ولوجه لهذا المكان..

ما إن حاول الطرق بيده المكتنزة حتى صدر صرير الباب بصداه المتردد في بئر السلم مع تحركه للداخل قليلاً، انفرج الباب عن ظلمة كالحة كظلام القبور، فدفعه أكثر ليكمل عمليه فتحه للنهاية عسى الضوء الشاحب أن يظهر له بعض التفاصيل التي يشتاق لها، ولم يتبين سوى بضع بلاطات عريضة منقوشة باللونين الأسود والأبيض وبلا أي غطاء أو مفارش أرضية.

نادي بصوته المتحشرج من أثر صراعه للوصول صاعدًا وهو يقول:

– هل من أحد هنا ؟!...

أجابه صمت اللصوص، فنظر للخلف ليتزود من ذاكرته القريبة بمشاق الرحلة التي وصلت به إلى هنا كي يستمر ولا يتراجع بعد كل تلك المعاناة..

وما إن دخل خطوتين حاول التوقف عسى أن تعتاد عيناه على ظلمة المكان؛ ليظهر له الكثير من التضاريس الخافية عنه، وفجأة انغلق الباب بقوة.. وبدوي ارتعدت له كل فرائصه فور سماعه، وكاد أن يسقط مغشيًّا عليه من الصدمة والمفاجأة، ومن بين الظلام الدامس نطق أحدهم بقوة قائلا

– ها قد وصل الفرد الرابع !!

*****

– هل تعتقد حقًّا بأن الغد سيحمل جديدًا لهذا البلد التعيس ؟!

نطق باسم بهذه العبارة، وهو يتراجع بظهره للخلف على مقعدة الوثير متثائبًا بقوة، ويلقى بتلك الصحيفة الحكومية يمينًا بلا عناية على المقعد المجاور له.

تطلع محمود إليه ليعاين أناقته من جديد.. فقد كان باسم أنيق الملبس دقيق الملامح يعتني بكل تفصيلة صغيرة في مظهره ابتداءً من تلميع وتصفيف شعر رأسه وتثبيته مرورًا بنظارته التي اهتم بإطارها المذهب وانتهاءً بحذائه الجلدي المتناسق بقوة في لونه مع بنطاله وجوربه ويكاد لمعانه المنعكس عليه أن ينافس إضاءة المصباح الوحيد بالغرفة ورد عليه قائلاً:

– خليهم يتسلوا.. يظنون أن البلاد العربية تتشابه، وما حدث في تونس قد يحدث عندنا، سيمر الغد كأي يوم عادي، ولن يذكر مخلوق يوم الخامس والعشرين من يناير هذا أبدًا.

حاول محمود أن يجلس واضعًا ساقًا فوق ساق في منافسة وغيرة من باسم المتألق والمتعالي على الجميع في جلسته؛ ولكن ببنطاله المتسع، والمفتقد في كثير من ثناياه إلى المكواة مع قميصه الذي يغلب على نسيجه مادة البوليستر، ومع عدم تجربته لهذه الجلسة من قبل فشل في أن يثبت ساقًا فوق الأخرى أكثر من ثانيتين بسبب آلام الثني التي اضطر لها.

لحظ نبيل محاولته هذه فلم يستطع منع بسمته التي انزوت سريعة، وشارك بدلوه وهو يقول:

– بالفعل مباحث أمن الدولة لا تترك شاردة أو واردة بالبلد ويحكمون السيطرة عليها بشكل تام من المستحيل أن تنجح أي محاولات لإسقاط هذا النظام.. ولكن لا ندري "فالله غالب على أمره"، ولا علم لنا بما تخبئه الأقدار فقد تحدث مفاجآت بالفعل.

التفت محمود نحو وفيق الذي يجلس، وملامحه تحمل كل أمارات الحنق والغيظ والنقمة من تعرج جبهته بحدة وشفتيه المزمومتين بقوة وضيق

حدقتيه، كان صامتًا ساهمًا لا يهمه ولا يعنيه كل ما يدور أو يتحدثون عنه، فقال له محمود:

– ألست تتفق معنا في ذلك يا وفيق ؟!...

ما إن نطق محمود بعبارته هذه معطيًا إياه دفة الحديث، حتى انفجر وفيق بكلماته المتطايرة مع ذرات من لعابه، والذي لحسن حظهم لم تطل أيهم لابتعادهم عن مساره بسبب جلستهم المتناثرة في حجرة الصالون العتيقة، والتي يظهر عليها أنها كانت لأسرة عاصرت فترة الخمسينات بنقوشها الدقيقة وخاماتها القوية والمتينة ونسيجها الواضح عليه رغم قدمه إلا أنه لم يهن بعد، صرخ وفيق قائلاً:

– لو سمحت يا أستاذ لا توجه لي حديثًا هي خمس دقائق أخرى وسوف أرحل، ولا أريد معرفة أيكم بعدها.

لم يستطع باسم كتمان قهقته المدوية، وهو يقول:

– الأمر انتهى يا وفيق لقد كانت مزحة اعتبرها صبيانية منا.. صدقًا لم أستطع منع نفسي عنها.. فبسماع أصواتك ومعاناتك أثناء صعودك على هذا السلم، واستطلاعي لهيئتك هذه فضلت الحصول على قليل من المرح بإفزاعك فور دخولك وسط ظلمة الصالة التي أطفأت أنوارها لأجلك.. سامحني أرجوك.. أعتذر لك للمرة الخامسة...

لوح وفيق بكفه في سخط تام، وأشاح بوجهه بعيدًا دون أن يرد، همَّ نبيل أن يعلق، ولكن قاطعه دوي عجيب لصوت أقدام كثيرة تدق بقوة على درجات السلم بالخارج منتهكة الصمت الدائم بالخارج، فعقد حاجبيه وهو ينصت محاولاً معرفة مدلولها وهو يقول:

– يبدو أن صاحب الدعوة قد جاء أخيرًا.. ولكن ما كل هذه الأقدام ؟!!!

اعتدل الجميع في جلستهم، وقبل أن يعلق أحدهم انفجر الباب بقوة باندفاعه رغم أنه كان مفتوحًا ولا حاجة للعنف الذي تم معاملته به، وفجأة اكتست القاعة باللون الأسود المميز لقوات الأمن المركزي بعد أن ازدحمت بأكثر من عشرين جنديًّا مدججًا بالسلاح أحاطوا بكل شبر فيها، وأفسحوا المجال ليتقدم ضابط بلباس مدني بجسده الرياضي وشاربه الدقيق ونظارته السوداء التي لا حاجة لها مع الإضاءة الخفيفة للحجرة، ولكنه لم يتنازل عن الغموض الذي توحي به وتركها ملتصقة بوجهه، كان الرجال الأربعة يرتعدون بالفعل، وقد ألجمت المفاجأة ألسنتهم جميعًا، تطلع الضابط إليهم مليًّا، ثم بصوت خشن قال:

– وفيق ونبيل ومحمود وباسم ؟

بعيون متسعة وذاهلة أومأ الأربعة برؤوسهم تأكيدًا على مقولته، فأشار الضابط لرجاله قائلاً:

– اقبضوا عليهم واجلبوا أي متعلقات هنا بالشقة بعد تفتيشها جيدًا.

وخرج بخطواته المتمهلة، ولم يقف أو يتردد، وهو يسمع صوت باسم الصارخ قائلاً:

– هو فيه إيه يا باشا ؟!!

******

تصاعد نحيب وفيق عاليًا، وهو مُعلق ومُثبت على الشكل الخشبي الشهير باسم العروسة لدي السلطات الشرطية، وهو عار تماما إلا من قطعة واحدة تداري عورته بمنتصف جسده.

كان بالفعل ينافس النساء ببكائه وولولته، وكذلك بمشهده المترهل بثدييه الكبيرين من كثافة الدهون بهما وكرشه المنتفخ؛ كأنما في حمله الذي اقتربت نهايته وذراعيه وفخذيه الضخمين كجذوع الأشجار، ومن بين النحيب كان يرشف ويسحب مخاطه عاليًا، وهو يقول:

– أقسم لك بالله لا أتبع أي تنظيمات سرية من بين كل تلك الأسماء الرهيبة التي قلتها أمامي.. هي مكالمة لعينة أتتني تطلب مقابلتي لأمر هام يتعلق بمستقبلي وعملي، و إن تأخرت ستكون خسارتي تتعدي المليوني جنيه، وعندما سألته عن شخصه أغلق الخط، وهو يقول بأني سوف أعلم

في المقابلة.. بالطبع لم أتردد في الذهاب، وهناك وجدت هؤلاء الثلاثة تلقوا نفس المكالمة، وينتظرون معي القادم والذي لم يكن سواكم.. فكيف بالله عليك يكون اجتماعا لتنظيم إرهابي هدفه قلب نظام الحكم ؟!!

أشار الضابط بيده للجندي الواقف بجوار وفيق ممتطيًا سوطه متأهبًا للأمر القادم والذي وصله بمجرد الإشارة؛ ففرقع السوط مرة في الهواء جعلت وفيق يصرخ عاليًا قبل أن يهبط السوط بالفعل على فخذيه محدثا خطًّا جديدًا بجوار بعض الخطوط العرضية التي سبقته، وكانت الصرخة هذه المرة عالية من أثر الألم الذي كاد أن يذهب بفؤاده، وأخيرًا تحشرج صوت وفيق، وبدأت أنفاسه تتسارع بقوة حتى أنه يكاد أن يختنق بلعابه الذي امتلأ به فمه، ودموعه تنافس مخاط أنفه، وتراخى ذراعاه بجواره ورقبته على صدره، مما جعل الضابط يشير بيده أن يكفى هذا؛ فقام اثنان مفتولا العضلات بفكه وجرجرته إلى حجرة جانبيه لإفاقته بصفعه بدلو مملوء بالماء البارد جعله يشهق بقوة، وهو يشير بيده أن كفى فدفعاه بقوة ليرتمي على الأرض الباردة، وهو مبلل الجسد الشبه عاري.

وكان محمود ونبيل على نفس هيئة وفيق الرثة، وقد سبقاه في حفل التعذيب هذا، وباسم متكوم ومنكمش في ركن قصي يرتعد بقوة وعيناه زائغتان، وهو لا يدري لم كل هذا، وما السبب فيه وعندما توجه الرجلان نحوه صرخ مجددًا قائلاً:

– والله ليس لي علاقة بأي شيء أنا أصلاً فاسد وداعر وليس لي نشاط إلا مع النساء العاهرات فقط.

ولكن الرجلان كأنما قد صُبَّا من صخر جماد لا يدرك ولا يتفاعل مع أي شيء فقد جراه وجرداه من ملابسه، وتم تعليقه في موضع وفيق ورفيقيه الآخرين، ودون سؤال هبط السوط معلمًا على كل أركان جسده، وعندما توقف الضرب على أثر إشارة الضابط وبصوت عميق خرج بعد أن نفث دخان سيجارته كأنما كان يستمتع بمشهد باسم الملتاع أمامه قال له:

– وضع البلد الآن لا يتحمل أي تلاعب من أي نوع.. هل تريد إقناعي بأن أربعة بغال مثلكم يتجمعون في حي ناءٍ وبشقة مهجورة لم يتم استئجارها منذ خمسة أعوام إلا أمس ويلتقون بها ويجلسون ليتسامروا ولا يتعجب أيًّا منكم ولا ينصرف رغم ادعائكم بأن هذا التجمع كان بسبب مكالمة هاتفية !!؟

رفاقك يقولون بأن المكالمة قد أغرتهم بالمال.. فبماذا أغرتك أنت يا رفيق العاهرات ؟!

استجمع باسم أنفاسه ومن بين آلامه، والنار التي تستشري بجسده قال:

– بالمال أيضًا فقد حدثني المتصل بأن هناك صفقة رائعة ستعود علينا بالملايين التي أنا في حاجة إليها للإنفاق على من أعرف من النساء، وعندما

كذبته وهممت بإغلاق الخط قال لي بأن معه فيديوهات كثيرة لي سيسرني أن أراها قبل أن أرفض أو أقبل.. ولهذا لم أجد بُدًّا من الذهاب، وأنا أتعجب متسائلا تُرى منْ هذا المتصل الذي يعلم أسراري للدرجة التي وصل فيها إلى تسجيلات مصورة لي ؟!

هز الضابط رأسه مظهرًا عدم تصديقه لكل ذلك وقال:

– هل تعلم ما هو تاريخ الغد وما يُعد للبلد من مؤامرات داخلية وخارجية ؟.. أراكم بالفعل تتبعون تشكيلاً ما غير معلوم لنا، ولن يغمض لي جفن قبل أن أظفر بمعلومة واحدة عنه.. فالأفضل لك أن تتخفف من عذابك وتبوح بما عندك

تهدج صوت باسم، وهو يقول:

– أقسم لك بأنا تحدثنا في هذا بالفعل قبيل مجيئكم، وقلنا أنه من المستحيل صنع أي تغيير بالبلد في ظل الحكم المُحكم والسيطرة الكاملة لكم بها.

قهقه الضابط عاليًا وقال:

– رائع ها هي عقدة لسانك بدأت تنفك.. هيا وبعد أن استعرضتم الواقع.. اتفقتم على أي شيء ؟

شعر باسم بالارتياع للفهم المعكوس لمقصده، وقال بسرعة مستدركًا:

- لا ليس الأمر كما تظن.. سأقص عليك كل حرف دار قبل مجيئكم.. نبيل أول من وصل ووصلت بعده، وعندما دخلت ظننته بأنه صاحب الدعوة وسألته قائلاً:

- ها قد جئت حسب الموعد والمكان فماذا تريد ؟!

ظن هو الآخر بأني أنا من ضرب له الموعد وقال:

- أنت من اتصل بي وحدد المكان والزمان فماذا تريد ؟؟.. وأدركنا بأن الدعوة وجهت لكلينا على حدة، وأن نص المكالمة بالفعل يتحدث عن أموال غزيرة لكل منا، وبدلا من أن ننصرف أغرانا ذلك بالبقاء لمعرفة كيف ستصلنا تلك الأموال التي تجاوز الملايين، وعندما وصل محمود سألته ضاحكًا:

- هل أنت قادم لأجل الملايين أيضا ؟

فتوقف وتردد وظن بأن هناك مزحة أو فخًّا، وهمَّ بالانصراف؛ فشرحت له بأنَّا رفاق له في الدعوة وننتظر ما ستسفر عنه في النهاية.. وبتردد كبير جلس مترقبًا، وهو متوجس منا.. وأخيرًا بعد ربع الساعة سمعنا صوت شخص يعاني في صعوده؛ فخرجت وأنا أتحسس طريقي حتى لا أصدر

صوتًا؛ فوجدته وفيق بشكله الكوميدي بضخامته وعبوسه، سمعته يقول:أنه لو يعلم بما سيلاقيه ما جاء تلبيةً لهذه الدعوة فعلمت بأنه رابعنا.. فأعددت له فخًّا لأفزعه وقد حدث، وكاد أن يتوقف قلبه، وهو مرتمٍ على الأرض ينتفض في رعب ويصرخ خوفًا وفزعًا، وانشغلنا معه وقتا غير قليل حتى هدّأنا من روعه، وعندما همَّ بالذهاب أيضًا تم توضيح الصورة له؛ فجلس بتردد، والوقت يمر، ولا أحد يظهر بعده فأخذنا نتسامر بأي كلام وتطرق حديثنا لمدة ثوان بأن غدًا الخامس والعشرين من يناير لن يحمل جديدًا؛ لأن مصر ليست تونس، وعندها وكأنكم كنتم تنتظرون هذا هجمتم علينا، ودخلتم ونحن في ذهول من الموقف ولا ندرى ما حقيقة الأمر، وحتى الآن أشعر بأنني في كابوس حتمًا سأستيقظ منه بعد قليل.

كان الضابط يدخن ببطء وينفث دخان سيجارته بهدوء وحدقته تضيق، وهو يستمع لباسم دون مقاطعه.. وعندما انتهى باسم مما قال كانت سيجارته قد انتهت؛ فتوجه بعقبها نحو باسم، وبمنتهى البساطة قام بإطفائها على صدره، والأخير يصرخ ألمًا.

وبصوته العميق قال له:

– إذًا فأنت تصر ولا تريد الاعتراف ؟؟

بكي باسم بتهدج وقال:

– أقسم بالله أن ما ذكرته لك هو كل الحقيقة ولا شيء سواها.

استدار الضابط وألقى بعقب السجارة خلف ظهره، وانطلق وهو يقول بلا عناية:

– سنرى.

وخرج من القاعة صافقًا الباب خلفه، ولم يهتم حتى بإصدار أمره بفك باسم من موضعه، ولهذا لم يتحرك الرجال، وظلوا على وقفتهم تاركين باسم يتلوى وهو يبكي ويقول بخفوت:

– ياللهول ماذا جرى وكيف أكون متهما هكذا في أروقة أمن الدولة !!!!

وفي القاعة المجاورة التي خرج إليها الضابط جالس زميله الواضح عليه أنه أكبر منه رتبه، والذي كان منشغلاً بقراءة بعض الأوراق التي يبدو أنها تقارير هامة وقال له:

– من الواضح بالفعل أن هناك مكيدة أوقعت بهم، أو ربما هو فخٌّ لشغلنا، وصرف أنظارنا عن شيء آخر في تلك الليلة اللعينة قبيل أحداث الغد، أزاح زميله الأوراق التي بيده جانبًا، وقال له بصرامة:

– طالما تيقنت بأنهم لا يد لهم في شيء اصرفهم لأي مكان يتبعنا خارج هذا المقر فغدًا سيزدحم بالكثيرين مع عمل شاق وكثيف.. وبعد هدوء الأوضاع سننظر في أمرهم ونعلم حقيقتهم الفعلية.

دون أن يرد عليه رفع سماعة الهاتف المجاورة له، وقال لمحدثه بمنتهى الصرامة والإيجاز:

– محمد انطلق بهم إلى مقر القطامية، واحبسهم هناك وعد مسرعًا في أقل من الساعة.

صمت قليلاً حتى سمع رد محدثه، ثم أومأ لزميله برأسه أن عُلم وينفذ...

*****

خمس ساعات مرت، وكل منهم مرتمٍ في جانب بارد، وهو متكوم يحاول لملمة بقايا مشاعره المتناثرة والمضطربة، وفيق يرتعد وكل ربع ساعة تنتابه نوبة من النهنهة والبكاء المكتوم، ورغم ارتدائه لكامل ملابسه إلا أنه كان يشعر بالعري التام، ولم تتوقف ارتعاداته طوال الوقت الذي مكث به منذ أن تم إلقائهم بهذه الزنزانة المظلمة.

باسم جالس على الأرض مادًّا ساقيه أمامه، وهو ذاهل تمامًا عمّا حوله، وكل برهة تمر عليه لا يتمالك منع نفسه من الابتسام، وهو يمصمص شفتيه ويقول:

- سبحان الله !!

نبيل ومحمود يحاولان تجنب الحركة التي غالبا تأتي مصاحبة لآلام تستشري بكل خلاياهما العصبية؛ فقد بدأت حفلة التعذيب معهما، وكانت على أوجها، ورغم ما لقيه وفيق وباسم بعد إلا أنه يُعدُّ أقل كثيرا من البداية النارية التي قوبل بها الأوليان، منذ أن قدموا لهذا الزنزانة بعد مسيرة ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة داخل سيارة خاصة مصمتة تمامًا وبلا نوافذ، ومنذ أن تم قذفهما بها وغلق الباب عليهم وسماعهم لأصوات إحكام الغلق بأكثر من مزلاج.. منذ ذلك الوقت، ولم يطرق سمعهم أي صوت خارجي أبدًا وكأنما قد انعدمت الموجات الصوتية في هذه البقعة، ولم يكن هناك سوى نحيب وفيق، وكلمات باسم القليلة، وتأوهات نبيل ومحمود المتفاوتة، والأغرب من ذلك لم ينفذ إليهم أي شعاع من الضوء حتى أنه لم يكن يفرق معهم إن كانوا مغمضي العينين أم لا..

كان الأمر أشبه تمامًا بفقدهما لحاسة البصر، ولولا أصواتهم الخاصة لرافقها كذلك ذهاب حاسة السمع..

رغم فقدانهم الإحساس بالزمن إلا أن برودة الزنزانة أيًّا كان موضعها أو محلها قد خفت كثيرًا مما يوحي بأن هذه الساعة حتمًا لا تنتمي إلى الليل بغموضه وبرودته، وبالبرغم من الإنهاك والألم والانهيار إلا أن النوم لم يطرق أجفان أحدهم، وأخيرًا تكلم باسم قائلاً:

– ما هذا الذي يحدث ؟!! من منكم جرني معه في هذا الأتون ؟!..

بعد فترة صمت نطق وفيق بمنتهى الحنق وقال:

– أقسم أن أمزقه إربًا بيدي وأسناني من كان سببًا فيما يحدث لي.

ونطق محمود بصوت مختنق من أثر البكاء الصامت الذي كان يستغرقه قائلاً:

– حياتي لا ينقصها كل هذا العذاب الذي لاقيته معكم هنا.. لدي ما يكفي من المصائب التي تحيق بي.. فلِمَ كل هذا ؟!

ولم يصدر من نبيل إلا تأوه بسيط، ولم ير أحدهم سبب هذا التأوه عندما حاول الاعتدال في جلسته ليجد الموضع الجديد أكثر إيلامًا؛ فما كان منه إلا أن تمدد على الأرض تمامًا، وهو نائم على ظهره ومادًّا ذراعية على امتدادهما وفاردًا ساقيه على شكل ثمانية وقال بصعوبة:

- هناك من أوقعنا بالفعل لسبب غامض عجيب فلا يعرف أحدنا الآخر، ولو كان الجاني منا لانكشف حتمًا بعد جحيم الأمس أثناء التحقيقات.

صمت الجميع دفعةً واحدةً كأنما قد حصلوا على إجابة أهم سؤال يختلج بصدورهم.

حاول نبيل التقلب فلم يستطع؛ فعاد لوضعه الثابت وهزَّ رأسه يسارًا ويمينًا، وأغمض عينيه محاولاً الانسلاخ من صراخ خلايا جسده المستشري بالألم، وبالفعل بدأ الخدر يسري بأوصاله، وكادت عيناه أن تغفلا لتأخذه سِنةٌ من النوم الذي يعد نعيمًا بالنسبة له الآن حيث الانصراف التام عن آلام التعذيب الباقية معه لتذكره بأقسى دقائق حياته على الإطلاق، وما كاد ينصرف عن عالم الواقع وقبيل أن يخطو بخياله إلى ساحة الأحلام حتى انتفض صارخًا على إثر الصوت المرعب الذي صدر من الباب، وهو يفتح بقسوة اشتكت لها مفاصل الباب نفسه، ولأول مرة تلمح أعينهم خيطًا من الضوء قادمًا من خلف الباب المفتوح ليرو أمامه جسدًا ضخمًا لشخص لا تظهر ملامحه كان ظله الممتد أمامهم والسواد الذي يكتنفه من أعلاه لأسفله؛ لأن الضوء خلفه يمنحه رهبةً ومشهدًا خاصًا ذكرهم بالهول الذي عاشوا فيه ليلة أمس، وبمنتهى الغلظة ألقى شيئًا على الأرض، وهو يقول لهم:

- طعامكم أيها الكلاب الضالة!...

وعندما همّ أن يستدير مغادرًا نادي عليه باسم قائلاً:

– لو سمحت كيف أذهب للحمام ؟!...

وقف الرجل الضخم المهيب الصوت هنيهة، والتفت وهو يقول:

– هاأو.. فلتفعلها في سروالك...

وجذب الباب بعنف أنَّ له إطار الباب على أثر الاصطدام به، وأُغلقت المزالج بإحكام، وانصرف الرجل تاركًا الصمت والظلام ليرافقا هذا الجمع التعيس مرةً أخرى، وعاد العدم إليهم ليعانقهم والصمت ليشملهم، ولكن صدر صوت وفيق قرب الباب، وهو يقول ساخطًا:

– أين هذا الطعام الذي ألقى به ذلك المأفون ؟!...

رغم ما يلم به لم يستطع باسم منع قهقهته التي دوت بصدى خاص، وهو يقول:

– كنت أعلم بأنك أول من سيبحث عن المأكل والمشرب هنا.. هذه فرصة جيدة لك للحمية يا وفيق.

أجابه صوت وفيق المنبعث من مكان قريب، وكان من الواضح جليًّا أنه قد فاز بلفافة الطعام، وعاد لموضعه وهو يقول بحنق وغيظ شديدين:

– لا شأن لك بي مرة أخرى فأنا أتضور جوعًا؛ فلم أتناول طعامًا منذ ظهر الأمس.

لم يستطع محمود التمسك بالصمت وهو يقول:

– أتعجب من أين تأتيك الشهية الآن !!

لم يجبه سوى صوت هرس الطعام بين فكي وفيق، وهو يتمتم بعبارات مكتومة غير مفهومة.. واستمر صوت تكسر الخبز بين اليدين والأسنان عشر دقائق قبل أن يتمتم وفيق بنفس سخطه الدائم قائلاً:

– أهذا طعام ؟!.. وكيف كان سيكفي أربعة رجال في وجبة واحدة!...

صاح نبيل بصوت مكتوم قائلاً:

– هل أجهزت على الطعام كله ؟!!.. تبًا لك فغالبًا هذا طعامنا جميعًا طوال اليوم وليس لوجبة واحدة أيها المعتوه والله أعلم متى ستكون التالية ؟!..

لم ينتبه وفيق لنقطة أنه تناول طعامهم كله وقال هاتفًا:

– ماذا ؟.. طعام لوجبة واحدة !!.. كيف هذا ؟!!

عادت قهقهة باسم مرةً أخرى ليقول:

– طعامنا يا وفيق وليس طعامك وحدك.

لم يجد وفيق إلا أن يصرف ذهنهم عن مسألة طعامهم الذي أجهز عليه إلا أن يفتح الحوار حول شيء آخر ليقول:

– تبًّا لهذه الظلمة إنها تثير أعصابي.. كيف يمكننا التغلب عليها ؟!..

وكأنما كانت جملته هي التنبيه المنتظر ليقلب باسم جيوبه ثم يقول حانقا:

– الأوغاد اللصوص لقد سرقوا علبة سجائري وقداحتي !!

فقال وفيق متسائلاً:

– محمود و نبيل هل لديكم قداحة ؟

أجابه نبيل قائلاً:

– لا أدخن فلم أحملها ؟

وظل محمود صامتًا برهةً، ثم قال:

– حتى لو كانت لدينا فمن البديهي أنها تم الاستيلاء عليها مثل سابقتها !

فقال وفيق بغيظ:

– حسنًا لا داعي للتذاكي فقد ظننت أنه ربما كنتم من الحنكة؛ ليكون لكم جيوبا سرية مثلي، ثم أعقبه صوت احتكاك واشتعال الضوء لأول مرة بالزنزانة ليغشي بصر الجميع مما دفعهم لتغمية أعينهم بأيديهم والتي بدأت رويدًا تعتاد الضوء، وابتعدت أيديهم لتفسح مجالاً للبصر ليستطلعوا المكان الذي هم به، زنزانة فسيحة عالية الجدران عانت أعينهم لتصل إلى منتهاها ورؤية السقف، ويوجد بها نافذة واحدة عريضة، ولكن مغلقة بصف من القرميد الأحمر المرصوص على حده الجانبي بما يعني أنه جدار غير سميك، وأمامه من الداخل أسياخ الحديد وتعجبوا كيف لم ينفذ منها ولو خيط شاحب من الضوء قبيل هذه الإضاءة بقداحة وفيق التي يمسكها بيده، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا مستطلعًا زوايا الزنزانة معهم، ووجدوا في أحد الأركان دلو صغير وبجانبه الكثير من البراز الجاف مما يخبر باسم أين سيقضي حاجته، وفي ركن آخر كانت زجاجتا مياه فارغتان ملقتين متجاورتين، وقبل أن يستطلعا بقية الأركان انطفأت القداحة ليسود الظلام مرة أخرى.. فهتف محمود قائلاً:

– لم هذا ؟!.. دعها تضيء لنا المكان، وتهون من وحشته قليلاً

فرد عليه وفيق بعنف قائلاً:

– وماذا ستفعل بعد انتهاء وقودها سريعًا أيها الذكي، دعها تفيدنا مرةً أخرى حين الاحتياج لها؛ فلا ندري إلى متى سنقيم هنا.

كان الصمت الذي عاد ليتربع على عرش المكان دلالةً موافقة الجميع لرؤيته، ظل السكون مهيمنًا لبرهة، وكان هناك صوت خطوات تتلمس طريقها بهدوء وتوجس أعقبها صوت احتكاك قماشي، وفجأة انهمر عليهم أحد أقوى وسائل الحروب الكيماوية..

غاز قاتل يشبه تمامًا رائحة تعفن أمعاء قط ضال لم يأكل في حياته إلا الجيف.. وقبل أن ينطق أحدهم كادت طبلة آذانهم أن تنفجر من أصوات المفرقعات المدوية التي كانت تهز زنزانتهم، وهتف باسم محاولاً التغلب على الضوضاء التي أصمتهم قائلاً:

– من اللعين الذي يقضي حاجته ؟!!

فأجابه صوت وفيق المتمعر، وهو يعاني آلام المخاض قائلا:

– احترم نفسك.

تبخرت آلام محمود ونبيل واصطدما بباسم، وهما يهرولان لأبعد زاوية عن تلك التي رأوها تمثل مكان قضاء الحاجة لهم، ولم يتمالك نبيل نفسه وهو يجاهد أن يسد أنفه، ويكافح رغبة القيء التي هاجمته، ظل جحيم الغازات السامة يظلل جمعهم حوالي ساعتين حتى تبخرت الروائح قليلا، واعتادت أنوفهم على البقية منها، وأخيرًا قال محمود:

- حرام عليك يا رجل ما فعلته بنا!..

فأجابه وفيق بمنتهى البساطة قائلاً:

- هل تريد أن أكتم بأحشائي وأموت ؟!..

رد نبيل قائلاً:

- لا فلنمت نحن فداءً لك !.. تباً...

بعد سويعات لم يدركوا عددها قال باسم:

- حلقي جاف أنا عطشان جدًا..

فرد عليه وفيق قائلاً:

- لا تذكرنا به فكلنا هذا الرجل، انتظر هذا الرجل بلهفة لنرى ما يمكننا الحصول عليه.

كان رده كافيًا؛ ليلخص رغبة الجميع في أن الجديد لن يأتي إلا من وراء المزاليج التي أحكمت عليهم، ولكن تأخر هذا الجديد كثيرًا، ولم يشعر أحدهم بالآخر، وقد غطوا جميعا في نوم عميق نتج حتمًا عن إرهاقهم الشديد وساعده بقوة الظلام والسكون سيدا المكان ومالكاه، ولحسن حظ

الجميع تأخر صوت شخير وفيق كثيرًا حتى انغمس البقية في المرحلة الأخيرة من النوم، وبالتالي كانت سيمفونيته الشبيهة بلعب طفل مشاكس ببوق ضخم مصدرًا أصواتًا عنيفةً بلا انتظام ولا تناسق لا تؤثر فيهم، ولم تخرجهم من الجنة التي وصلوا إليها مقارنة بالجحيم الذي هم فيه.

أول من استيقظ كان نبيل على إثر البرد القارص والوخز الذي بدأ يدب في جسده من أثر النوم على البلاط العاري والذي ضاعف البرودة التي شعر بها تخترق عظامه وتنخر فيها، ضم ملابسه أكثر ظانًّا أن هذا سيمنحه بعض الدفء، وانكمش بداخله محاولاً تغطية جسده ببعضه البعض، ولكن البرد كان الفائز والمنتصر الذي سلبه لذة النوم التي كان ينعم بها، أرهف السمع ليرى هل هو الوحيد المستيقظ أم لا فلم يجبه سوى شخير عازف لأقبح السيمفونيات الليلية، وبدون تحديد لنبرة الصوت التي لا ترافق هذا الشخير أدرك بأنه حتمًا وفيق، لم يدر هل يستاء أم يشفق عليه.. حاول التمسك بذيول الصمت، ولكن وجد تفكيره سيقوده حتمًا للجنون، فهو لا يدري كيف وصل إلى هنا، وما هي الأسباب ولا سبيل لمعرفة القادم وأيهما سيكون الأسوأ !!

لذا فضّل اقتسام الألم والمعاناة مع شريك ربما يكون مستيقظًا وملازمًا للصمت مثله في هذه الظلمة الباردة.. فنادي قائلاً:

– هل منكم أحد مستيقظ ؟

أجابه الصمت هنيهةً، ثم صوت تثاؤب أحدهم وأخيرًا رد عليه صوت محمود قائلاً:

– ظننت أني الوحيد الذي يعاني الوحدة والبرودة الآن.

عقب نبيل مؤكدًا على هذا قائلاً:

– لحسن حظهم أنهم ما زالوا بعيدين عن اختراق البرد لأحلامهم.

أجابه صوت باسم الحانق والناعس قائلاً:

– لو لزمتم الصمت لاكتمل حظنا بالفعل.

تجاهل نبيل شكواه قائلاً:

– البرد يجعلني أشعر بالجوع الشديد الآن، ووفيق التهم كل ما يمكنه سد رمقنا، هل أنا وحدى من تصرخ معدته مطالبة بحقها ؟!...

جاوبه محمود قائلا:

– أنا مثلك بالفعل.

وأكد باسم عليهم قائلاً:

– الجوع والعطش سويًّا ينالان مني ويفترساني، ولكن ماذا نفعل ؟! فنحن لا نسمع حتى دبيب النمل هنا؛ وكأننا في جب مهجور.

رد نبيل قائلاً:

– هذا مكان يتبع الجهات الأمنية، وحتمًا له على الأقل فردي حراسة حتى لو كان مهجورًا.. وبما أن موعد الطعام لن يكون في القريب العاجل فالحل هو أن نستميل أفراد الحراسة هؤلاء.

أجابه صوت محمود متسائلاً:

– وبأي شيء سوف نستميلهم ؟!

رد نبيل:

– اكتشفت بجيوبي الداخلية بعض النقود التي أفلتت منهم سوف نستخدمها معهم.. المهم كيف نجذب انتباههم ؟!

رد باسم قائلاً:

– سنقف نحن الثلاثة أمام الباب ونهتف ونصرخ بأعلى صوتنا منادين عليهم.

– حسنًا فلنتحسس طريقنا حتى نصل لهذا الباب، ونقترب من شباكه العلوي الضيق، ونصرخ من خلاله.

دون تردد قام الثلاثة يخوضون المجهول متلمسين طريقهم في الظلمة وصلوا إلى الحائط المقابل لهم؛ والذي يحوى الباب بأحد أجنابه فتحسسوا إياه حتى مست يدهم إطار الباب، وتجمعوا سويًّا وبلا اتفاق اقتربت رءوسهم من موضع الشباك.

وقبل أن ينطق أحدهم قال باسم:

– فلنوحد الهتاف حتى يقوي صوت كل منا الآخر، ولنختر نداءً يجذب انتباههم بالفعل، ولا يدفعهم لتجاهلنا

فقال محمود:

– فلنفخم منهم، ونقول لهم كلمة ياباشا

وتابع نبيل قائلاً:

– كلما كان الهدف مجهولاً كان أكثر جذبًا فلنهتف لشيء غير معلوم.

قال باسم معقبًا:

– حسنًا فلنقل "إلحق يا باشا".. هيا واحد اثنان ثلاثة،

وارتجت الزنزانة بصوتهم المدوي والصارخ بالنداء؛ فانتفض وفيق من نومه هلعًا وهو يصرخ:

– ماذا هناك.. ماذا هناك ؟!!

لم يتمالك باسم منع الانفجار ضاحكًا، وهو يقول:

– لقد نسينا وفيق وقد نال الانتقام الذي يستحقه

أكمل نبيل بضجر:

– لا وقت لهذا الآن فلنكمل الهتاف حتى نلفت انتباههم.. أكمل نومك أنت يا وفيق فنحن ننادي على أهل المكان ونريد جذب انتباههم.

أخذ وفيق يتمتم بسباب قبيح، واستكمل الرجال صراخهم أكثر من عشر دقائق حتى تهدل كتفى محمود وقال:

– لا أمل.. من الواضح ألا أحد هنا أو أنهم في مكان ناءٍ لا يصله صوتنا.

أجابه صمت باسم ونبيل اللذين شاركاه اليأس، وانطلقا بعشوائية ليرتكنا لأي حائط آخر جالسين مصارعين كل المشاعر السلبية التي اتفقت، وتوحدت على النيل منهم

اصطدم نبيل بساق وفيق الضخمة والممتدة، وكاد أن يفقد توازنه فسب ولعن وأجابه سباب أكبر من وفيق الذي طالبه بأن ينتبه لخطواته وكلامه.. وعاد الصمت مرة أخرى ليتربع على عرش المكان.. ولكن بعد هنيهة طرق سمعهم صوت خطوات بعيدة، وبلا اتفاق اندفع الرجال الثلاثة، وهذه المرة اصطدم محمود بساق وفيق الذي لا دافع لديه ليشاركهم ما هم فيه فما كان منه إلا أن ركلها بقوة وهو يقول له:

- هل تستولي على الزنزانة وحدك ؟!

واندفع غير مبالٍ لرد وفيق عليه، وهو يقول له:

- لا يا فصيح فأنا أشارك فيها ثلاثة حمير.

وعاد صراخ الرجال الثلاثة ليمزق أستار الليل والسكون الذي يسود المكان.. وأجابهم رد بعيد كان يقترب ويعلو بعد كل كلمة فيه دلالة أن صاحبه قادم إليهم بالفعل، وهو يقول:

- ماذا جري أيها الملاعين يا أولاد الكلاب ؟!

وفي مفارقة عجيبة كان سبابه هذا من أجمل وأروع ما طرق سمعهم من كلمات منذ أن وصلوا لهذا الجحيم..

اقترب الرجل وتوقف خلف باب الزنزانة، وهو يقول:

– ماذا بكم ولم تصرخون كالنساء ؟!..

أجابه باسم وهو يقول:

– نحن عطشى وجوعي جدًّا يا باشا.

أجابه صوت الرجل ساخطًا، وهو يقول:

– يا خسارة الرجولة تفعلون هذا لأجل الطعام والشراب.. الموت هو خير مذاق لكم بالفعل؛ فأنتم لا تستحقون سواه

سارع نبيل بالرد قائلاً:

– معنا المال الذي نبغي به طعامًا يا باشا.

تغيرت لهجة الرجل كثيرًا، وهو يقول:

– كم معك وماذا تريد ؟!..

تردد نبيل وحاول تذكر فئات النقود التي بجيبه حين خروجه، ولكن أجابه الفشل، وخانته ذاكرته عن تذكر ذلك.. كان يعلم مدى حساسية كل كلمة سينطق بها، وأنها ستحدد استراتيجية التعامل القادمة؛ حتى يظهر لهم ما هو المصير المرتقب، والمستقبل الذي سيواجهونه.. وكم كانت سعادته عندما تذكر قداحة وفيق.. فالتفت نحوه بسرعة وقال:

- رجاء إشعال قداحتك بسرعة يا وفيق حتى أمنح الباشا ما معي من نقود..

كاد وفيق أن يرد عليه بالسب واللعن، وأنه لن ينفذ له طلبًا، ولكن تذكر بأن الأمر متعلق بطعام حتمًا سيشاركهم فيه.. فتململ وبيد مثقلة برغبته في إذلالهم أخرج القداحة وأوقدها، وهو يقول له:

- بسرعة فلن أشعلها أكثر من ثلاث ثوان.

كان نبيل يعلم بأن الموقف لا يحتمل جدالاً أو صراعًا أيًّا كان لونه، وبسرعه أخرج النقود ليتفحصها ووجدها كلها من فئة الخمسين جنيها فسحب واحدة منها ومد يده بها عبر النافذة وهو يقول:

- تفضل يا باشا معي خمسون جنيها، وأريد أكبر كمية ممكنة من الطعام والمياه بها.

نُزعت الخمسين جنيهًا من يده في نفس اللحظة التي أطفأ فيها وفيق قداحته، وابتعدت خطوات الرجل، وعاد رفيقهم الأسمى ليعانق جلستهم.. إنه الصمت...

لم تمر أكثر من نصف الساعة حتى جاءهم الرجل، وقبيل أن يفتح الباب أشعل مصباحًا خارجيًا نفذ ضوؤه إلى داخل الزنزانة ليضيء أركانها رغم شحوبه، وفتح الباب ليمنحهم عدة أرغفة جافة وبعض الجبن الأبيض وقال لهم:

– هذا ما وجدته لكم.

نظر نبيل بحسرة وقال:

– لم أقصد الطعام الميري كنت أريد شراء طعام طازج !

ضحك الرجل عاليًا وقال:

– وما المانع ؟!! لك ما تريد.. سوف أرسل ما تشاء مع الخادمة القادمة لتنظيف غرفتك الفندقية.

هتف باسم بصوت منكسر مغلف بالتزلف الواضح قائلاً:

– لا عليك يا باشا، ولكن نسيت الماء فنحن نتضور عطشًا.

صمت الرجل هنيهةً وقال:

- هل لديكم زجاجات فارغة ؟

بدون جدال اندفع باسم ليمنحه الزجاجتين اللتين رآهما من قبل في أحد أركان الزنزانة، وهو يقول له برجاء شديد..

- أستحلفك بالله ألا تغلق هذا الضوء

قال الرجل متسائلاً:

- مقابل ماذا ؟

قلب باسم يديه في حيرة، ثم تذكر حزامه فنزعه من بنطاله وهو يقول له:

- هذا حزام مصنوع من جلد التمساح ثمنه يفوق مائتي جنيه هو لك.

قلَّب الرجل الحزام بين يديه متعجبًا ومتشككا في قيمته هذه وقال:

- سأفحصه وأرى ثمنه الحقيقي، ولو ثبت كذبك سوف أنير لكم الزنزانة بحريق جثثكم فيها.

انطلق الرجل وعاد إليهم بعد قليل بالزجاجتين مملوئتين بالماء الذي لا يدريان مصدره، وكاد باسم أن يبصقه بسبب مذاقه العجيب الذي ارتطم

بلسانه حين تجرعه، ولكن ليقينه باستحالة توفر البديل اضطر أن يتجاهل صراخ حاسة التذوق لديه، واستكمل الشرب حتى جاءته بشائر الارتواء..

كان التحسن الكبير على إثر الإضاءة وتوفر الطعام والشراب قد نزع منهم بعض المشاعر السلبية، وزرع فيهم بعض الحيوية التي كانوا يفتقدون لها..

صارعهم وفيق لنيل أكبر كمية من الطعام، وهم يذكِّرونه بأنه الوحيد الذي التهم جميع حقوقهم، ولكن لم يفلحوا في الإفلات منه؛ لأن قداحته قد ساعدتهم كثيرا؛ فمنحوه رغيفًا واحدًا معه قطعة جبن صغيرة رضي بهما على مضض..

انتهت عملية الطعام والشراب لينفجر باسم ضاحكًا، وقال له نبيل:

- هل جننت فجأة.

قال باسم، وهو يضرب كفًّا بكف:

- لا ولكن مرحلة الانتشاء التي شعرت بها الآن بعد الشبع الذي نلته عجيبة جدًّا مقارنة بما كنت عليه قبل جرِّي معكم هنا.

قال نبيل:

– الأمور كلها نسبية في حياتنا.. قد تحصل على كل ما تبتغيه من مطالب دنيوية، ولكن يصاحبه لامبالاة أو انتقاص للفرحة المتوجبة لهذه اللحظة.. وفي المقابل قد يكون سبب سعادتك القصوى لمحةً لمشهد رأيته في أقل من الثانية أو كلمة واحدة تطرق أذنك، ولكن لهما مفعول السحر لتعطشك إليهما، وهذا ما نحن فيه الآن.

قال وفيق ساخرًا:

– يا لك من حكيم.

همَّ نبيل أن يهاجمه، ولكن قاطعه باسم قائلاً:

– أرى وجوب تنظيم العلاقة، والتعامل منذ الآن حتى نعرف إلى متى سنبقى هنا أو ما هو مصيرنا؟!..

أيد نبيل كلامه قائلاً:

– هذا طبيعي جدًّا بعد ذهاب الصدمة يجب أن نضع استراتيجية للتعامل مع هذا الحارس الذي لن نجد ما نمنحه له بعد قليل؛ فنحن بحاجة للكثير مثل البطاطين وتوفير طريقة آدمية لقضاء الحاجة فلن نتحمل هجمة أخرى من وفيق، وذلك بالطبع بجوار المأكل والمشرب

قال محمود محاولاً طرق فكرة جديدة:

- هل يقبل هذا الرجل إيصال أمانة نمنحه إياه باسم أحدنا والبقية شهودًا عليه، وبعد خروجنا ينال قيمتها، وإلا فليحاكمنا بها.

قال وفيق بتهكم:

- هذا باعتبار أنكم لديكم أمل في الخروج من هنا.. من يدخل مقار أمن الدولة مفقود مفقود مفقود يا ولدي...

قال محمود ساخرًا:

- يا لخفة ظلك الرائعة، لقد بدأت في التشكك الفعلي أنك السبب الحقيقي لما نحن فيه الآن، أعدك بعدم الرحمة إن تبين لي ذلك.

صرخ وفيق قائلاً:

- أقسم بالله كذلك أن أفرمك أنت أيضا لو ظهر لي أنك كنت سبب هذا الجحيم.

قال باسم بضجر:

– دعكم من هذا الآن.. أول شيء نريد تحديده من هو المتحدث الرسمي مع ذلك الحارس؛ بحيث يكون التعامل المباشر بينهما فقط، فكثرة التعامل مع فرد واحد تصنع الألفة التي قد تخفف من وتيرة الضغط علينا والمغالاة في الطلبات؛ وبهذا لا نشتت المعاملات بين أكثر من شخص فينا.

قال نبيل مبتسمًا:

– تذللك له كان رائعا وجعله يستمع لك، وبهذا فأنت خير من يقوم بهذا الدور.

نظر باسم له مستهجنًا تلميحه، ولكنه تجاوز ذلك، وقال متنهدًا:

– حسنًا، ولكن يجب معرفة ما بقى معك من نقود حتى نحدد مطالبنا بما يتوافق معها قبل البحث عن خيار جديد

قال نبيل متنهدًا:

– ولكن تذكروا ذلك جيدا فلن أدفع وحدي لأجلكم

قال باسم زافرًا بقوة:

– تذكر كذلك أني منحته حزامي الثمين دون أن أذكركم بهذه التضحية، نحن هنا في قارب واحد سواءً شئنا أم أبينا يجب أن نتجاوز أي مناوشات

أو صراعات جانبية حتى نفلت مما نحن فيه، وبعد ذلك فلنتحاسب كما نشاء..

صمت الجميع تأكيدًا وموافقةً لكلامه.. وتم حصر بقية النقود المتوفرة مع نبيل، وبدون ترتيب وبعد أن كانوا متناثرين في أرجاء الغرفة انضموا سويًّا ملتحمين في جانب واحد ليمد كل منهم زميله ببعض الدفء الذي هم في شوق إليه..

ومرت الليلة عليهم ليأتيهم الرجل صباحًا، ولكن كان التوتر ظاهرًا عليه، وهو يلقي إليهم بلفافة الطعام، وينطلق دون حديث أو سباب كعادته.. وحتى عندما ناداه باسم بأنهم في حاجة إليه لم يرد عليهم، وانطلق مسرعًا كأنما يطارده بعض الشياطين..

قلَّب باسم يديه في حيرة، وهو يقول:

– ماذا حدث، ولم تجاهلنا هكذا ؟!

قال نبيل بتوجس:

– أمس كان الخامس والعشرين من يناير ترى ماذا حدث، وهل نجحت تحركات الشباب في الخارج بالفعل ؟!.. هذا التوتر دليل أن هناك ارتباكًا كبيرًا في صفوف أمن الدولة..

قال وفيق بحنق:

– انسوا تمامًا أمر السياسة لعن الله أباها؛ فما جئنا هنا إلا بسببها ونحن لا علاقة لنا بها.. إلا إذا كنت أنت يا نبيل المتهم الحقيقي الذي وصمنا جميعًا معه..

هم نبيل أن يرد عليه، ولكن سبقه باسم قائلاً:

– فلنتذكر جميعًا يجب تجنب المناوشات مؤقتًا..

ثم قام بفك اللفافة لتوزيع الطعام القليل والجاف بها بالتساوي على الجميع..

وبعد انتهاء الطعام نهض وفيق منتصبًا وهو يقول:

لا أستطيع المقاومة.. نداء الطبيعة ينال مني..

دون اتفاق مسبق قام الثلاثة منطلقين نحو نافذة الزنزانة، وهم يدقون بابها ويصرخون منادين الحارس الذي لم يرد عليهم هذه المرة، ولم يصبر عليهم وفيق حتى يرى رد فعل الحارس؛ فما كان منهم إلا أن ألصقوا وجوههم ببعضهم البعض، وهم يكادون أن ينفذوا من بين أسياخها الضيقة برءوسهم الضخمة.. ولم يرحمهم هذا من الجحيم الذي وضعهم وفيق فيه..

مر اليوم الثاني بلا جديد عليهم سوى أن الحارس لم يطرق بابهم، ولم يستجب لأي نداء لهم..

وفي اليوم الثالث ما إن جاء الحارس حتى قال له باسم قبل أن يأخذ منه الطعام:

- مائة جنيه مقابل خدمة واحدة.

تردد الحارس رغم التوتر الذي هو فيه، ووقف وقال بعصبية:

- ماذا تريد ؟

- أستحلفك بالله لا يهم البرد الذي ينخر عظامنا ليلاً.. المهم نريد وسيلة آدمية لدخول الحمام قبل أن نموت مختنقين بالروائح الكريهة هنا.

تردد الرجل وقلب كفيه ثم قال:

- هذا يتوجب أحد أمرين إما أن أقف معكم مرة يوميًّا هنا لدخول الحمام وهذا ما لن أفعله.. أو أن أفتح لكم هذا الباب مع إحكام غلق الذي يليه، وهذا كثير عليكم.

قال باسم بتذلل شديد:

مائتي جنيه، وهي آخر ما لدينا، وأعدك إن خرجت من الاعتقال، ورأيتك ألف جنيه أخرى.

صمت الرجل هنيهةً ثم قال:

– حسنًا هاهو سلاحي محشو ومعد للإطلاق لتذهبوا جميعًا إلى آخر ركن بالزنزانة أثناء فتحي لهذا الباب ولا تمدوا أيديكم عليه إلا بعد أن أحكم غلق الباب الخارجي وأناديكم.

تهلل باسم وقال والفرحة تتقطر من حروفه:

– أعدك بهذا.

ودون طلب منه اندفع الجميع إلى آخر ركن.. وسمعوا صوت دوران المفتاح بقفل الباب واحتكاك مزاليجه به وبعد أقل من دقيقة ناداهم بسباب لا داعي له بأنهم يمكنهم التحرك.

كان الأمر أشبه بإطلاق سراحهم إلى حديقة غنّاء.. مجرد التحرر من الغرفة كان انتقالا من عالم لآخر، ورغم أن خروجهم كان لصالة ضيقة مطلة على زنزانتين أخريتين فارغتين وحمام صغير قذر إلا أنه كان أشبه لديهم بالانتقال من العيش في كوخ إلى الرفاهية في قصر مهيب، وكأنما كان ظهور الحمام قد أيقظ بداخلهم كل الرغبات المكبوتة فقد تسابقوا جميعًا إليه.

انتهت بالنسبة لهم معاناة الحروب الكيميائية التي يشنها عليهم وفيق.. وكان توفر الماء شيئًا جديدًا رائعًا بالنسبة لهم قضى على العطش، وسمح لهم بالاغتسال، ولأول مرة يقوم أحدهم بالصلاة عندما وقف نبيل وقال:

– فليسامحنا الله على ما قصرنا من صلوات في الأيام الماضية؛ فقد كنا في أمسّ الحاجة إلى عونه سبحانه.. هل منكم من سيصلي معي ؟!..

لم يرد عليه أحد فقام ليقضي حوالي الساعة مصليًّا جميع الفروض التي فاتته.

وفي صباح يوم الثامن والعشرين من يناير انتظروا كثيرًا ظهور الحارس ليتفاوضوا معه حول البطاطين هذه المرة..

ولكن مر نصف اليوم ولم يظهر.. بل قد انقضى اليوم كله، ولم يأتهم حتى بالطعام القليل عديم المذاق، والذي تأقلموا عليه، واعتادوا أن يقتاتوا به..

اندهشوا لذلك، ولكن لم يكن لديهم ما يفعلونه إزاء هذا..

صبيحة التاسع والعشرين من يناير كانوا في لهفة حقيقية بانتظار الرجل فقد كان وفيق يتضور جوعًا، وقد تسارعت أنفاسه.. وكان الجوع قد نال من البقية؛ ولكن ليس بالدرجة التي كان يعاني منها وفيق، مر اليوم الثاني

كذلك، وهم لا يملئون بطونهم إلا بالماء، حاولو الطرق والنداء كثيرا ولكن لا يجيبهم إلا العدم،

تهاوي وفيق تماما، وقد أصبحت حركته بطيئة ومحدودة، ونبيل يصلي وحده، ويدعو الله أن يفرج عنهم الكرب الذي هم فيه، ولكن لم يتغير الحال..

صرخوا وطرقوا كل ما له صوت عالٍ وفتشوا عن أي مخرج وتفقدوا جميع الأبواب والنوافذ عسى إحداها يمكن فكها أو تحريكها، ولكن فشلت كل المحاولات.. فلا مهرب لهم مما هم فيه.

في اليوم الثالث.. كان الوهن قد نال من الجميع وليس وفيق وحده حتى أن نبيل أصبح يصلي قاعدًا..

وبعد أن صلى وختم صلاته ودعواته نظر لهم وقال:

– يبدو أنها النهاية.

لم يرد عليه أحدهم كان الأمر أوضح من تأييدهم لمقولته

ابتسم نبيل، وهز رأسه بوهن، وقال لهم..

- يُحكى في الأثر أن ثلاثة حُبِسوا في كهف بصخرة أغلقت بابه وانقطع بهم السبيل، وعندما أوشكوا على الهلاك اقترح أحدهم أن يقص كل فرد عملاً صالحًا يطلب شفاعته به عند الله، وكلما قص أحدهم عمله الصالح والكبير كانت تنفرج الصخرة برهة لهم، وعندما أتم آخرهم قصته تحركت الصخرة، وكتب الله لهم النجاة..

أرى بأننا جميعا لم نصل أبدًا لمرحلة العمل الصالح الذي يشفع لنا، فما رأيكم أن نقوم بالعكس ؟

نظر باسم نحوه متسائلاً:

وكيف هذا ؟!

قال نبيل مستطردًا:

- حتمًا كلنا ذووا ذنوبٍ وخطايا لا حصر لها.. فليذكر كل منا أكبر ذنب وخطيئة وقع فيها، وليتب عنها إلى الله، ويطلب العفو منه سبحانه بتوبته هذه.

قال محمود وهو يكاد أن يبكي:

- وهل تعتقد بأن الله سيغفر لنا حقا ويعفو عنَّا ؟!..

صمت نبيل هنيهةً ثم قال:

– ليس بيدنا غير ذلك.

لم يرد عليه أحدهم وبعد دقائق نطق باسم قائلاً:

– أرى فكرتك لا بأس بها؛ وبما أنك صاحبها، فلتنطلق ولتقص علينا ما هو ذنبك الأكبر يا صاحب الصلوات،

تنهد نبيل وابتسم وسرح ببصره؛ وكأنما يتذكر حياته بأكملها، وبدأ يقص عليهم القصص...

الفصل الثاني
أُسطورة الحُب

منذ عشرة أعوام كانت بداية دراستي بكلية الهندسة في جامعة القاهرة.. وبما أني الأخ الأصغر؛ فقد كنت المدلل المرفه فيهم صاحب الحظ الأكبر من العناية والاهتمام.. ولهذا كان اعتنائي بملابسي ومظهري يتميز بالدقة والمبالغة كذلك.. لم أكن أرتدي إلا الملابس ذات الماركات العالمية غالية الثمن، ولا أقبل بها إلا من المتاجر الشهيرة..

وعندما يجادلني أحدهم أواجهه بمقولتي:

إن الله جميل يحب الجمال.

بسبب نشأتي في أسرة محافظة، ولصحبتي المتدينة في الثانوية العامة كنت أواظب على الصلوات في جماعة، وأحفظ قدرًا لا بأس به من القرآن الكريم ،وأحضر بعض الدروس الهامة لبعض المشايخ الكبار.. ولأنه ليس لي إخوة من الجنس اللطيف كان هذا الكائن بالنسبة لي سر كبير ومنطقة محرمة لا أستطيع الاقتراب منها.. وبهذا يمكنك القول بأني لم أتعامل مع أنثي بعد وفاة أمي، وأنا في العاشرة من عمري..

حدث ذات يوم أن طالبتني زميلتي هناء بقلم، ونحن في أحد الدروس الخاصة؛ لأنها نسيت قلمها.. التعرق والارتباك، ووجهي الذي احتقن باحمرار جعل كل زملائي يقهقهون وقتها؛ مما جعلني على حافة البكاء..

لهذا كان البعد عنهم وتجنبهم؛ إنما هو حماية لي من الوقوع في هذا الفخ مرة أخرى.. حتى جاء ذلك اليوم المشهود..

كنت في محاضرة الهندسة الوصفية منصتًا باهتمام بالغ وبفهم جيد، وإذا برسالة قصيرة أتتني على جوالي، وانتبهت لها بسبب الارتجاج الذي هزني فقد كان جوالي في الوضع الصامت..

فتحت لأرى محتواها سريعًا.. وبلا وعي ولا إرادة قمت واقفًا وصارخًا:

- أبي !!..

والعجيب في التوافق المدهش الذي حدث وقتها.. ففي صف الطالبات وقفت إحداهن صارخة بفزع بنفس ندائي وهو تقول:

- أبي لا !!..

كان المشهد عجيبًا لا تفسير له، وقد توقف المحاضر مرتبكًا بعد أن هزته الصرختان، ولم يستطع منع الرعدة التي انتابته ولا وقوع الطبشورة من يده..

والزملاء الذين اتجهت أعينهم نحونا بدهشة وتساؤل لا حدود لهما!..

وأخيرا نطق المحاضر زاعقًا:

– ماذا هناك ؟!!!

ولكن أجابه اندفاعي من الباب الجانبي ناحية الطلاب، وبنفس التوقيت هرولتها من الباب المجاور لصف الطالبات..

كان المشهد مسرحيًّا بالفعل لا يمكن تصديق أنه بلا إعداد أبدًا، فرد فعلي الطبيعي بعد علمي بوفاة أبي من الرسالة القصيرة التي أرسلها لي أخي كان يمكن تداركه ومراعاته لو كنت وحدي، أما أن تقوم طالبة بنفس الهتاف وبنفس اللوعة وباندماج وتعانق صوتي بين كل حرف من حروف كلمة أبي.. لا يمكن أن يمر الموقف هكذا مرور الكرام.. ظننت وقتها بأن هذا ترتيب إلهي وإشارة كونية..

بالطبع وفاة أبي قد هزتني من الأعماق، ولم يكن بي عقل ولا انتباه لتلك الأفكار؛ فقد شعرت فجأة بأني إنما عبرت حاجز الطفولة، فرغم عامي التاسع عشر إلا أني كنت أعيش في ثوبها، وأتنعم برحيقها في وجود أبي، فجأة انهار الحصن المنيع الذي كنت أحتمي به.. واختفى الحائط الظليل الذي كنت أرتكن إليه..

مر شهر كامل حتى بدأت التآلف، والتأقلم على الحياة بدونه..

وبدأت انتبه لها (سومة) أرق وأجمل وألطف وأروع فتاة يمكن أن تقع عليها الأعين..

متوسطة الطول نحيفة الجسد مستديرة العين التي يعلوها حاجبان دقيقان بلا تدخل وأنف رقيق صغير .. ويكسوها اللون الأسمر، وتغطي رأسها بخمار يمنحها مشهدًا مهيبًا ومحببًا لي..

علمت أن توقيت وفاة والدها مع وفاة والدي هو مصدر المشهد الذي كان سببًا في كل ما حدث، وتتابع بعد ذلك..

كنت ما زلت على حيائي وخجلي وارتباكي من التعامل مع الإناث.. كنت أتجاهلهن ولا أتتبعهن حتى لا يحدث الوقوع في الفخ الذي يفضحني ويكشفني بعد ذلك وهو أني فاشل تمامًا في التعامل معهن، وأخشى أن أصير أضحوكةً أمام مخلوق بعد ذلك..

وكان يسرني أحاديث ودروس منع الاختلاط، وأحرص على قراءتها لأنها تساعدني في ذلك جدًّا..

ولست أنكر بأني كنت أحسد زملائي ذوي العلاقات المتعددة والناجحة..صفوت الذي ينطلق وسط خمس طالبات على الأقل، وضحكاته التي ترج الرواق الذي يتواجد به ومزاحهن معه لا يتوقف.. مشهده كان يقذف بالحسرة في قلبي.. ولم ألبث أن أتذكر بأني أفضل منه؛ لأني أطيع الله عز وجل ولا أرتكب محرما، وإن كنت في أعماقي أتمنى معشار ما هو فيه..

وأخيرًا انكسر الحاجز بظهور سومة، وبعد أن لفتت انتباهي لها، أو أراد الله أن يجعلها نصب عينيّ.. وبدأ تتبعي لها.. بسمتها الخجولة دومًا، والتي تحاول حجبها بوضع كفها على فمها حين تفعل كانت تسحرني، وكان هذا هو المشهد الذي رسمتها به، نسيت أن أخبركم بأني أجيد وأتقن الرسم بدرجة مذهلة، وقد رسمت صورتها، وهي تبتسم بخجل، وتواري فمها بكفها الصغير، وأخفيتها بين كتبي، وبمعدل كل نصف ساعة كنت أختلس التطلع لها وابتسم، كنت أظن بأنها لا تشعر بي ضمن الحضور، ولكن حدث في إحدى الراحات بين محاضرتين كنت أختلس النظر نحوها، وإذا بالتوقيت المدهش يتكرر، فقد التقت أعيننا بمقدار فيمتو ثانية..

فانحرفت رقبتي بقوة مبتعدة بنظري عنها قبل أن تضبطني متلبسًا بالنظر نحوها.. ولكن دقات قلبي تسارعت منافسة صوت قرقعات عجلات قطار صاروخي منطلق بأقصى ما لديه..

هزتني فرحة وشجن لا مثيل لهما..

ما هذا.. كيف فعلت بي ذلك ؟!..

نظرة واحدة تصعد بي إلى الآفاق، وتطوف بي بين السماوات مستكشفًا ما وراء الغيم بأعالي الكون..

سيطرت سومة على كل تفكيري واقتحمت أحلامي..

كانت تجالسني وتحدثني بأنها تحترمني جدًّا وتُكِنُ لي كل تبجيل، وأنه لا مثيل لي.. وأنا جالس أمامها منصتًا لكل حرف من حروفها الذهبية الرنانة.. واستيقظ شاعرًا بأني ملك متوج على عرش السعادة الأبدية.. تتبعت كل حركاتها وتصرفاتها.. رفقتها للمتدينات كانت تعجبني جدًّا.. فنحن نعزف على نغمة واحدة، ولهذا عندما علمت بأنها عضو نشط في أسرة اليقين توجهت بلا تردد للاشتراك فيها، وبعد أن كنت أؤجل الصلوات لما بعد عودتي.. أصبحت صلواتي بمسجد الكلية مناجاة لها؛ لعلمي بأنها قريبة جدًّا منِّي في مصلى السيدات، وهي تفعل نفس الحركات، وتقول نفس الكلمات التي تنطق بها شفتاي الآن.

وكان أسعد خبر عندما أعلنت أسرة اليقين عن زيارة لمعهد الأورام بشارع القصر العيني، ورأيتها تقوم بتسجيل أسماء الطالبات، لهذا توجهت مسرعًا لتسجيل اسمي لدي المسئول عن تدوين أسماء الطلاب، ورغم أنها كانت في مؤخرة الحافلة برفقة الطالبات، ولكن كنت أشعر بأني مجاورًا لها ملتصقًا بها ممسكًا بيدها، وأبثها كلمات الحب، وهي تبتسم ابتسامتها الحيية، وتحاول حجبها بكفها الجميل، وعندما وصلنا إلى المستشفى توجهنا نحن إلى قسم الرجال، وذهبت هي مع الطالبات نحو قسم النساء..

كان المشهد قاسيًا مؤلمًا قاتلاً..

لأول مرة في حياتي أجد وأرى تلك الأورام ذات المشهد البشع، ولا زال مشهد الرجل المصاب بورم سرطاني في أنفه مقتحما عينيَّ، واقترب الغزو من شفته العليا، ورأسه الخالي من الشعر.

الرجل كامن في صمت وبعينين لا تعبير فيهما نظر نحونا، وحاول تصنع الابتسام، وفشل وأخيرًا سالت دمعة متجهة نحو أذنه في المسار الذي حدده له الورم الكبير الذي شوهه تماما.. كنت أضحك قديمًا على النكتة القائلة بأن أحولا عندما يبكي تهبط الدموع على أذنيه.. ولم أتخيل أنه سيأتي يوم أرى فيه هذه الدموع التي كانت تضحكني تنال مني وتبكيني هكذا.. ما زال ذلك المشهد مذكِّرا لي حتى الآن بأنه مهما ألمّ بي من ألم أو ابتلاء فهناك من هو أشد مني معاناة في هذه الأرض، لم أتحمل رؤية المزيد بعد انتهاء زيارتنا للعنبر الأول، فتركتهم واندفعت إلى صالة الانتظار والرؤية أمامي مشوشة تمامًا من أثر الدموع التي فشلت تمامًا في توقيفها..

جلست على المقعد الثلاثي والرؤية أمامي غير واضحة المعالم، وبعد أن هدأت قليلاً، وتمالكت نفسي وجفت دموعي، وعندما انقشع ضبابها، واتضحت لي الرؤية كانت المفاجأة..

فقد كانت سومة جالسة على المقعد المقابل لي تمامًا، وبمسافة قد تقل عن المترين، وهي تغالب نشيجها وتجفف دموعها بمنديلها الورقي.. كان المشهد عجيبًا ومتناقضًا تمامًا.. لم أكن أدري هل من المفترض أن أفرح أم

من الأنبل المحافظة على مشاعري الإنسانية الجميلة التي استيقظت بداخلي.. ولكن الفرحة التي اقتحمتني حسمت السباق.. خمس دقائق حتى توقفت.. وأخيرًا تطلعت نحوي.. يا للهول.. إنها تطالعني مباشرةً بلا أي حواجز أو مثبطات..

إن لم أتحرك الآن وانطلق فلن تعود هذه الفرصة أبدًا..

يجب أن أتحدث الآن..

كان الأمر أشبه برفع جلمود صخر ماكث فوق صدري منذ تسعة عشر عامًا.. يجب أن أقاوم وأتغلب عليه.. وقد حدث..

قلت لها:

– المشاهد بالداخل قاسية جدًّا، ارتبكت قليلا، ولكنها ردت في صوت خافت قائلةً:

– بالفعل.. نحمد الله عز وجل الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا...

وانتهى الحوار الكبير الذي دار بيننا بهاتين الجملتين..

كل حرف فيهما كان يشكل عندي معلقة من معلقات عنترة العبسي، والتي لم يكشف عنها لمخلوق، وماتت معه واستيقظت لي أنا فقط.. ظللت لمدة أسبوع أسترجع رنة صوتها لكل حرف، وأتغزل فيه وأتمعن في جماله..

ولأول مرة في حياتي بدأت في تسطير يومياتي..

وبدأت في استكشاف عالم جديد..

بعد وفاة أبي بشهرين تغيرت معاملة أخوتي لي كثيرًا..

لأول مرة أجد منهم هذه الصرامة وذلك الجمود..

أخي الأكبر قالها لي صراحة بأن معاش أبي سيكون هو كل ما يمكنني الحصول عليه من مصروفات على دراستي وملبسي، وأن مأكلي سيكون كل يوم لدى أحدهم.. حمدت الله أنهم جميعا مقيمين في نفس العقار حيث أن المبني ملك لأبي، وقد خصص لكل منهم شقة به.. وبهذا لن أذهب لكل حي من أحياء القاهرة يومًا كي أتناول وجبة لدى أحدهم، وبعد فترة فوجئت بأخي الأوسط قادمًا برفقة زوجته، ويقول لي بأنه سيحمل أثاث غرفة الصالون لشقته؛ حتى يشغل بها نصف الصالة الفارغ لديه، وعندما بادرت بالاحتجاج تساءل مستنكرًا ما حاجتي إليها، وهل يأتيني الزوار أفواجًا، ولا يجدون ما يجلسون عليه، وذكَّرني بأن نصيبي في البيت هو الشقة فقط، وما بها من أثاث هو مشاع..

شعرت باليتم الشديد حينها ..

وقتها نمت وفي حضني صورة أبي، ودموعي تسيل أنهارًا متحسرًا على أيامه التي مضت، وكيف لم يكن يجرؤ أحدهم على معارضته في أي شأن يخصني.. وفهمت الآن مغزى جملته التي لم يكف عن ترديدها عندما يخبره أحدهم بأن تدليلي الزائد هو ما يفسدني.. فقد كان يقول:دعوه يتحصل على شيء من الدنيا قبل وفاتي؛ فالله أعلم بما ستفعلونه به بعدها..

رحمك الله يا أبي.. حقًّا لا نعلم قيمة النعمة التي نحن بها إلا بعد فقدها..

لم يعد يعنيني ما يأخذون من أغراض بشكل يومي من الشقة في تسابق بينهم هم الثلاثة؛ كأنما هي غنائم حرب لمن يصلها أولا ينالها، ولم يكن يهمني سوى شيئين فقط.. التلفاز وحاسوبي.. وبالفعل في خلال أشهر قليلة تجردت الشقة من كل ما فيها، ولم يعد بها إلا الموقد والثلاجة والتلفاز وحاسوبي ومكواة.. بالطبع مع سريري الصغير بمفارشه ودولابي ذي البابين..

وما عدا ذلك حتى السجاجيد فقد تم نهبها..

كل ذلك بزعم أني لن استخدمها أبدًا، و من الحرام تركها لتفسد.. ولكن أخي الأوسط قالها صريحة قبلهم جميعًا.. بأن نصيبي هو جدران الشقة فقط..

أصبحت الآن بين عالمين، عالم مظلم قاسٍ لا أطيقة بالمنزل، وآخر به تحليق في سماء العشق والمحبة وذلك بالجامعة التي أصبحتُ أول من يذهب إليها وآخر من يفارقها..

مجرد رؤيتي لسومة كان ينسيني كل ما يثقلني من آلام وأحزان.. كانت بسمتها الوضاءة تمحو في ثوان كل عوالق الظلم التي تغمرني بالهم والضيق.. نعم أحببتها من أعماق قلبي.. هي الوحيدة التي أتمنى جوارها في هذه الدنيا.. ولكن هل يمكن أن يكون الحب هكذا بدون تواصل ؟!

فقد أكون في وهم كبير.. ما الذي أعرفه عنها وعن أسرتها وتفاصيل حياتها ؟.. من الجائز جدًّا أن تكون مرتبطة بأحد أقاربها رسميًّا، أو بأي شخص آخر بشكل عاطفي، يجب أن أتجاوز خجلي وفشلي .. يجب أن أخترق حاجز الخوف عندي، وأن أتعامل معها بشكل مباشر، وجاء الحظ ليخدمني..

كانت أسرة اليقين تقيم معرضًا مصورًا لبعض الأحياء والقرى الفقيرة بمصر تكشف كيف يقاتل الناس و يتملقون الحياة في البقاء؛ وذلك كي يتبرع القادرون لمشروع توصيل مياه الشرب لعدة قرى تم حصرها لم تختبر من قبل مذاق الماء العذب الصحي، وكانت سومة مشرفةً بأحد أجنحة المعرض ويذهب إليها الطلبة ويشاهدون الصور ويتناقشون معها مرة متسائلين أين

هذا، ومرة في نقاش سياسي كيف لا تعلم الحكومة بهم ولا تساعدهم، وهي تنطلق في الإجابة عليهم بما يوصل رسالتها ..

رائع جدًّا.. حديثي معها هكذا في المشاع سيكون مباحًا وقد أتمكن من صنع التمهيد الذي أريده للوصول إليها فلن يأتي كل شيء دفعة واحدة، دخلت المعرض وطفت ببعض أقسامه، وأنا غائب تمامًا عن صور الأطفال نصف العرايا الذين يتجرعون الماء من الترع الملوثة والمعكرة بالقاذورات.. لم يشغلني أيها وأنا أرقب سومة من طرف خفي.. وأخيرًا أصبحت وحدها بعد أن خفت الأقدام من جناحها، هممت بأن أذهب نحوها ووجدتني أرتج من أعماقي، وارتعدت بشكل حقيقي غير مجازٍ، يا للهول أنا ذاهب للحوار مع من أحب وجهًا لوجه، كنت أقدم قدمًا وأؤخر الأخرى، وعزيمتي تخور مع كل خطوة أتقدمها للأمام، قلت بأن هذا الجو لا يسمح بأي حديث.. زعمت بأنه يجب تقديم وسيط.. اقترحت أنه من الأفضل مراسلتها.. ولست أدري كيف كانت قدماي المثقلتان بحجرين من أحجار الهرم الأكبر تتحركان للأمام، وهذه الهواجس تفترسني وتمزق أوصالي..

اقتربت نحوها ولم يعد يفصلنا سوى أمتار أقل من عدد أصابع اليد الواحدة، وعيناي تكادان أن تفرا من محجريهما وبدأ العرق يسيل على جبهتي.. وإذا بها تنظر نحوي وتقف مستعدة للقائي ..

أوشكت على الالتفات والهروب جريًا؛ كأنما أفر من وحش كاسر برز لي من العدم.. ولكن بسمتها التي ارتسمت مزينة وجهها مع عينيها اللتين توقفتا ولم تفارقا عينيّ أزالت كل شيء دفعة واحدة.

يا للهول إنها تنتظرني وتبتسم لي.. هذا كثير جدًّا، ويفوق كل ما كنت أحلم به في هذا اليوم..

ولكن قبل أن ترتسم ابتسامتي على وجهي لترد عليها.. إذا بصوت أنثوي قادم من خلفي وتجاوزني لإحدي الزميلات التي سبقتني، وسلمت عليها وقبلتها، ووقفت لتحدثها، ارتبكت وكدت أن أنصرف فعليًّا هذه المرة، ولكن واتتني الفكرة، لما لا أذهب وأطالع إحدى اللوحات القريبة منها منصتًا لحديثهما الذي سيعطيني الكثير من المعلومات التي أبغيها.. وقد كان..

كانت زميلتها تثني على المعرض وفكرته، وقالت لها لا نريد أن يتوقف النشاط عند مجرد معرض لمدة يوم واحد.. فردت عليها سومة بأن الموقع الإليكتروني للأسرة على شبكة الإنترنت سيتابع هذا الأمر بأكثر من شكل مبتكر لها..

وخرجت بأثمن معلومة من الممكن أن أصل لها.. وذلك لأن ثرثرة البنات هي أفضل مصدر معلومات يمكنك الوصول منه لكل ما تبغيه.. فقد ذكرت لها بأن حسابها داخل الموقع باسم "مؤمنة بالله"

يكفيني هذا جدًّا..

لقد منحتني مفتاح التواصل معها وبشكل غير مباشر يعفيني من عجزي المكبل لي..

انصرفت من المعرض، وقد فزت في هذا اليوم بصيد ثمين بالفعل، وصار تفكيري هو كيفية استثماره بشكل جيد يوصلني لبغيتي.

كان ولوج شبكة المعلومات وقتها عام ٢٠٠١ عبر خطوط التليفون، وبأرقام تبدأ بعدة سبعات، وتضاف قيمة استهلاك الإنترنت إلى تكلفة مكالمات الهاتف في فاتورة واحدة..

وبالطبع كان من السهل عليّ دخول الإنترنت دون توصيلات، ولا أجهزة مساعدة، ولكن لم تكن شبكة المعلومات الخارقة بمثل هذه الشعبية والسهولة التي نحن فيها الآن، والتي تجعلك تتعثر في ابنة أخيك ذات السبعة أعوام، وهي تكتب على صفحتها بالفيس بوك قائلةً:

– قلبي الدامي لا يتحمل كل هذه الآلام.. أرجو من الدنيا أن تمنحنى شيئًا من الضوء لينير لي سماء أحلامي، فتتحسر أنت على البقعة الكبيرة ذات الرائحة النفاذة التي تركتها بفراشها صباح هذا اليوم..

أما وقتها كان من التباهي أن تقف لتقول أنك فتحت بريدك الإليكتروني فوجدت به خمس رسائل كاملة، وأنك تصادق صديقين من إنجلترا وثلاثة من ألمانيا وواحد من الولايات المتحدة، ورفاقك يقفون مشدوهين فاغرين أفواههم ينظرون إليك؛ كأنما يطالعون كائنًا قادمًا من مجرة أخرى..

وكان الهدف الأكبر والأسمى لدخول شبكة الإنترنت وقتها بين الشباب المصري إنما فقط لاستخدام برامج الحوار للتعارف بين الجنسين.. وكذلك لم تكن المواقع والمنتديات بمثل القوة والتنوع والإمكانات الكبيرة ولا الشعبية التي اعتدنا عليها الآن..

ولكن عندما دخلت على صفحة أسرة اليقين بكلية الهندسة كان طلبة قسم الإليكترونيات مدهشين بالفعل..

موقع بسيط جدًّا، ولكن به من وسائل الإبهار مالا حصر له

التصميم الرقيق والبسيط والجذاب والأبواب المتجددة بشكل يومي بالمواضيع الثرية التي تمس الشأن العام لأي متصفح عادي، ثم القسم الرئيسي والهام وهو المتعلق بأنشطة الأسرة، وهذا ما ذهبت إليه مباشرة..

بحثت عن مشروع إمداد القرى الفقيرة بمياه الشرب العذبة ووجدته لأتفحصه بحثا عن مؤمنة بالله .. وعدت بظهري للخلف وأنا ابتسم.. شعرت كأني أقف قبالتها بالفعل عندما رأيت اسمها..

أنا الآن معها بلا خوف ولا خجل ولا تردد ولا ارتباك..

فتحت قائمة الأوامر المتعلقة بعضويتها أملاً في العثور على وسيلة اتصال مباشرة معها، وللأسف لم أجد..

سحقًا.. ما فائدة الموقع إذاً ؟!.. أنا لا أريد منه إلا وسيلة للوصول إليها.. ولكن تناسيت مؤقتا رغبة التواصل عندما وجدت ضمن الأوامر المتاحة لعضويتها استعراض جميع المواضيع التي كتبتها مؤمنة بالله.. رائع جدًّا.. هكذا يمكن تجميع مواضيعها هي فقط وتصفحها وقراءتها، وكأنما أنا مسترخ في جلستي مغمضًا عينيّ منتشيًّا بصوتها، وهي تقرأ عليّ فصولاً من الكتب المتنوعة.. قراءتي لكلامها الآن إنما هو حوار غير مباشر معها.. سأفهم ما يدور برأسها.. سأتعلم حروفها ومفرداتها وتعبيراتها.. سأرى كل قناعاتها وثقافتها وفكرها .. وقد كان.. ليلة بأكلمها أقرأ مواضيع نقلتها أو خواطر خطتها وأفكارًا طرحتها.. لأجد أمامي أسطورة أشعرتني بالعجز الحقيقي !

أين أنا من صاحبة كل تلك المشاعر النبيلة الرقيقة الراقية الجميلة ؟!.. أين أنا من تفاعلها الكبير والنشط مع كل القضايا الاجتماعية والمجتمعية حولها ؟!.. ولهذا تعدلت فكرتي من مجرد الحوار معها والتواصل المباشر الذي إن تم في هذه المرحلة فسيكون وبالاً عليّ.. شخصية بمثل هذه القوة والنقاء أمام ضعفي وقلة حيلتي حتمًا لن أكون داخل دائرة اهتمامها أبدًا..

لذا المرحلة الحالية تتطلب التطور حتى أستطيع مجابهتها.. وقد كان..

بعد أن كنت عضوًا منتسبًا فقط بأسرة اليقين انتقلت لمرحلة النشاط والابتكار والريادة بها، و بعد خمسة أشهر أصبحت ضمن مقرري الأسرة في اجتماعهم الضيق الذي يقررون فيه كل الأنشطة والفعاليات والمشاريع التي ينغمسون فيها.. وحدث ما كنت أرجوه.. لقد أصبحت مشرفًا بأحد أبواب الموقع، وظهرت لي وسيلة التواصل معها حيث أن المشرفين يتوفر لهم البريد الإليكتروني لجميع مشتركي الموقع بما فيهم إدارته..

ابتسمت بظفر الآن يمكنني الفوز بالغنيمة..

فتحت صفحة بريدي، وأنشأت رسالة جديدة، وهممت بالكتابة فيها

ولكن.. توقفت.. ماذا أكتب ؟!!

عاد العجز ليتملك كل أوصالي مرة أخرى..

حاولت ابتكار أي حجة أرسل لها رسالة تكون البداية وفشلت، جميع الأنشطة التي شاركت فيها وتفاعلت بها وبرزت من خلالها لم يكن هناك أبدًا اجتماع مشترك بين الطلبة والطالبات، وكان يتم فقط حوار جماعي أسبوعي عبر الصفحة الخاصة بالإدارة في الموقع، والتي تسمي "ديجي شات" ولكن كان ذلك في توقيت محدد يجمع الجميع دفعةً واحدةً.. وينتهي كل الحوار فيه علنًا، ولا يتبقى أي شيء لينفرد شخص بآخر لأي أمر.. ولكن بعد كل ما بذلت من جهد قررت أن أرسل أي شيء، ولا أضيع كل ما بذلت أدراج الرياح.. لهذا كتبت في الرسالة دعاءً لها قائلاً:

- أسأل الله عز وجل أن يرزقك خيريّ الدنيا والآخرة وأن يوفقك إلى ما يحبه ويرضاه، وترددت كثيرًا، وارتعدت وأنا اقترب من زر الإرسال..

شعرت وأنا أضغط عليه كأنما قد صُبَّ هذا الزر من مادة أسمنتية صلبة لا تقبل التحرك..

ولكن أخيرًا تم الإرسال، وهممت أن أمد يدي لأمسك بالرسالة قبل أن تنطلق متراجعًا عما فعلت..

ولكن كالرصاصة التي لا يمكن استرجاعها بعد رميها.. كانت الرسالة قد غادرت وحتما مستقرة الآن بصندوق الوارد لديها..

شعرت بالندم على ما فعلت، وتوقعت كل شيء سيء قد يحدث لي جراء فعلتي الشنيعة هذه..

ماذا ستقول عني الآن، وكيف سيكون رد فعلها ؟!..

لقد أضعتها من يدي بفعلي الأرعن هذا..

ستتغير نظرتها إليّ بالظن أني أغازلها؛ كما أفعل حتمًا مع كثيرات غيرها من وجهة نظرها..

جهد الشهور الماضية ذهب أدراج الرياح بسبب هذه الرسالة..

كنت أدور في حجرتي الباردة ذهابًا وإيابا، وكل عشر دقائق أذهب لأتفحص بريدي منتظرًا رسالتها التي حتمًا ستحمل توبيخًا لا مثيل له وطلبًا أن أترك أسرة اليقين التي لا تتحمل أمثالي..

نسيت تمامًا وجبة عشائي التي من المفترض أنها تنتظرني عند أخي الأكبر، وبالطبع لم يسأل عن سبب تغيبي أو ليرى لم تأخرت، وجهازي يئن من كثرة الضغط على زر إعادة التحميل لصندوق الوارد منتظرًا الطعنة التي لن أتحملها..

وعند منتصف الليل أخيرًا أضاء صندوق بريدي باسمها..

شعرت بدقات قلبي تدفع الدماء بعروقي التي تكاد أن تنفجر؛ لتقذف بما فيها ليرتطم بسقف الغرفة..

رغم تعرقي بسبب ما أرتدي من ملابس ثقيلة وتوتري وكثرة تحركي طوال الساعات الماضية.. إلا أني فجأة شعرت بالبرد يحتويني..

كانت اللهفة نحو محتوى الرسالة تدفعني بقوة لفتحها..

والخوف من هذا المحتوى بما فيه من تقريع ولوم وعقاب يجرني للخلف.. وأخيرًا وبعد الصراع الدامي بين اللهفة والخوف ضغطت لفتحها.. لأجد المفاجأة التي هزتني من الأعماق..

لقد ردت علي قائلةً:

- جزاكم الله خيرًا

يا إله الكون.. بهذا اليسر وبمنتهى السهولة وصلت لما أريد...

أحمدك ربي على فضلك ومنّك وكرمك..

من الواضح أنها كانت تنتظر هذه الرسالة، أو أنها جاءت إليها على حسب هواها.. يبدو أني فعلا قد لفت انتباهها منذ أمد، بالطبع الموقف الذي أراد الله عز وجل لنا أن نبدأ به معرفتنا لا يمكن أن يكون صدفةً أو عفويًّا..

لقد كان هو إشارة انطلاق محبتي لها.. فكيف لا يفعل معها.. فكما كنت أراقبها حتمًا كانت تراقبني من طرف خفيٍّ، لقد كانت فقط تنتظر إشارة البدء مني ليبدأ التواصل

وقد تم، في هذه الليلة نمت نومًا هنيئًا لم أر مثيلاً له من قبل، وفي اليوم التالي كنت أسير بطرقات الكلية منتشيًا ألقى السلام على هذا وذاك بمنتهى الحماس والنشاط؛ كأنما قد عدت من غزوة كبرى فتحت بها بلاد ما وراء البحار، ووجدتها واقفة وحدها أمام باب قاعة المحاضرات تخرج أو تدخل شيئًا إلى حقيبتها، وبينما هي تفعل نظرت نحوي ثم سريعا عادت ببصرها نحو الأرض في خجل واضح كأنما تخبرني أن كفى، ولكني مررت بجوارها، وأنا أقول لها بصوت خافت:

- السلام عليكم.

وارتجت أعماقي، وأنا أسمع همسها ردًّا على سلامي،

لقد نجحت يا نبيل، وأخيرًا اخترقت العالم المحرم عليك من قبل، كان نجاحي هذا هو الدافع القوي لي للخطوات التالية، والتي لم أكن أحلم يومًا بأني قد أكون صاحبها..

كنا قد اقتربنا من امتحانات آخر العام.. ونحاول الحصول على امتحانات الأعوام السابقة، وصنع مذكرات منها للاسترشاد بالأسئلة ،والتي قد تأتي

متكررة وهذا يُعد نشاطًا رائعًا لأسرة اليقين، لذا تحملت أنا مشقةَ الذهاب والطباعة لهذه المذكرات مقابل أن أسلم قسطا منها إلى سومة لتتكفل هي بعملية توزيعها على الطالبات، بطاقة أدعية المذاكرة، والرجاء من الله بالتوفيق في الامتحانات قمت كذلك بطباعتها؛ لكي يتكرر موقف التسليم والتسلم مع بعض العبارات القليلة التي تحمل بين ثناياها كل مشاعر الحب المتبادل بيننا، وأخيرًا قبيل الامتحان بعشرة أيام بعد إحدى محاضرات المراجعة كنت أمر بجوارها وهي تحدث زميلة لها..

وطرق أذني في التوقيت المناسب السؤال الذي غير مسار حياتي بشكل كبير.. كانت زميلتها تقول لها:

– بأي قسم تنوين الانتساب يا سومة بعد نجاحك في السنة الإعدادية إن شاء الله..

هذا السؤال لم يخطر ببالي من قبل.. العام القادم سيتم توزيعنا على جميع الأقسام المختلفة، وسيتفرق هذا الجمع الكبير بشكل نهائي، سيجمعنا اسم الكلية فقط، ولكن ستتغير المباني وقاعات المحاضرات، ولن يكون بيننا أي مشترك أنا وسومة بعد ذلك إلا الموقع الإليكتروني فقط .. هذا إن تفرقنا كلٌ بقسم مختلف.. وبالطبع هذا غير كافٍ أبدًا.. لهذا توقفت متجمدًا منتظرًا إجابتها..

وشعرت بها تراني؛ ولهذا رفعت صوتها لتبلغني الرسالة حين قالت:

- قسم الإليكترونيات بإذن الله.

ابتسمت بقوة، وقد أجابت هي عن السؤال الذي طرحه عليّ أحد أصدقائي بعد ظهور نتيجتي بتقدير جيد جدًّا عن أي قسم سوف ألتحق.. وجاءت الإجازة الصيفية لأكتشف الهول الذي أنا فيه..

صداقات الثانوية انتهت بمجرد توزيعنا على الكليات المتنوعة.. وصداقات الكلية مرتبطة بأسرة اليقين، والتي اكتشفت أن جميع أعضائها مرتبطون بأنشطة محلية في مناطق سكنهم؛ وبالتالي فقد توقف أي نشاط متعلق بالكلية تمامًا.. إلا رحلة كانت للأقصر وأسوان للبنين فقط.. وبالطبع لا حاجة لي بها دون سومة، وهنا أدركت الوحدة التي أنا فيها..

بالمنزل ليس هناك من يشعر بي أو يسأل عني.. طالما أنه لا شكوى مني ولا مطالب فأنا حبيبهم.. ولو حدث وطلبت شيئًا مثلما فعلت عندما احتجت لمائة جنيه لشراء بعض مستلزمات دراستي قبيل امتحاناتي من أخي الأكبر ليسألني بصرامة قائلاً:

- فيما تبدد معاش أبيك بهذه السرعة أنت لا تدفع إيجارًا ولا تشتري طعامًا أو شرابا، وعليفك لدينا !..

قلت مدافعًا بقوة وقتها:

– فاتورة الكهرباء والمياه والتليفون مع مواصلاتي مع بعض الوجبات والمشروبات الخفيفة بالكلية تلتهم المعاش تمامًا.. أعدك بأن أرد لك هذه المائة عندما أقبض في أول الشهر قيمة المعاش..

بنظرة صارمة حاول تبرير فعله قائلاً:

– أنا أفعل ذلك معك كي تدرك حقيقة الحياة الفعلية، وتتحمل المسئولية التي يجب أن تكون على قدرها، شكرته متزلفا كي يمنحني ما أردت، وبالطبع أصبحت مطالبي عبئًا نفسيًّا قويًّا عليّ لا أقدم على طلب شيء منهم إلا إن ضاقت بي الدنيا ولم أجد مخرجًا سوى تحمل العنت منهم كي أناله، ترحمت على أبي، وأنا أردد بيني وبين نفسي جملة سمعتها منه تقول: "يموت أفضل من فينا ويعيش أخبثنا"..

ولهذا كانت إجازتي الصيفية إنما هي موات بطيء لي..

أجلس وحدي في الشقة المقفرة أحاول شغل نفسي ببعض ألعاب الحاسوب التي مللتها تمامًا.. ووقت الصلوات أخرج لأستنشق بعض الهواء الملوث بسماء القاهرة..

ويكفي فقدي لرؤية وجه سومة الباسم الجميل الذي يسقيني من رحيق الحياة كل يوم جرعة أتقوى بها على ما أنا فيه..

وتذكرت الموقع الإليكتروني والأبواب العامة به..

حتمًا سومة الآن تعاني مثلي تمامًا..

فلنشترك سويًّا في إثراء الموقع، ونتحاور ونتناقش في ذلك يوميًّا..

وبهذا لن أفتقدها..

وقد كان.. فتحت صفحة الإدارة المخصصة للنقاش، وطرحت الموضوع للمناقشة بأن الموقع يجب ألا يفقد رونقه بسبب توقف الدراسة، وتوقف أنشطة الأسرة مؤقتًا.. ولاقت فكرتي القبول.. وكم كان رد سومة بالثناء على الفكرة مؤثرًا معي.. فقد رأيت بسمتها وخجلها وهي تنظر لي نظرة خاطفة قبل أن تبحث ببصرها عن معالم الأرض وهي تقول بخفوت:

- جزاك الله خيرًا.. اقتراحك جيد جدًا

شعرت كأنما تقول لي بشكل مباشر:

- ((مبارك نجاحك بتقدير جيد جدًا))

فرددت تهنئتها بتهنئة وقلت لها:

– من الجيد قبول الفكرة.. جزاكم الله خيرًا.

وابتسمت مهنئًا نفسي على هذه الشفرة الجيدة فقد قلت لها

– ((مبارك نجاحك أيضا بتقدير جيد))

وذلك بالطبع بعد أن علمت تقديرها من شهادات التقدير التي منحها الموقع لكل الناجحين من مشرفيه، وذكروا أن مؤمنة بالله تقديرها كان جيد بالسنة الإعدادية، وحتمًا هذه هي الطريقة التي علمت بها تقديري إن لم تكن قد بحثت عني في قائمة النتائج المعلقة بالكلية.. وعاد النشاط والحماس لعروقي مرة أخرى، وأبدعت في تطوير الموقع بكثير من الأفكار التي كانت دومًا تنال إعجاب وثناء سومة.. وأخيرًا وبعد شعوري التام واليقين الكامل بأن المشاعر متبادلة، رأيت أن الخطوة التالية يجب أن تكون المصارحة

يكفي شفرات ورسائل خفية وإشارات مستترة..

وكان ذلك قبيل بدء الدراسة بأسبوع واحد..

لهذا مع اقتصادي الجيد لمعاش أبي، وقدرتي الفائقة على توفير بعض المبالغ منه.. اشتريت زيًّا جديدًا أقابل به سومة، وأجعله هو أجمل ذكري لي بعد ذلك.. لتصبح ذكرى هذا الزيّ التاريخية فيما بعد أني به قد حاورت سومة وجهاً لوجه لأول مرة بلا خجل، وبُحت لها بكل مشاعري التي تشتعل بصدري، حملت معي أجندتي التي تحوي يومياتي، والتي كنت أبث فيها كل خواطري ومشاعري نحو كل حدث وقع بيننا.. وبالطبع كان بين ثناياها أول صورة رسمتها لها، وهي تبتسم ابتسامتها الساحرة، وتحاول حجبها بكفها الرقيق.

لم أضع أي خطط مسبقة؛ فقد قررت المواجهة وفقط..

ذهبت لكرنفال أول يوم أبحث عن جدول محاضراتنا، وتفحصت أسماء المواد المقررة علينا في هذا العام، وأماكن القاعات المخصصة لنا، وكانت أول محاضرة بعد نصف ساعة فقط.

كانت القاعة أصغر بكثير من العام السابق.. والعدد لا يقارن بما سبق فقد انخفض كثيرًا حتى بات من السهل أن نعرف بعضنا بعضاً بشكل كامل كأننا في أحد فصول الثانوية المكتظة بالطلاب.

رأيتها في ثوبها الجديد المتألق مع خمارها الزاهي، ووجها يحمل بهاء الكون كله مع بسمتها الوضاءة الساحرة التي تأسرني دومًا..

لقد فعلت مثلي تمامًا وبلا اتفاق.. تزينت وتألقت؛ وكأنما تعلم بأن هذا هو يوم اللقاء المرتقب.. انتهت المحاضرة القصيرة ليخرج جميع الطلاب مسرعين إلى الكافتريا؛ كأنما يطاردهم الجوع بعصاه.. إلا هي...

فقد ظلت ماكثة بموضعها، وهي تقلِّب في شيء ما غير ظاهر لي من الموضع الذي أنا به.

المكان والظروف كلها مهيأة الآن لكل ما أبتغيه، لو كنت وضعت ألف سيناريو لما أريد ما وجدت أفضل من هذا الوضع.. حملت أجندتي بما تحويه وذهبت إليها..

كانت منهمكة في قراءة كتيب صغير.. دخلت في الصف الذي هي جالسة به واقتربت منها دون أن تشعر بي.. وضعت الأجندة بجواري وأخيرًا استجمعت قواي بسرعة هذه المرة، وببسمة تحتل وجهي كاملاً قلت لها:

كيف حالك يا مهندسة سومة كل عام وأنت بخير.

انتفضت بقوة كأنما لسعها عقرب، ونظرت نحوي بفزع وهي تبتعد للناحية الأخرى قائلةً:

– منْ حضرتك ؟

لوهلة ظننت بأني لم أسمع جيدًا فقلت لها:

– أنا نبيل!..

ابتعدت خطوة أخري، والفزع والدهشة يتملكانها، وهي تقول بصوت شاحب:

– نبيل منْ ؟!..

اختل توازني قليلاً، وزاغت عيناي برهة، وأنا أحاول التوضيح قائلاً:

– زميلك بالدفعة وعضو أسرة اليقين، ومشرف قسم أمجاد بالموقع.

حملت حقيبتها، وهمَّت بأن تنطلق، وهي تقول بخوف حقيقي تقطر من كلماتها:

– لو كنت كما تزعم ما دخلت إلى صف الطالبات وتحدثني هكذا.

كنت بالفعل أتهاوي واختل توازني تمامًا...

يا للهول.. أي وهم هذا الذي كنت أعيش فيه..

لقد كنت أخاطب خيالي المريض طوال عام كامل..

كان الموقف دقيقًا، ولو دخل أحد الطلاب الآن بالفعل لصرنا حديث الدفعة كلها.. لهذا تمالكت ما بقى من قواي، وخرجت مسرعًا لا ألوي علي شيء، ولا أدري إلى أين أنا ذاهب..

وأخيرًا استفقت، وأنا راقد على سريري، وبقايا دموع متجمدة على مقلتي.. ولكن كيف ؟!.. إشاراتها كانت واضحة تمامًا لا تقبل التأويل.. أنا لست غرًّا كي أتعامل مع خيال لا أساس له بأرض الواقع !!

كان أذان العشاء يدوي، وأنا لا أشعر به وبالتالي تجاهلته تماما، وأنا أسترجع كل موقف مر بيننا، وكل كلمة تبادلناها.. ولست أدري لما انقلبت كل مشاعر السعادة التي كنت انتشي بها وقتها إلى سياط تهوي علي لتلهبني بآلام لا حدود لها..

وبعد انتهاء ذكرياتي هذه.. فجأة انقلبت محبتي لها إلى كراهية غير محدودة.. ولهذا قررت أن أنتقم.. وخير انتقام أن أكشف لها حقيقتها.

سأذكرها بكل ما دار بيننا، وأسألها لما تصرفت معي هكذا

، وعلى الفور قمت إلى حاسوبي، وفتحت بريدي الإليكتروني، وكتبت لها متعجبًا من تفسير كل ما فات.. وكيف يمكن أن أكون بعد كل ذلك واهما أو أعيش ضلالات نفسية.. وأخذت أدور بالشقة الخاوية من كل شيء كطير

ذبيح قد يسقط في أي لحظة بعد أن تنتهي انتفاضة، وحركات ما قبل السكون..

والعجيب أن رسالتها هذه المرة لم تتأخر أكثر من ساعة

ولكثرة قراءتي لها ما زلت أحفظها حرفا حرفا..

فقد كتبت تقول:

- ((السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الزميل الفاضل م. نبيل ..

أعتذر لك على أي ألم أو حزن قد تسببت فيهما دون قصد مني، والله شهيد على ما أقول، وما سأذكره لك الآن..

أقسم لك بالله أني أول مرة أنتبه لك، ولوجودك معنا بالدفعة كان أمس عندما فاجأتني بمثل ما حدث..

لن أقول لك أنك كنت تعيش أوهام أو ضلالات كما ذكرت.. وإنماأنت – فقط– ما قمت بالتأويل الخاطىء لأشياء عادية جدًّا وحمّلتها ما لم تحتمل..

بعد وفاة أبي – عليه رحمة الله – هو وأمي في حادث وهذا ما جاءني في نص رسالة على جوالي وقتها، وعندما صرخت معك منادية أبي الذي لم أحب مخلوقًا مثله مع الاعتذار الكامل لأمي – رحمها الله–.. مررت بأصعب فترة في حياتي؛ وبالتالي لم أنجذب أو أنتبه أو أبحث عمن صرخ معي بنفس الهتاف.. بريدك الذي أرسلته لي محملاً بدعاء طيب.. أقسم لك للمرة الثانية بأني لم أكن أعلم بأنه يخصك؛ لأني لم أكن أدري بتواجدك.. لقد جاءني بريد من مجهول يدعو لي دعوةً طيبة.. ماذا أفعل ؟!

هل أرد عليه بشتائم أم أحيي من حياني بأحسن منها أو أردها كما علمنا ديننا الحنيف ؟!

وهذا ما فعلت.. ولم أشغل نفسي بمن المرسل أو ماذا يريد و عدم الرد مرة أخرى أو تكرار المراسلة كان سببًا كافيًا؛ لأن أنساها تمامًا ولا أتعقبها.

نشاطك بالموقع كان من زميل بالكلية لا يظهر إن كان في دفعتنا أم لا، وبالتالي – أيضا– لم أبحث من صاحب هذه العضوية النشطة صاحب الأفكار الجيدة التي كانت مفيدة جدًا بالطبع؛ لأن عملي بالأسرة والموقع إنما كان فقط عملاً تطوعيًا لله عز وجل لا أبتغي منه شيئا، ولو بحثت خلف كل صاحب فكرة جيدة أو نشاط رائع حتمًا سأنصرف عن هدفي الحقيقي من هذه الأعمال.. إلقاؤك السلام عليّ شيء تلقائي جدًّا؛ كأنما أنت داخل

لمتجر، وألقيت السلام على كل المتواجدين به من باعة وزبائن، وردي عليه يشبه تمامًا ردهم عليك سواء يعرفونك أم لا..

أنت زميل كريم.. وأخ فاضل.. أتمنى ألا تخسرك أسرة اليقين بسبب سوء التفاهم هذا، وأن تكون زمالتنا بالدفعة أخوة في الخير، ولنبتعد عن أي شيء جانبي قد يشغلنا عن دراستنا التي ما جئنا هنا إلا لأجلها..

أعتذر إليك، ولا أريد ردًّا على رسالتي؛ لأني سوف أغلق هذا البريد تمامًا.. وآسفة جدًّا جدًّا على أي لحظة ألم سببتها لك دون مقصد مني..))

بعكس ما كانت تبغي سومة.. فقد قتلتني رسالتها، ومزقتني تمزيقًا.. أشعرتني بمدى الفشل الذي أنا فيه.. والنقص الذي أعاني منه.. والضعف الذي يستغرقني..

ظللت أسبوعًا كاملاً لا أستطيع مغادرة شقتي..

وبالطبع لم يسألني أحد إخوتي الكرام عن سبب شحوبي أو نمو لحيتي الزائد ولا شعري الغير منسق خلاف عادتي.. كل ما تم التعليق عليه مرة حين قال لي أخي الثالث:

- حاول أن تستحم، فرائحتك النتنة هذه قد سدت أنفسنا عن الطعام، ولم يخطر بباله أبدًا أن يسأل عن سبب هذه الروائح الكريهة، والنافذة التي نالت من شهيته..

وعدت للكلية بعد أسبوع، وأنا أنوي بالفعل تجاهل سومة تمامًا، يجب أن أكون قويًّا، وأن أثبت لنفسي ولها وللجميع بأني رجل مكتمل الرجولة لا أعاني من أي ضعف أو اضطرابات نفسية..

دخلت المدرج المجمع للدفعة بقسم الإليكترونيات، وقد قررت تجاهلها تمامًا؛ فلم يعد يعنيني أمرها، وسوف ترى بعينيها أنها ليست أميرة الكون وعروس السماء..

تعمدت ألا أتجه ببصري نحو مجلسها الدائم بالصف الثالث تجاه اليمين.. وعند الذهاب للدروس العملية؛ وقد تفرقنا إلى مجموعات صغيرة رأيت قمرًا مكتمل البهاء جالساً على كرسيه وينظر نحوي نظرة مطولة.. إنها "ميان" زميلتي بالمجموعة العملية، والتي بالطبع حرف اسمها الأول مقاربا لي، وبهذا تجمعنا سويًّا بمجموعة العملي..

تعجبت كيف لم أنتبه لها من قبل، وألحظ ملامحها الجميلة الجذابة التي تعتني هي بكل تفصيلة فيها.. ابتداءً بشعرها الناعم المنسدل بانسياب ومتموجا فقط عند أذنيها ليشعرك بأنه إنما هو تاج يزينها وممتد إلى كتفيها..

وانتهاءً بكعب رجلها الأبيض المشوب بحمرة خفيفة والتي أشعر أنها تتباهى به، وهو بارز من صندلها الذي ترتديه.

ابتسمت لها وقلت:

– صباح الخير.

ردت علي التحية بنبرة لمست فيها الفرحة؛ ولكن لم أعوّل على ذلك؛ فالدرس القاسي الذي تعلمته منذ قليل أيقظني من أوهامي، وجعلني لا أؤمن إلا بما أراه رأي العين أو ألمسه بيدي..

ولذا جذبت كرسيًّا لأجاورها بجلستي في سابقة لم أتجرأ يومًا على فعلها.. وما إن فعلت حتى بدأت هي الحديث مباشرة قائلةً:

– هل كتبت شيئًا في المحاضرة السابقة ؟ فقد فوتّها.

لست أنكر فرحتي التي غمرتني لهذه السهولة واليسر بعيدًا عن التعقيدات التي عانيت منها سابقًا..

أجبتها بأن معي كل المحاضرات السابقة؛ فضحكت ضحكة قصيرة ذات رنة هزت أوتار قلبي وقالت:

– يبدو أني سوف أستغلك أبشع استغلال، وهكذا بدأت قصتي مع ميان..

محاضراتي أدونها؛ وهي تتحجج بأنها تريد نسخها كتابة بخط يدها؛ لنجلس بالكافتريا ما يقرب من ساعتين بعد انتهاء المحاضرات نتحدث كثيرًا وأخيرًا نكتشف هروب الوقت، وتفلته من بين أيدينا؛ ويكون آذان العصر منبهًا لنا تارة، ومرة أخرى يؤذن المغرب؛ فتنهض قائلةً بأنها مضطرة لتصويرها تصويرًا ضوئيًا حتى لا تتأخر.

وبالطبع أنطلق أنا إلى شقتي المتربة وشبه المظلمة لأسترخي مسترجعًا كل حرف وكل كلمة ولمحة كانت بيننا..

في أحد الأيام تصادف دخولي للمدرج الكبير لأجد ميان عند بابه فمدت يدها مصافحةً، وهي تبتسم ابتسامتها التي أضاءت الكون حولها.. فصافحتها وأنا أشعر بصاعقة داخلية نتجت عن ملامسة يدها الناعمة والرقيقة..

ولكن عندما هممت بالدخول لست أدري كيف اتجه بصري نحو موضع سومة بالصف الثالث بمدرج الطالبات تجاه اليمين لأجدها تنظر نحوي نظرة مطولة متسعة العين وغير عابرة أبدًا..

بالطبع صرفت نظري تمامًا عنها.. ولكن...كان بداخلي فرحة ونشوة جعلتني أحلّق عاليًا بعيدًا تمامًا عن سماء المدرج وما فيه.. وأصبح بعد ذلك

من المتعمَد لدي أن أنتظر انتهاء المحاضرة؛ لأصحب ميان خارجين سويًّا أمام الجميع، وكلي يقين بأن سومة هي أول وأهم المراقبين..

وكان التطور الطبيعي بعد ذلك – لأن الساعات التالية لانتهاء المحاضرات، والدروس العملية غير كافية أبدًا لما نبدأ فيه من حوارات، وقصص طريفة لا تنتهي لدى ميان –كان من الطبيعي جدًّا الحصول على بريدها الإليكتروني لنكمل ما بدأناه على أحد برامج الحوار الشهيرة.. احتلتني ميان تماماً، وسيطرت على كل أفكاري وخواطري؛ حتى أنها أصبحت كل شاغلي في المنزل والكلية.. وأيضا كان من التلقائي جدًّا في أول امتحان أن أتراجع تماما في درجاتي وتقديراتي، وكان ذلك منبهًا لي بأن أخصص وقتًا– ولو قليل– للمذاكرة.. وبالطبع لحرصي على صالح ميان نبهتها لدرجاتها الضعيفة؛ فضحكت وقالت:

– دعك من الامتحانات الموسمية هذه ما يهم هي امتحانات آخر العام..

و جاءت تلك الليلة المشهودة.. فمع حوار الإنترنت زالت كل الحواجز بيني وبين ميان وقتها، وبدأت هي بإلقاء النكات..

قالت لي:

– ذهب لص لسرقة منزل سيدة وحيدة.. بحث طويلاً عن مصاغها ليجده في دولاب ملابسها.. فتحه برفق كي لا تستيقظ؛ فقد كانت تغط في نوم

عميق.. وبعد أن حمل علبة المصاغ كلها تسلل خارجًا؛ وهو لا يكاد يلامس الأرض حتى ينعدم الصوت المنبه لها، ولكن فاجأته قائلة :

– كابتن.. هل هي سرقة فقط ؟.. ألا تنوي الاغتصاب ؟!

وقتها شعرت بحرارة تشتعل بكل جسدي، وحمدت الله أنها لم تقل هذه النكتة لي، ونحن بالكلية فلست أدري ماذا سيكون رد فعلي من ارتباك وتعرق واحمرار وجهي الذي سيضحكها ساخرةً مني..

عندما طال صمتي سألتني قائلةً:

– ألا تعجبك ؟!

قلت لها بخط لا يظهر فيه الحرج:

– راعي أنني في شقة وحدي...

ظهر لي حروف الهاء المتكررة بأكثر من خمسين حرفًا دلالة قهقهتها العالية وقالت:

– رائع جدًّا.. لا يوجد أفضل من هذا.. ما هو عنوانك وفي أي طابق أنت ؟

تخشب جسدي بأكمله، ولم أدر بمَ أجيب أمام جرأتها هذه.. ولكن درات رأسي؛ ووجدت أنني أمام فرصة لم أقع فيها من قبل؛ ولو ضيعتها قد لا تعود أبدًا.. وتحولت حرارة جسدي إلى بركان متفجر من الرغبة التي أعمت بصري عن كل شيء، وأذهلت تفكيري عن كل منطق.. ولست أدري كيف خطت يداي العنوان التفصيلي، وأخبرتها أن تمد يدها من الفتحة التي بأسفل باب العمارة الرئيسي والحديدي لتسحب المزلاج برفق، وبعد هذا يمكنها الصعود كأنها أحد سكان البيت الذي يخصنا فقط، وفي هذا التوقيت لن يقابلها أحدنا؛ فالباب ينتظر أخي الأكبر والذي لا يعود قبل منتصف الليل ليُحكم غلقه بالمفتاح قبل صعوده..

تكررت حروف الهاء التي جاوزت التسعين هذه المرة وقالت:

- حسنا فلتهيئ نفسك فأنا في طريقي إليك...

الأمر لا شك فيه إنها قادمة حقًا.. لست أنكر تكاسلي في الصلاة، وعدم قراءتي لحرف من القرآن منذ شهر كامل ولكن.. إنها إحدى الكبائر؛ والتي قد تدفعني بعد ذلك لكل الموبقات، وقد يصبح من المستساغ لي بعد ذلك أن أقتل.. فالكبائر لا تختلف عن بعضها البعض فمصيرها واحد.. انتابتني رعدة كبيرة، وأنا أتخيل نفسي لا أبالي بالمعاصي لهذه الدرجة وأن النار هي مصيري..

رغمًا عني هاجمتني ذكرياتي القريبة مع أسرة اليقين، كنت أشعر بتأنيب الضمير عندما أجدهم يُذكِّرون بصلاة الفجر التي لم أكن أؤديها.. وحفظ القرآن الذي كنت مقصرًا فيه

كان شعوري هذا هو الذنب الأكبر الذي كنت أظنه لا يوجد ما هو أخطر منه.. أما الآن أصبح من المستساغ لي أن أتلوث في مستنقع الرذيلة.. هاجمني صداع غريب.. فبين الرغبة التي تنال من كل جسدي المشتعل، وبين خوفي وذكرياتي الجميلة كنت ممزقا.. وقبل أن أفكر بماذا أرد عليها انقطع التيار الكهربي، وكان ذلك الحل الخارجي الذي أراحني تمامًا من دوامة الحيرة التي وقعت فيها..

راحة كبرى صاحبت تنهدي بعد تخلصي من هذا الحمل الثقيل.. قمت مسرعًا لأشعل شمعة صغيرة، وذهبت مغتسلاً في الظلام الشاحب على إثرها .. وقمت لأصلي العشاء التي أفتقدها منذ أمد، ومع سجودي انهمرت دموعي غزيرة، وأنا أستغفر الله على ما كنت مقبلاً عليه.. وذهبت لأسترخي في سريري، وأنا أسترجع كل ملامح ميان وهي تتشكل بالانفعالات المختلفة فمها الرقيق عندما يبتسم.. حاجبيها الجميلين عندما يرتفعان دهشةً.. عينيها المتألقتين دومًا حتى لو كانت غاضبةً.. وبدأت أجتر من الذاكرة تفاصيل جسدها، وأنا أتخيلها معي الآن، ونحن وحيدان.. وعادت الرغبة لتشتعل مرة أخرى.. سحقًا لك يا ميان.. لقد أيقظت الغول الكامن بداخلي.. عدم

تفكيري في هذا الأمر كان أكبر عامل لراحتي الكبيرة التي كنت أنعم فيها من قبل.. بالطبع هي فطرة، ومن ينكر وجودها بداخله إنسان غير سوي.. ولكن من يجعلها محط اهتمامه كله، ومركز وبؤرة تفكيره سوف تتسع هذه البؤرة رويدًا رويدًا حتى تبتلع صاحبها، وتغمسه بداخلها ليجد ألَّا فكاك منها، وتصبح هي المحرك الرئيسي لحياته..

وعاد التيار الكهربي بعد ساعة من انقطاعه؛ ليريحني من الوحدة والأفكار والرغبات التي كانت تتناطح لأجلي..

قمت مسرعًا نحو جهازي؛ فحتما كانت تنتظرني بعد تغيبي المفاجئ، ولكن وجدت اسمها غير نشط مما يعني خروجها.. بالطبع لن تنتظرني ساعة كاملة.. شعرت ببعض الحسرة؛ ولكن أيضا مع راحة صرعتها.. رأيت تنبيها بأن هناك رسالة اليكترونية تنتظرني بصندوق الوارد، بالطبع هي منها تسأل عن انقاطعي المفاجئ، ولكن في هذه الليلة الصاخبة كانت المفاجآت تحاصرني من كل صوب.. فقد فتحت بريدي متلهفًا لرؤية اسمها، ولكن فركت عيناي بقوة غير مصدق لما أرى.. فقدكان البريد من سومة !

مجرد رؤية اسم سومة أعاد لي كل المشاعر المتقدة التي كنت أشعر بها نحوها دفعة واحدة.. فجأة عدت بمشاعري كلها إلى أيام ملاحقتي لها، وعيشي في وهم حبها الجميل.. استيقظت بداخلي كل الطاقات النورانية المرتبطة باسم سومة...

بالطبع وبلا تفكير اتجهت لفتح الرسالة، ولكن في سابقة لم تحدث منذ أسبوع كامل دق جرس الباب في هذا التوقيت العجيب..

عقدت حاجبي متسائلاً من يفعلها الآن، أخواي لم يحدث أن بحث أحدهما عني في هذا الموعد..وبعد أن جردوا الشقة حتى من اللوحات القرآنية المعلقة بها لم يعد فيها ما يغريهم بالمجيء إليّ..

وفجأة تذكرت آخر جملة لميان حين قالت:

– حسنا فلتهيىء نفسك فأنا في طريقي إليك...

من قال بأنها تنتظر ردي.. فلديها العنوان التفصيلي وكيفية ولوج البيت.. إنها هي !!

كانت المفارقة عجيبة جدًّا وأقوى ما مررت به في حياتي كلها.. أمامي على الشاشة رسالة من سومة تضيء أحرفها بنور رباني سماوي جميل..

وأمام شقتي تقف ميان منتظرة فتح باب الجحيم لي ولها

كان صراعًا حقيقيًا بين الأرض والسماء.. بين الشياطين والملائكة...

ميان بالباب ولن تفارقه ورسالة سومة لا أدري ما بها.. سأقرأها أولاً مارًا عليها بعيني قبل أن أقرر هل سأفتح لميان أم لا..

ومن كثرة قراءتي لهذه الرسالة أيضًا ما زالت أحرفها منقوشة في قلبي حتى هذه اللحظة فقد كتبت تقول:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زميلي العزيز م. نبيل..

كنت قد وعدت بغلق بريدي هذا، وقد حدث ولم أفتحه إلا في هذه الليلة..لأرسل لك هذه الرسالة التي يعلم الله كم أعاني وأقاوم في عدم إرسالها، وإذا كنت تقرأها الآن فاعلم بأنك قد انتصرت بالفعل..

لم أنشغل يومًا بالمشاعر العاطفية المتبادلة بين الجنسين؛ وذلك بسبب تربيتي المحافظة التي كان لأبي- رحمه الله- الفضل الأكبر فيها.. ولهذا لم أبحث يومًا عن نظرة إعجاب أو ملاحقة من أي شاب...

ولكن..

أراد الله لي عكس ذلك..

أجندة مذكراتك التي تركتها بمدرج الطالبات يوم أن حدثتني نسيتها أنت تمامًا.. ولكنها كانت سببًا كبيرًا في تحول حياتي كلها.. فهي لدي وبدلاً من أن أردها لك وأذكرك بها.. وجدت الفضول يقتلني لقراءة ما بها في خلال

الأسبوع الذي تغيبت فيه عقب الحادثة.. وعندما فعلت حمدت الله أنك نسيتها، وقررت الاحتفاظ بها عندي للأبد.. وكان ذلك أمضى سلاح نلت أنت به مني..

حقيقة كل الروايات التي قرأتها لم أجد بها كل هذه المشاعر الصافية النقية التي يختلج بها قلبك.. كل أحلامي عن الفارس القادم الذي أنوي مشاطرة حياتي معه لم تصل يومًا لهذا المدى الذي وصلت أنت إليه..

فرحت جدًّا بهذا، وشعرت بالحبور أن هناك من يكن لي كل هذه المشاعر الفياضة، ويهتم بي كل هذا الاهتمام الخاص، ولكن صراعي النفسي بين ما تربيت عليه وبين أن أتجاوب مع ذلك منعني تمامًا من التصريح أو التلميح بذلك..

وقلت لنفسي سأحافظ على مساري الذي رسمته لنفسي ولو أراد الله لي الخير سيكون معك أو مع غيرك، واكتفيت بهذا؛ ولكن قراءتي اليومية لمذكراتك روت وأنبتت بداخلي مشاعر طيبة نحوك كانت كل يوم تكبر وتتفرع لتنال مني بالفعل.. ولكن اجتهدت في كتمانها، واحتسبت ذلك مجاهدةً في سبيل الله حتى جاء ذلك اليوم الذي أشعل جذوة لم أكن أدري بوجودها داخلي.. عندما رأيتك تصافح زميلتنا الكريمة ميان، فقد اشتعل حريق الغيرة بداخلي على إثر توقد تلك الجذوة، وأصبحت متابعتي لك مسيطرة عليّ.. لأجدك كل يوم تنحدر وتهوي من القمة التي كنت تتربع

عليها.. وقتها حاولت التخلص منك ومن كل هذا؛ لأريح نفسي من مجاهدة الكتمان بحجة أنك لم تعد الإنسان الذي أرجوه لنفسي أو أتمنى الارتباط به.. ولكن وجدت أن تركي لك إنما هو دفع شديد لأن تنغمس أكثر فيما أنت فيه.. ولهذا قررت مصارحتي لك فقد أفلح في نجدتك، وأن تعود مرة أخرى صاحب القلب النقي الشفاف الجميل الملتزم، مع وعد بألا يكون بيننا أي شيء محرم، وقد تكون هذه رسالتي الأخيرة لك حتى يكتب الله لنا الحلال.. أو أفشل وتكن محاولتي هذه بعد فوات الأوان، ووقتها لن تفرق معك هذه الرسالة بل قد تشعرك بالنصر كرجل ترغبه كل النساء من جميع الأطياف.. ولكن وقتها سأكون قد أعذرت إلى الله...

رسالتي هذه لا أنتظر منك ردا عليها...

إنما أنتظر نشاطك في أسرة اليقين، وموقعها الإليكتروني، وسيكون ذلك أفضل رد رومانسي يمكنك الرد به عليّ

ولتعلم بأني لك.. هذا وعد أمام الله حينما يأذن سبحانه لك ويقدرك على الارتباط الشرعي في المستقبل القريب بإذن الله...

وجزاكم الله خيرا...

انتهت الرسالة التي انغمست فيها تمامًا متجاهلاً صوت الجرس المتكرر مع إطالة مدة الضغط عليه..

الفرحة الغامرة والنشوة العارمة التي قفزت بي إلى سابع سماء أخبرتني بأن سومة بالفعل هي المتربعة الوحيدة على عرش قلبي...

رنَّ جرس الباب موقظا لي مرة أخرى من حلم سومة الشاعري النقي الجميل؛ فوقفت أمام جهازي ناظرًا نحو الباب تارةً، ونحو اسم سومة ورسالتها تارةً أخرى؛ فأجد التقزز نحو الباب، والسعادة متشكلة بحروف رسالة سومة، لذا كان طوق النجاة الذي قذفت به سومة في التوقيت المناسب قبل الهلاك هو ما كنت بحاجة إليه بالفعل في هذا الموقف، وهو الإشارة الكبرى من الله عز وجل أن أهرب مما أنا فيه، لقد اشتقت للراحة النفسية الكبرى التي كنت أنعم بها، اشتقت للبساطة والجمال والنقاء الذي كنت أعيش بينهم، لهذا قررت الذهاب طاردًا ميان شر طردة...

فتحت الباب بوجه عابس، وقبل أن أصرخ فيها موبخًا ولاعنًا إذا بعينيِّ تتسعان دهشةً.. فقد كان الطارق هو أخي الثالث الذي ما إن فتحت الباب له حتى هتف فيّ بعنف وغضب قائلاً:

- هل أصبت بالصمم كل هذا الوقت حتى تفتح الباب.. أغلق الضوء الذي أمام باب شقتك؛ لأنه يسحب تيارًا مقتسما على كل العمارة، وسيرفع من فاتورتنا..

لست أدري كيف انفجرت مقهقهاً، والدموع قد أغرقت عينيّ من شدة الضحك، وأخي ينظر نحوي كأني قد جننت جنونًا كاملاً، فدفعني ودخل هو ليغلق المصباح الخارجي، وانطلق تاركًا لي على نفس وقفتي المتجمدة، ولم يعنِه بعدها إن كنت سأرتدي إحدي أواني المطبخ فوق رأسي أم سألقي بنفسي من الشرفة.. ولكن..

بعد أن هدأ البركان في تلك الليلة المدهشة.. عدت لألتهم أحرف سومة مرة أخرى، وأنا أشعر بالشبع والارتواء الحقيقي بعد أن أوشكت على الهلاك في تلك الصحراء المقفرة التي كنت أجد السير فيها.. وكم كنت سعيدًا بنجاحي في هذا الاختبار العجيب الذي تعرضت له منذ قليل.. ولهذا كان ردي سريعًا على سومة..

قمت أولاً أصلي ركعتين شكرًا لله على نجدته لي، وفتحت الموقع الإليكتروني لينهمر عليه الكثير من الأفكار الجديدة والمتألقة لتفعيله، وتكثيف العمل بأسرة اليقين بالكلية..

ولم يكن الصباح التالي أقل عجبًا عن تلك الليلة..

كنت ذاهبًا منتشيًا فرحًا أشعر بشجن عجيب أهم ما يميزه الراحة النفسية والطمأنينة.. كنت أشبه بقطار قد عاد لقضبانه، وانتهت مشقة سيره فوق أرض ليست له..

ولم أكن أدري، أو تناسيت بأن فترة الخروج هذه حتمًا سأعود ببعض العوالق منها..

كانت عيناي تدوران بحثا عن سومة التي حتمًا سأراها اليوم كما لم أرها من قبل.. فرق كبير بين ترقُبي لها من قبل دون شعور منها، وبين رؤيتي لها وهي تعلم أني إنما أبعث لها برسائل جمَّة عبر شعاعي البصري المنطلق من عينَيّ نحوها..

قوة وطاقة إستاتيكية قوية ستتولد في المكان الذي سنتواجد به، ويغير الكثير من الأجواء التي تحوطنا الآن.. فالطاقات الخفية هذه والتي لا نعلم عنها شيئًا لها الكثير من التأثيرات في حياتنا.. هي نفسها التي تدفعك للنظر فجأة خلفك دون أي داع ولا تنبيه مسبق لتجد بأن أحدهم يحدق نحوك..

ولكن قبل أن أرصدها وتقع في مجال طاقاتي الخفية هذه حدث التشويش الكبير الذي يعوق كل الاتصالات التي كنت أترقبها..

تشويش ناتج عن العوالق التي خرجت بها من رحلتي الجانبية خارج أرضي..

كنت ما زلت منطلقًا خارج مبنى المحاضرات وبجوار شجيرة خضراء زاهية.. ظهرت لي ميان مبتسمة ابتسامتها اللعوب، ومادة كفها الشيطاني مسلمةً عليّ وقائلةً:

– صباح الخير يا نبيل.. أين ذهبت بالأمس لقد انتظرتك كثيرًا.

لست أدري كيف كنت أبدو أمامها، ولكن تغير ملامحها قبل أن أنطق جعلني أتوقع بأني كنت عابسًا جدًّا بمشهد لم تره مني قبل ذلك، وقلت لها بصوت صلب دون أن أعير كفها الممتد أمامي انتباهًا:

– لو سمحت يا آنسة ميان كفى هكذا.. فلنبق زملاء محترمين لنا حدود لا نتعداها ولا نغضب الله أبدًا.

بكل بساطة خفضت يدها، وانفجرت مقهقهةً بجلجلة مدوية جعلت كل من سمعها يلتفت نحونا، وقالت:

– ماذا حدث لك ؟!.. لقد كنت طبيعيا بالأمس.. هل عضتك سحلية بقفاك، وأنت نائم ؟!

خفت أن تظهر سومة في هذه اللحظة؛ فتظن بي الظنون التي سيكون أقلها أني أصبحت لعوبًا أريد هذه وتلك أو تعتقد بأن محاولتها قد فشلت، وتنصرف عني.. فتواريت خلف الشجيرة حتى لا أظهر للقادمين نحو المبني، وابتلعت ريقي وتنهدت وقلت لها بنفس الوجه البلاستيكي الذي حاولت المحافظة عليه:

– آنسة ميان ما حدث بيننا بالأمس كان سيدفعني لارتكاب كبيرة؛ إنما هي فاحشةٌ ومقتا وساء سبيلا.

جلجلت قهقهتها مرةً ثانيةً بشكل جعلني أتلفت حولي ظانًّا بأن سومة حتمًا تراني الآن، وقد اخترقت أذنها هذه الضحكات اللعينة.

وقالت بمرح:

– ويحك يا ابن البيهقي.. نبيل هل تتكلم بجدية ؟!.. لقد كنت أمزح معك أيها المغفل..هل لأجل ذلك أغلقت جهازك، وخرجت دون أن ترد علي ؟!.. يالك من بائس !!.

نال مني ردها بشكل لا تتوقعه.. ما هذا ؟! هل كنت غارقًا في الوهم للمرة الثانية ؟!.. هل عانيت صراع الأمس مقاتلاً طواحين الهواء ؟!.. لهذا الحد أنا فاشل جدًّا مع النساء لم أفهم الملتزمات منهن ولا الفاسدات ؟!.. لا.. إنها تتلاعب بي حتى تتحين الفرصة المناسبة لتنال مني .. لهذا يجب أن أنال منها الآن، وأنهي كل هذا الهزل.. فقلت لها بجدية:

– ميان.. أنت غير ملتزمة دينيًا.. حاسرة الرأس.. ملابسك رغم أنها تغطي جسدك، ولكن المبالغة في الأناقة بها إنما هي نداء واضح لجميع الأنظار بأن تتجه إليك لتلتهمك.. مزاحك الزائد وجلوسك معي بدون محرم، وحواراتنا التي تمتد لما بعد منتصف الليل عبر "ميسنجر الياهو" إنما هي

خطوات أولية وفعلية للوقوع في الفاحشة التي أخشاها.. هذا إن كنت حقًّا لم تكوني تقصدين حرفيًّا ما قلت بالأمس.

تغير وجهها للمرة الأولى، ونظرت نحوي بدهشة دلت عليها عيناها المتسعتان، وتعرجت جبهتها بعدة خطوط لم أرها عليها من قبل، ودون أن ترد نزلت دمعتان صامتتان نالتا مني.. وبصوت مبحوح قالت:

– نبيل أنت تتكلم بجدية إذن.. ياللهول.. ظننت بكثرة حديثي معك أنك تعرفني حق المعرفة.. ولكن يبدو أن هذا هباءً.. حسنًا يا نبيل أقولها لك للمرة الأخيرة..

ليست كل كاشفة لشعرها عاهرة أو عديمة الأدب أو مختلة الخلق.. ضعها قاعدة في أذنك.. وعن لبسي الذي لا يعجبك هذا؛ فذلك شأن يخصني وحدي، وطالما أني راضية عنه؛ لأنه لا يجسدني أو يكشفني سأفعل ما أشاء.. وأنا بالفعل آسفة للحديث معك، والجلوس والاطمئنان إليك.. وأعتذر لك عن كل حرف قلته.. أنا بالفعل تجاوزت الحد المسموح به؛ لأني وثقت بك بشكل خاطئ.. سلام يا نبيل.

وتركتني وانطلقت، وأنا واقف مكاني لا أستطيع التحرك؛ وكأنما قد التصقت بالأرض أو قد شُلت قدماي، وعجزتا عن الإنثناء..

داهمني إحساس كبير بالهزيمة.. فصدق كلماتها الجليّ قد أجهز عليّ بالفعل، وأشعرني بالفشل الذريع والعجز التام..

كنت أتمنى النداء عليها والاعتذار لها.. ولكن وجدت أن هذه النهاية هي الأفضل للتخلص منها، والفراغ لسومة محبوبتي الحقيقية.. كنت أظن خاطئًا بأن هذا الحوار مع ميان لن يتبعه شيء.. ولم أكن أدري بأنه سيكون سببًا في تغيير مصيري تمامًا فيما بعد..

كنت أتمنى الخروج من الكلية والعودة لمنزلي بعد أن قُتلت فرحتي وبهجتي مبكرًا هكذا.. مشاعري الرائقة تعكرت تمامًا، ويبدو أن جميع الشحنات والقوى الخفية ستخنقني بدلاً من الاتجاه لسومة بما كنت أريد.. ولكن العودة للوحدة بالمنزل سوف تنهش فيَّ أكثر مما سيحدث هنا .. لذا قررت مواصلة عيش هذا اليوم عسى أن تظهر سومة لتبدد بشمسها الوضاءة كل هذه الغيوم التي أحاطتني وأغشت عيني مبكرًا.. أخيرًا تحركت، ولكن بروح غير التي كانت بين جنباتي منذ قليل..دخلت المدرج وعيناي تسابقني نحو الصف الثالث تجاه اليمين لأجدها هناك مبكرةً على غير عادتها، وهذه المرة كانت نظرتها نحوي مترقبةً ومنتظرةً لي قبل أن تقع هي في دائرة بصري..

وعلى الفور تبدد الظلام الذي غشيني، وتراقصت مشاعري بين جنباتي بهجةً وفرحةً قتلت كل المشاعر السلبية بالضربة القاضية بمجرد رؤيتها..

لقد أرسلت هي أولى الرسائل، وسبقتني لتمنحني جرعةً من رحيق المشاعر الجميلة التي تمحو وتزيل كل ما حولي من الوجود ليتبقي فقط أمامي وجهها الرائق الهادئ الذي ليس بجمال ميان ولا يمكنه منافستها.. ولكن كان يشعرني براحة الدنيا كلها عندما أراه.. لم تطل نظرتها نحوي أكثر من ثوان معدودة؛ وانشلغت بالحوار مع رفيقتها بمرح زائد لم أره معها من قبل..

حسنًا لقد عادت لي الحياة مرةً أخرى، وقد نلتُ كل ما أريد بأفضل ما أتمنى.. كنت أتوقع بأن هذه الرسائل البصرية هي أقصى ما يمكن نيله من سومة.. ولكن كان التطور الطبيعي أن يتعدى الأمر ذلك بكثير..

بدأ على الموقع الإليكتروني الخاص بأسرة اليقين، فبعد أن كنت في السابق أطرح الفكرة ظانًّا خطأً بأن سومة سوف تطالعها، وتعجب بها وكان هذا أقصى ما يمكن نيله منها أصبح هناك حوارًا حقيقيًا مشفرًا بيني وبينها حتى لو كنا أمام الجميع..

أطرح الفكرة والتي رغم وضوحها كانت تطيل النقاش طارحةً أسئلةً لا داعي لها، وبالطبع أدرك بأنها فقط تريد التواصل، والأخذ والرد معي.. وكان مدحها الزائد لكل ما أقوم بها إنما هو خير ترجمة لما يجول بداخلها.. وفي ذات يوم وجدتها ترسل لي رسالة على برنامج الحوار تسأل سؤالاً عن شيء ما خاص بالعمل في الأسرة.. كانت مفاجأة سارة لي.. بالطبع رددت على سؤالها، ولكن أسرعت وطلبت إضافتها كصديق عندي في هذا البرنامج وبلا

تردد قبلت هي الإضافة.. وتكررت أسئلتها كثيرة بعد ذلك، وأخيرا تعدينا مجرد الحديث في أنشطة الأسرة لنبدأ بالاطمئنان عن أخبارنا الشخصية، ونتطرق بالحديث عن كل شيء.. وعندما سألتها ذات يوم قائلاً:

– أخشى أن يكون حديثنا هذا محرمًا!...

صمتت دهرًا ثم قالت:

– هو خطأ بالفعل.. ولكن أعتقد بأن الحديث من وراء حجاب خيرٌ من الخروج والحديث المباشر.. ووعد الارتباط بيننا قد يمنحنا هذا التصريح إن كنت أنت صادقًا وهذا ما لا أشك فيه.

أعجبني مبررها وأراحني بغض النظر عن عدم اقتناعي الكامل به؛ ولكنه أعطاني المسوغ الذي يبقيني على إحساس بالتطهر والنقاء.

وميان التي كانت تجاورني في الدروس العملية لم أعد أنال منها سوى النظرات الناقمة، والتي كان الحزن مشوبًا لها..

كنت أشعر بالحسرة أحيانًا على فقدها، والشفقة أحيانًا أخرى على ما آذيتها به؛ فقد أثبتت لي صدق حديثها فيما بعد بشكل غير مباشر؛ وذلك أني لم أعد أراها تحدث أحدًا من شباب الدفعة إلا فيما ندر، وذلك عند طلبها أو نقاشها في شيء عملي يخص الدراسة فقط..

ولكن عند انتخابات اتحاد الطلاب فوجئت بها تتخذ موقفًا عدائيًا ضد أسرة اليقين، وتحشد كل من تعرف للتصويت لمنافسيها..

كنت أعلم السبب؛ وذلك لأني أحد أبرز المرشحين بأسرة اليقين، وقد أكسبتهم عدوًّا جديدًا بسبب مشاكلي الشخصية..

ومرت السنون وقد تطورت علاقتي بسومة ووصلت لدرجة مهاتفتها على جوالها؛ ولكن كان ذلك لدقائق قصيرة بسبب غلاء أسعار المكالمات وقتها، ولم يحدث أن التقينا أو تجالسنا أو حتى تحاورنا وجهًا لوجه أثناء الدراسة بالكلية..

ونحن بالفرقة الثانية حدث أول موقف تكرر بعد هذا، وكان سببًا كبيرًا لأكبر ذنب فعلته، وأقص عليكم هذه القصة هكذا بحذافيرها كي تستوعبونها..

كنا نتحدث عبر برنامج التحاور بالإنترنت، وبدأت تقص عليَّ بأنها تعاني الكثير من الاكتئاب بسبب سوء معاملة أخيها لها..

وبالطبع كان ردي بأني أعاني أضعاف ما تقاسي.. فذكرت بأني رجل، والأمر مختلف تمامًا؛ لأني أملك ناصية أمري، ولدي استقلالية ومقدرة على التحكم بحياتي، ثم صمتت قليلاً، وشعرت بترددها قبل أن تقول:

– أريد أن أخبرك أمرًا ما، ولكن عِدني بأنه لن يغير شيئًا من تصرفك نحو صاحبه..

توجستُ قليلاً.. ترى ما هذا الأمر ؟.. وقلت لها:

– تفضلي.

كررت طلبها قائلةً:

– عِدني أولاً.

فقلت مباشرة:

– أعدك ألا يتغير تصرفي مع أي شخص مهما كان ما ستخبريني به.

فقالت بسرعة؛ وكأنها تحسم ترددها:

– د.وائل توفيق المعيد بقسم البرمجة وأحد أبرز الأعضاء السابقين بأسرة اليقين بالكلية يريد التقدم لخطبتي.

كانت المفاجأة قاسية بالفعل، وشعرت بالندم الشديد على الوعد الذي قطعته، والذي بالطبع فشلت في الوفاء به تماماً فيما بعد..

على الفور هاجمني الإحساس بالعجز والفشل عند مقارنة نفسي به.. لقد انخفض تقديري في نتيجة السنة الأولى بعد الإعدادية ليصبح جيدًا فقط.. وبهذا من المستحيل أن أصبح مثله معيدًا بكلية الهندسة، ثم أستاذًا بها في المستقبل القريب..

توجست كثيرًا، وافترستني الظنون، وأنا أتساءل ما الرابط بين إخبارها بمعاناتها مع أخيها وطلب وائل التقدم لخطبتها ؟

حتمًا هي تمهد لخبر موافقتها على هذه الخطبة، وتريد التفلُت مني بشكل غير مهين.. وقد اتضح هذا جليًّا في طلبها بعدم تغير معاملتي مع وائل هذا.. الآنسة تخاف عليه مني.. مرحلة حرصها عليه هذه أولى الخطوات في التوجه نحوه..

لذا وبعد صمت لا أعلم مدته قلت لها، وقد أصبح جسدي يموج بغليان الغضب:

– متى كان هذا ؟وكيف تم؟ وماذا كان ردك ؟

قالت مباشرة؛ وكأنها قد أعدت الأجوبة مسبقًا:

– كان هذا بالأمس، وقد أرسل هذا الطلب مع إحدى الزميلات لتسألني هل يمكنه التقدم لي أم لا.. وبالطبع بلا تردد رفضت .. هل لديك شك في هذا ؟!..

لست أدري ماذا تفعل بي هذه الفتاة.. كلمة منها تخسف بي تمامًا وأخرى ترفعني فوق أعناق الجبال وبين السحب.. على الفور انقلب غضبي لفرحة تهز أرجائي.. لقد اختارتني رغم افتقادي لكل ما يمكنني مجابهته به.. لقد فضلتني عليه.. لقد آثرتني أنا دون غيري .. لهذا وبلا تردد، ولأول مرة قلت لها مباشرة:

– أنا أحبك جدًّا يا سومة.

طال صمتها كثيرًا دليل مفاجأتها، ولكن كنت متأكدًا بأن وجهها قد اكتسي بحمرة الخجل وتزين ببهجة الفرحة التي تشلمني الآن.

ورغم وعدي لها إلا أن وائل هذا صار من ألد أعدائي، ولم أعد أطيق رؤية وجهه، وأصبحت أتحاشى التعامل معه

، ولكن اضطررت في يوم أن أستمع لدرسه الديني الذي ألقاه بمسجد الكلية عقب صلاة العصر في كلمة موجزة عن الصبر على البلاء.. رغم بلاغته ووجهه الطيب الهاديء إلا أني لم أتقبل حرفًا مما قال، وما جلست إلا لأني كنت بالصف الأول وخروجي أمام الجميع سيسبب حرجًا لي..

ورغم اعتقال ثلاثة طلاب بأسرة اليقين وأحد الأساتذة الداعمين لها إلا أني ترجمتُ حديثه هذا أنه ينعى نفسه على رفض سومة له، ويريد تبليغها بدرسه هذا والذي حتمًا يطرق أذنيها الآن..

وسارت الحياة بين صعود وهبوط؛ ليتجدد نفس الموقف، ونحن بالفرقة الثالثة لأكتسب عداءً جديدًا مع د. علي السِمري المدرس المساعد بأحد أقسام الكلية.. ولكن ما كان يسعدني هو تفوقي فوق كل هؤلاء، وتميزي بتفضيل سومة لي عليهم كلهم..

ونحن بالفرقة الرابعة، وبعد انتهاء الامتحانات، وانغماسنا في أعمال مشروع التخرج العملي أخبرتني كذلك بأن صلاح خيرت أحد زملائنا بالدفعة، وكان عضوًا نشطًا بأسرة اليقين وشريكها في المشروع فاتحها مباشرة في أمر الارتباط بها حيث أنه ابن أحد الأثرياء المالكين لشركة كبرى عاملة في مجال الكمبيوتر، ولديه الجاهزية للزواج مباشرةً في خلال شهر واحد، وبهذا يضمهما بيت واحد وعمل واحد لدى أبيه، وبالطبع كان ردها معلومًا لديَّ دون أن تخبرني به، وهوَّن عليّ الأمر هذه المرة أني لن أتعامل مع هذا المخلوق مرة أخرى في المستقبل القريب على حسب ظني وقتها..

وتخرجنا من الكلية؛ لأكتشف الجحيم الذي كان ينتظرني..

فقد انتهت فترة الدلال التي كنت أعيشها، وأنا الذي كنت أظن نفسي أشد الناس بلاءً.. ولم أكن أدري بأن الصراع الحقيقي مع الحياة إنما يكون بعد انتهاء الدراسة التي فيما بعد سنتذكرها بأنها كانت أجمل محطات عمرنا..

بدأ الأمر بعناء التجنيد وما لاقيت فيه من عذاب كبير لم أجد من يهونه عليّ سوى سومة التي ظلت بجواري ترعاني وتطفئ براكين آلامي.. وبالطبع كانت صامتةً حتى انتهاء هذا التجنيد؛ فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن أفكر في الارتباط بها مع وضعي الذي ساء كثيرًا، وقد توقف معاش أبي بانتهاء دراستي، وأصبحت أتسول من أخوتي ملاليم قليلة تساند الراتب الهزيل الذي كنت أتحصل عليه، وأنا مجند لمدة عام ونصف.. وفي خلال هذا المدة كانت تقتلني بإخبارها لي عن الخمسة الذين أرادو الارتباط بها.. بعضهم زملاء لها بعملها الجديد الذي حصلت عليه سريعًا.. وبعضهم من زملاء الدراسة القدامي.. كنت أريد الصراخ فيها قائلاً لها:

– كفى.. لماذا تخبريني بذلك ؟.. هل تريدين إعلامي بأنك أنت المرغوبة التي يتسابق الجميع عليها.

ولكن كنت أتذكر بأني أنا الذي استحلفتها بإخباري كل صغيرة وكبيرة في الشأن، وانتهت فترة التجنيد لتقابلني سومة لأول مرة في أحد الأماكن العامة الشهيرة بالقاهرة بفرحة قائلةً:

– أخيرًا الموعد قد حان.. اليوم الذي أترقبه قد آن..

بتردد قلت لها:

– سومة لا تنسي وضعي المادي المتدهور.. لدي الشقة ولكنها في حاجة لكثير من الإصلاحات والتجهيز.. بل إني عاجز حتى عن شراء ما تستوجبه مرحلة الخطوبة..

بكل بساطة قالت:

– كل ما أدخرت في العام الماضي ملك لك يمكنك استخدامه كما تشاء بلا حرج.

قلت بضيق شديد:

– سومة أنت تعلمين جيدًا موقفي تجاه هذا الأمر منذ أن عرضتِ عليّ بعض المال لمصاريفي الشخصية أثناء فترة تجنيدي رجاء عدم تكرار ذلك.

سكتتْ، وقد رأيت الإحباط مظللاً لها، وهدأت نبرة صوتها وقد تبخرت كل معالم الفرحة لديها وقالت:

– أتمنى أن يعجل الله عز وجل لنا اليوم الذي تواعدنا عليه.

وبدأ العناء الأكبر في البحث عن عمل مجدٍ.. ولكن كمهندس حديث التخرج كان ذلك من الصعوبة بمكان.. وفي هذه الآونة اكتشفت بأن جميع البشر قد أصبحوا مهندسين في عالم الحواسيب.. حتى لغات البرمجة الصعبة كنت أجد طلبة الثانوي يجيدونها..وبالتالي كان أصحاب العمل لا حاجة لهم بمهندسين متخصصين برواتب مرهقة لهم طالما لديهم البديل الذي يؤدي نفس العمل من مؤهلات مختلفة وبأسعار أقل.. ولهذا اضطررت في البداية للعمل بأحد مراكز الصيانة براتب هزيل كان بالكاد يكفي احتياجاتي الأساسية.. وبعد تسعة أشهر تكرر تلميح سومة على استحياء هذه المرة بأن أقوم بأي خطوة عملية.. لأصدمها بأني حتى لا أملك ثمن دبلتي الخطوبة فما بالها ببقية المصاريف..

وبعد تمام العام وجدتها تسألني قائلةً:

– أما زال راتبك هزيلاً كما هو ؟!..

فقلت لها بعنف لم أتعمده:

– سومة أرجوك لا تجعلي شعور النقص والتقصير بداخلي يتزايد بأكثر مما هو عليه.. أعدك أن أتقدم لك فور أن أتمكن من ذلك..

تمعر وجهها بألم لم تستطع مداراته وقالت:

– لم أسألك لأجل هذا يا نبيل؛ وإنما لأني كنت أجد في البحث عن عمل جيد لك يدر عليك دخلاً يريحك أنت أولاً قبل أن يكون سببًا فيما أحلم به..

انتبهت لها بكل حواسي وقلت فرحًا:

– وهل وجدت ذلك العمل حقا ؟!..

بتردد كبير قالت:

– ولكن لست أدري هل ستوافق عليه أم لا ؟!..

شعرت بالدهشة كيف سأرفض عملاً بمثل ما تقول ؟! فقلت لها:

– بالطبع لن أرفض إليّ به..

فترددت وحاولت النظر بعيدًا وهي تقول:

– صلاح خيرت لديه مكانًا شاغرًا يمكنك شغله وبراتب سيسرك أن تعلمه..

بمنتهى البساطة قلت لها:

– رائع جدًّا هل معك أرقام الاتصال به ؟

توقفتْ مندهشةً، وصمتت طويلاً مطرقةً رأسها، وبصوت شعرت فيه بمغالبة البكاء منحتني رقم الاتصال به، وقالت لي:

– لماذا لم تسألني كيف علمت بهذه الوظيفة وحصلت لك عليها ؟!..

قلت لها:

– لأني أثق بك وأعلم بأنك حتمًا سلكت الطرق السليمة ولم تفعلي ما لا يسرني..

ابتسمت ابتسامةً شاحبةً، وقالت:

– حسنا.. أريد أيضا أن أعلمك بها حتى لا تتحرج في سؤالي عنها مستقبلاً.. لي صديقة تعمل هناك، وهي من أخبرتني، وقد طلبت منها السعي لأجلك دون ظهوري في الصورة – وضغطت على أحرفها وهي تقول – حتى لا يؤثر موقفي السابق من رفض ارتباطه بي على موافقته بعملك معه..

بمنتهى الفرحة قلت لها:

– ثقتي في حسن تصرفك وذكائك لا حدود لها..

هزت رأسها بإحباط كبير، ثم استأذنت في الانصراف..

وبكل سهولة ويسر تم تعييني مبرمجًا بلغة الأوراكل بالشركة الكبرى مع صلاح خيرت.. رأيت مواقفي السابقة وعدائي مع كل من تقدم لسومة؛ إنما كانت تصرفات صبيانية، وعدم نضجٍ كافٍ.. الحياة يجب التصرف والتفكير فيها بشكل عملي.. ما عانيته عبر عام كامل من مهانة، وعمل بلا أجر تقريبًا يجعلني أوافق على العمل مع إبليس نفسه، ولا شأن لي بمصيره أو بأي درجة في جهنم سيكون.. المهم أني سأعمل عملاً مشروعًا، وبأجر مناسب يكفيني.. فما بالك بمن كان يريد الزواج بسومة.. وما أراحني تمامًا من هذه الناحية أني وجدت صلاح قد تزوج بالفعل، وبالتالي سومة بالنسبة له تعدُّ ماضيًا، ربما لا يذكره ولا يخطر له على بال.. وبدأت أموري في الانتعاش كثيرًا.. ولكن رأيت أني يجب أن أتقدم لسومة بشكل يليق بها.. لذا قررت أن أهيىء عش الزوجية جيدًا قبل أمر الارتباط الرسمي هذا.. فترة الخطوبة إنما هي للتعارف، ونحن على معرفة جيدة ببعضنا البعض فما الداعي لها ؟!

وبنفس الابتسامة المريرة التي أصبحت ترافقها هذا إن ابتسمت وافقت على اقتراحي بتأجيل الأمر حتى يصبح الارتباط كاملاً بزواج دفعةٍ واحدةٍ بلا مقدمات قد تحدث بها مشاكل وأزمات بين العائلتين قد تنهي كل شيء أثناء فترة الخطوبة..

وجاءت الصدمة الثانية لأجد بأن تجهيز الشقة وتأثيثها في حاجة إلى مبالغ باهظة وسط سُعار الأسعار المتصاعد.. ومر عامان كاملان لم ينغص عليّ

أحدهم بالتقدم لسومة طالبا الزواج بها.. لكن لست أدري أين ذهب بريق سومة الذي خبا بشكل عجيب..

لم تعد بنفس الجاذبية التي كانت عليها دومًا.. أصبح تأففها من المشاكل التافهة التي تواجهها أمرًا مرهقًا لي.. وكثيرا ما تفعل، أصبح نصحها لي بالصيام والقيام والتضرع لله أن يقرب لنا كل بعيد شيئًا ثقيلاً على قلبي.. هل سأعبد الله فقط لأني أريد الزواج ؟!

وأخيرًا تألقت شقتي، وقد اكتملت بما أريد.. ولأول مرة أجد سومة مبتهجةً، وقد أضاء وجهها مرة أخرى بعد أن طال انطفاؤه وقالت:

– هل تريد أن أفاتح أخي، لأمهد لك قبل مقدمك أم تتصل أنت به مباشرة..

ترددت قليلاً وقلت لها:

– أرى بأن شراء سيارة قبل الزواج أمرٌ هامٌ؛ فمع هذا الزحام الرهيب والخانق لن يمكنني الخروج معك أبدًا، ولن أتحمل رؤيتك وأنت تعانين بسبب ذلك، ولأول مرة أجدها عنيفة عصبية لهذا الحد الذي بالغت فيه، وهي تقول:

– نبيل أنت ينقصك الكثير.. السيارة ومعها سائق مدرب كي لا تتسبب في حوادث قد تُفقد أحدنا الآخر..وكذلك فيلا في مارينا؛ فلن نتحمل المصيف وسط الشواطئ المزدحمة.. بل قد تكون في حاجة كذلك إلى الانتقال لشقة جديدة متسعة أكثر وبعيدًا عن أخوتك الذين حتمًا سأتسبب لك في مشاكل معهم.. لو ظللت أعدد لك ما أنت في حاجة إليه، ونويت أن تجعله قبيل الزواج لن نرتبط في هذا القرن حتمًا.

ولم تنتظر إجابتي، وقامت منصرفةً، وقد تغيرت كثيرًا بل لقد قل التزامها كذلك.. كيف تسمح لنفسها الجلوس والخروج معي هكذا بدون محرم ؟!.. كيف تحدثني في الجوال منتصف الليل لتطمئن عليَّ حين كنت مريضًا الأسبوع الماضي ؟!.. إنها حتى لم تعد تهتم بملبسها وهندامه كالسابق.. وقد يكون ذلك سببًا في أنني لم أعد مهتما ولا منجذبا للنظر والتطلع إلى ملامحها التي كانت تشدني كالسابق..

إنها تتهمني بالتلكؤ في أمر الارتباط بها.. ولكني كنت صادقًا وعازمًا في هذا الأمر، ومعاناتي جعلتني أخشى تحمل مسئوليتها بشكل كامل؛ لذا قرار الجاهزية الكاملة قبل الإقدام على هذا الأمر قرار حكيم من وجهة نظري..

ولكن حدث ما غير كل ذلك تمامًا..

في يوم مشرق دافئ في سبتمبر عام ٢٠١٠، وبينما أنا جالس على أحد حواسيب الشركة، ومنهمك في إنهاء البرنامج الذي أعمل عليه.. إذا بشمس أخرى تشرق معي في نفس القاعة.. وقد كانت مفاجأة كبرى بكل المقاييس.. كان رئيس القسم يرافقها مقدمًا إياها إليّ بأنها زميلتي الجديدة التي ستشاركني كل العمل القادم..

وقتها عقدت المفاجأة لساني تمامًا، وأنا أتطلع لها عاجزًا حتى عن الترحيب بها.. كيف تحولت هذه الشركة مقرًّا لكل مفارقات الدنيا، أعمل مع من نافسني في الارتباط بسومة.. وأخيرًا تظهر لي من نافست سومة يومًا ما.. إنها ميان..

على عكس سومة كانت محتفظة بنفس تألقها وجمالها وجاذبيتها باهتمامها بكل تفصيلة صغيرة تخص مظهرها..وقد زادها حجابها الملون والملتف حول رأسها بأناقة بهاءً فوق بهائها..

بكل بساطة مدت يدها نحوي مصافحة، وهي تقول مبتسمة:

– ما هذه المفاجأة.. مهندس نبيل يعمل هنا كذلك.. يبدو أن هذه الشركة قد تبنت كل المواهب المتألقة بدفعتنا

، لست أدري كيف مددت يدي تلقائيًا مصافحًا لها بلا تفكير.. وأعاد ملمس يدها الرقيقة الناعمة نفس التيار الذي سري بجسدي منذ تسعة أعوام

ليضيء بداخلي كل المصابيح التي انطفأت، وظننت مخطئًا بأني قد حطمتها..

سحرتني بنفس بساطتها وتلقائيتها التي كانت تميزها قديما.. يبدو أنها نسيت أو تناست ما فعلته بها، ومشكورة لم تلمِّح به، أو تجعله عائقًا بيننا لهذا ابتسمت، ورددت عليها قائلا:

– لقد أنرت الشركة كلها يا مهندسة ميان.

وسريعًا طفت ببصري نحو كفيها باحثًا عن أي علامة ارتباط، وابتسمتُ فرحًا عندما لم أجد شيئًا..

بالطبع لم تكن تعلم شيئًا عن سومة، وكذلك لم تكن سومة تدري بها، وبما حدث معها فلم يكن منطقيًّا أبدًا أن أذكر أو أقص عليها هذا الأمر في أي وقت قديمًا أو حديثًا..

ولست أدري كيف عشت شهرين بين نارين.. فجأة اشتعلت المقارنة بينها وبين سومة في كل شيء..

رغم أنها قد تمت خطبتها ثلاث مرات إلا أنها لم توفق في إحداها، وتعجبت لذلك فمثل ميان حتمًا سيتسابق عليها الجميع، ولكنها ذكرت لي بأنهم هم من كانوا أوغادًا لا يستحقون، ولا تستطيع مشاطرتهم حياتها..

لم نتطرق أبدًا في حديثنا لما فات وما كان بيننا.. ولكن لاحظت أنها قد أصبحت تحافظ على الصلوات في وقتها بمسجد الشركة في الجزء المخصص للنساء به.. وكذلك لم تعد تطلق ضحكاتها المجلجلة، والتي كنت أراها رقيعةً قديمًا.. وشخصيتها أصبحت أكثر جدية، ولكن مرحها وخفة دمها ما زالت كما هي متوقدة بها.

سومة كانت كل يوم تفقد شعاعًا من ضوئها أمامي، وبدأت ألحظ تجعداتها وبروز عظام وجنتيها وتشوه وجهها.. وكذلك لم تعد تطيق صبرًا، وفقدت كل هدوئها.. لقد ذوت سومة تمامًا وانطفأت، ولم تعد هي الأنثي التي كنت أحلم بها أو أرجو وأطلب ودَّها..

لذا كان من الطبيعي جدًّا مع أول شجار حدث بيننا بسبب نسياني لموعد كانت قد ضربته لي أن أصرخ فيها بأن تكف عن ملاحقتي..

وقتها وقفت مندهشةً صامتةً واجمةً، ونزلت دموعها بلا أي نحيب، وقالت لي بصوت ينازع الموت:

- آسفة يا نبيل سأرفع عنك عبء ملاحقتي لك، ولن تراني بعد الآن.. أشكرك جدًّا على كل شيء.

وانطلقت مسرعةً ولم أرها بعدها.. توقعت أن تتصل بي في خلال أيام، ولكن مرّ أكثر من أسبوع لم يظهر أمامي رقمها.. وقتها شعرت براحة كبرى،

وذهب تأنيب ضميري على ارتباطي باثنتين.. وقد قررت، واخترت من التي تستحق صحبتي..

إنها حبي القديم الذي لم أعترف به.. إنها الشخصية البسيطة التلقائية المتدينة بلا تكلف.. إنها الجميلة الرقيقة المتألقة المرحة....

بالطبع إنها ميان..

لذا كانت فرحة وموافقة ميان على طلبي التقدم لخطبتها بداية سعادتي الحقيقية.. وكان طبيعيًّا أن أكذب عليها قائلاً بأني لم أنسها يومًا، وأنها أول من طرقت باب قلبي.. ولست أدري هل كذبت عليّ أم لا حين قالت لي بأني كنت سبب تغير حياتها كلها، وأن فشل جميع مشاريع زواجها إنما كان السبب فيها هو أني دومًا كنت نُصب عينيها، ولم يفلح أحدهم في أن يحتل مكاني..

وتمت الخطبة في حفل بهيج على أمل الزواج في خلال أشهر قليلة.. وجاءني بريد إليكتروني من سومة يهنئني على الخِطبة السعيدة والسريعة قائلةً به:

" مبارك خطبتك.. أتمنى لك حياةً سعيدةً هانئةً.. ليتك أخبرتني مبكرًا؛ كي أخلصك من عبئي دون عناء"

وكان به ملفًا مرفقًا بمجرد أن فتحته لم أتمالك من الانتفاض، ثم الانكماش حتى كدت أن أزوي تمامًا وأختفي من الوجود..

فقد كانت الصورة التي رسمتها لها، وهي تبتسم وواضعة كفها على فمها، ونحن بالفرقة الإعدادية، والتي نسيتها داخل أجندة مذكراتي التي حصلت عليها، ولم تردها أبدًا..

رغم أن إعدادات الزواج على قدم وساق.. إلا أن هذه الرسالة بمنتهى السهولة كشفت عن عيني الغيم والغشاوة دفعةً واحدةً..

لقد كانت سومة زهرة يانعة محط أنظار الجميع، وحلم كل راغب في السعادة.. وإنما ذبلت بيدي وبسببي أنا..

لقد فعلت كل الأعاجيب لأجلي.. وتخلصت أنا منها مسرعًا؛ بسبب تعودي الطويل عليها، وتطلعي وتشوقي للجديد.

انتبهت فجأة بأنه لم يعد هناك من يطرق بابها، وقد اقتربت من السن المخيف لبنات جنسها..

الآن وبعد أن كانت هي الآمرة الناهية التي تقرر من يستحقها ومن لا ترغبه.. حتمًا ستقبل بأول متقدم لها، والذي غالبا سيكون مُطلقًا أو أرملاً أو راغبًا في التعدد..

وقد تكون سعيدة الحظ، ويأتيها من هو مكتملٌ وخالصٌ لها؛ ولكن سيكون ذلك أشبه بفرص وجود الجائزة الكبرى داخل أكياس البطاطس المحمرة الشهيرة..

مع كل يوم يقترب فيه زفافي تزداد مشاعر الندم بداخلي والألم لأجلها.. ولكن لم يخطر ببالي أبدًا أن أسأل عنها أو أن أتحسس أخبارها وبالطبع لم يرد بذهني إنهاء مشروع زواجي بميان لأجلها.

وقبيل زواجي بأسبوعين، وبصدفة محضة جاءني خبرٌ عنها لم أسع له، وإنما لاحقني هو بشكل عجيب..

صديقتها التي تعمل معنا في الشركة والتي كانت سببا في نيلي لوظيفتي هذه وقد ارتقيت كثيرًا فيها، وأصبحت ذا شأن وقيمة كبرى ؛ وذلك بسبب إجادتي الخاصة للرسم بجوار براعتي غير المسبوقة في استخدام لغة الأوراكل في البرمجة؛ فقد كان ذلك مزيجا من النادر تواجده؛ ولهذا صرت صاحب دخل يحلم به الكثيرون.. ما زالت هذه الصديقة معنا بالشركة، ورغم شح تعاملي معها والذي لم يتعد عدد أصابع اليد الواحدة طوال هذه الأعوام؛ وذلك لأنها بقسم مختلف، ولا أنسى أولى هذه المرات عندما سألتني ما صلتي بسومة كي تضحي هذه التضحية لأجلي ؟!.. وعندما سألتها عن أي تضحية تقصد؛ فقالت: بأن وظيفتي الحالية إنما كانت معروضة على سومة، وقد اعتذرت هي رغم فارق الراتب الكبير، ورشحتني

بدلاً منها؛ فلم أذكر لها سوى أننا كنا زملاء قدامي بكلية الهندسة أنا وهي وصلاح خيرت؛ فتفهمت الأمر وقتها، ولم تزد في أسئلتها.. ذهبت يومًا إليها لعمل مشترك بيننا بسبب البرنامج الجديد والمشروع الذي أعمل عليه.. وبينما نحن نتناقش سويًّا حول ما يخصه.. إذا بها ترميني بقذيفة مباشرة أجهزت عليّ.. حين قالت لي:

– هل واسيت سومة بعد طلاقها ؟!

اختلت الأرض تحت قدمي، وفقدت توازني حقيقةً لا مجازًا..

ياللهول.. بهذه السرعة تزوجت وطُلقت وتدمرت... أي جرم أذنبت به في حقها؟! وأي مصيبة ألحقتها بها ؟!..

احتلني الصمت يومين، وأنا لا أستطيع مصارحة ميان بالسبب الحقيقي لما يعتريني.. ولكن بالطبع لم يكن أمامي أي فرصة للتراجع عن عالم ميان الفرحة السعيدة المتألقة بسبب ارتباطها بي، ستكون هذه جريمة مزدوجة سأذهب لإصلاح قارب متحطم يهوي نحو القاع، وأمل عودته لما كان عليه في السابق ضعيفٌ جدًّا؛ وذلك بتحطيم القارب الجميل الذي أنا به الآن..

ولذا أرى أكبر ذنب فعلته في حياتي هو سومة، وتدميري لها بخلف الوعد الذي قطعته على نفسي بالارتباط بها

أتمنى الآن فقط العودة لها قائلاً:

- أرجوكي سامحيني واعف عني، وأنا مستعد لأي شيء يعيد إليك بسمة واحدة لوجهك الوضاء.. وراضٍ بأي عقابٍ تُنزلينه بي جرَّاء ما فعلته بك.. المهم أن أُكفِّر عن ذنبي في حقك ، ولكن بما أني هنا على شفا الموت ولا أمل في ذلك.. أسألك يا الله يا غفور يا رحيم أن تغفر لي هذا الذنب الكبير، وتقبل توبتي الحقيقية، وأن تمنحنى فرصةً واحدةً لإصلاحه أو التكفير عنه.

الفصل الثالث

في عالم الخائنات

سالت دموع نبيل على وجنتيه ببطء، وصمت بعد أن ختم قصته، ولم يحاول حتى مسحها.. بعد برهة نظر نحو رفاقه؛ فوجد وفيق يغط في نوم عميق، وباسم يقاوم الضحك، ومحمود ينافسه بدموعه الغزيرة.. فقال:

– أرى بكاءك منطقيًّا يا محمود مع ما قصصت عليك؛ فهو بالفعل يدمي الحجر.. فهل من الممكن أن أعلم ما هو سر ضحكك الذي تغالبه هذا يا باسم ؟!...

أطلق باسم سراح ضحكاته، ومن بينها قال:

– ذنبك الأكبر أنك خلفت وعدك مع امرأة واحدة.. وأنت تسأل الله أن يغفره لك قبل أن تموت عليه.. إذن يجب أن أعدم نفسي رميًا بالنعال، ولو حدث ومت هكذا بالطبع لن يغفر الله لي..

رد نبيل بجدية، وقال:

– لا تدري.. ربما لو أخلصت لله في هذه اللحظات الصعبة، وتوجهت إليه بصدق تكون هذه البداية لتوبة حقيقية.. ما زال لديَّ الأمل في نجدتنا.. المهم لا تكن كأصحاب السفينة إذا أدركهم الغرق ذكروا الله.. وإذا نجاهم عادوا لما كانو عليه من قبل.. فلتعزم أمرك بصدق ويقين على التوبة وعدم الرجوع لهذا الذنب أبدًا..

هبط باسم برأسه خافضًا إياها لتلامس ذقنه صدره، وصمت تمامًا كأنما لن يرد عليه أبدًا، ثم رفعها بحدة ناظرًا نحو نبيل، وقال له بجدية:

– لا أعتقد ذلك يا نبيل.. وسوف أقص عليك تفاصيل ما مررت به من مصائب وجرائم لا تحصى، وأختمها بأكبر ذنب فعلته في حياتي؛ والذي يفوق الجميع، وحتما لن يغفره الله لي..

ارتفع صوت شخير وفيق بعنف كأنما يعترض على قول باسم مما جعله يحطم الجدية التي اتسم بها للحظات لينفجر مقهقهًا، وهو يهز وفيق قائلاً:

– كفى نومًا هكذا يا وفيق.. فاتك نصف حكاية نبيل، ولن أدعك تفوّت حكايتي.

قام وفيق فزعًا، وهو يقول:

– هل جاء أحدهم ؟.. أين الطعام الذي جلبه ؟

أكمل باسم ضحكاته، وهو يقول له:

– لو استمعت لحكايتي، واستوعبت ما بها سيأتون مسرعين لا تقلق.

لوَّح وفيق بيده قائلاً في سخط:

– تبًّا لك أتخرجني من راحتي التي كنت بها لأستمع لقصصك الفاشلة..

ثم رقد مرة أخرى معطيا ظهره له محاولا بفشل أن يعود مرة أخرى لنومته..

فقال نبيل:

– دعه في حاله، وأكمل حكايتك..

نظر باسم نحو محمود ليجده ما زال باكيًا، ويجاهد في إيقاف دموعه التي تأبي على مطاوعته.. فقال له:

– حسنا يا محمود تماسك قليلاً؛ فقصتي سوف تصيبك بانهيار عصبي ما دمت بهذه الرقة..

لم يرد عليه محمود بحرف، وظل في حاله الذي هو عليه؛ كأنما لم تطرق أذنيه أحرف باسم.. فتحول الأخير نحو نبيل وقال:

– حسنًا فلأبدأ حكايتي.. ولو سعيت لنشرها سيكون أنسب عنوان لها هو " في عالم الخائنات "

تنهد وتنحنح وسحب نفسًا عميقًا، وبدأ يخبرهم بالتفاصيل التي وعدهم بها.

*****

ليلى هي السبب في كل هذا.. كيف حدث ودفعتني لذلك، أتركها لكم ومن بين كل موقف حدث في حياتي سوف أذكر لكم حدثًا مع ليلى فهمت منه دوافعها كلها.. وبالطبع لم ولن أعذرها أو أسامحها..

هذه مقدمة لابد منها كي تتفهموا الكثير مما سأقصه عليكم.

هو ذنب واحد أتقنته، وأصبحت أكبر متخصص فيه بالطبع تعلمونه، ولكن دقة التخصص مطلوب ذكرها.. فأنا لا أصاحب بنات الليل المحترفات، ولا حتى العازبات أو المطلقات والأرامل.. تخصصي الدقيق الصعب هو الإيقاع بالمتزوجات فقط.. وكلما كانت الضحية تملك أسرة متماسكة من أب وأم وأبناء يكون التحدي والصراع أكثر صعوبةً، وكذلك أكثر متعةً وروعةً بالنسبة لي..

لا أحب الصيد السهل؛ فكلما ازدادت صعوبة الإمساك به كلما كانت فرحة الفوز بنيله..

ولكن بالطبع كانت البداية هي اقتناص الفرص السهلة..

نشأت كولد وحيد في أسرة مرفهة ميسورة الحال؛ ولكن ليست بالثراء الفاحش.. والعمارة التي تربيت بها هي نفسها التي فيها شقتي المنفصلة بعد أن أصبح لي بيتي المستقل.. كنت أتمنى الهروب بعيدًا، ولكن أبي اشتراها

وسجلها باسمي منذ كنت بالثانوية كي أتزوج بها في المستقبل بعد تخرجي وعملي..

ومن المضحك أن زوجة البواب هي أول من راودتني عن نفسي، كان ذلك في يوم عجيب قبل عام من حادثة الانكسار التي دفعتني للسقوط في الهاوية..

كان زميلي مختار المتدين عندي بغرفتي، وأجبرني على سماع درس ديني عبر حاسوبي جاء به على ذاكرة فلاشية عن الموت وسكراته وحياة البرزخ والحشر والصراط وكم الرعب والهول الذي ينتظرنا.. استمعت لأشياء لم أكن أعلمها من قبل رغم كوني بالسنة النهائية بكلية التجارة، وذلك بالطبع لأن ثقافتي الدينية كانت منعدمة تمامًا وطبيعي جدًّا مع شخص لم ير أبويه يركعان ركعةً واحدةً أمامه أو يوجهانه نحوها..

ولهذا صدمتي في هذا اليوم بما سمعت جعلتني أطلب من مختار تعليمي هذه الصلاة بشكل صحيح، وطلبت منه المزيد من هذه الدروس، صليت لأول مرة كأني قد دخلت الإسلام لفوري..

شعرت كأن ماء الوضوء قد نزل عليّ بردًا وسلامًا، وأطفأ حرائق تشتعل بكياني.. فبعد الصلاة احتوتني راحة لم أحصل عليها من قبل.. جميع المكيفات والمخدرات التي جربتها لم تمنحني هذا الشعور أبدًا.. أين كنت

يا مختار ؟ولماذا تركتني طوال هذه المدة ؟!.. هل لابد أن أطلب منك المجيء لإصلاح حاسوبي بخبرتك التي تتميز بها وعبقريتك في صيانته ؟.. انصرف مختار وقد أشعل بداخلي رغبةً حقيقيةً في التدين نسيت كيف كنت أسخر منه ومن لحيته الكثيفة، وهو يرد بابتسامة متسعة هادئة دون كلام كنت أظنه أبلهًا ومغيبا؛ ولكن عرفت الآن بأن مثل هذه الراحة النفسية وعدم الخوف من المستقبل الدنيوي، وربما الأخروي كذلك تغيَّر كثيرًا من سلوك المرء، بحثت عن كتب دينية أقرأها لدينا في مكتبة أبي فلم أجد سوى كتابًا ضخمًا مجلدًا ظننته أحد الدراسات العميقة في العلوم الدينية وبعنوانه الذي لم أفهمه تأكد هذا الظن بداخلي فقد كان عنوانه:

" المستطرف من كل فن مستظرف "

ومؤلف الكتاب اسم عتيق من القرون السحيقة بالطبع لا أذكره الآن، فتحت الكتاب لأقرأ مواقف كوميدية به، ولكن بالفصحي ومن التاريخ العربي، أعجبني الكتاب وشدني، ونسيت أمر الدروس الدينية قليلاً، ولكن ما زال الخوف من الآخرة يدب بأوصالي.. وقطع علي جلستي آذان العشاء، وكان سماعه لدي عجيبًا؛ فلأول مرة أنتبه أن هناك آذانًا يدوي بالمنطقة فلم ألحظه من قبل أبدًا، كان في السابق لدي أشبه بسماعك صوت أبواق السيارات المارة بجوار منزلك لو ظللت تحللها كلها وتدرس وتبحث عن أسبابها لن تعيش دقيقة واحدة في استقرار أبدًا.. ولكن بالطبع سيختلف

الأمر إذا كنت منتظرًا بوق أحدهم ومترقبًا له فيجعلك صوته تنتفض قائمًا وملبيًّا.. وهذا ما حدث لي.. فما إن سمعت صوت النداء الرباني حتى قمت مسرعًا ذاهبًا للمسجد القريب الذي لم أطأه بقدميّ من قبل، ولكن وعند هبوطي في آخر خمس درجات بالسلم ظهرت لي تلك اللعوب، وهي متكشفة بإغراء وبصوت حاولت فيه إرسال رسائلها الخاصة قالت:

– ما تيجي يا سي باسم تشرب حاجة عندنا.. هتتبسط والله.

أشحت بوجهي عما رأيت، ولم أتذكر سوى جملة قرأتها بكتاب المستطرف هذا وظنًّا مني أن ذلك تدينا قلت لها بالعربية الفصحى:

– خسئت يا امرأة.. أأترك جنات عرضها السموات والأرض لأجل بضع سنتميترات بين فخذيك ؟!!

شهقت بفزع وضربت بكفها على صدرها وقالت:

– يا لهوي يا خويا !!.. شتيمة دي ولا إيه ؟!

تجاهلت ردها وأنا أكتم ضحكاتي، واندفعت مسرعًا مارًا بجوارها، ولم تحاول هي تكرار هذه الفعلة؛ فقد فشلت معي وهي لا تسعى سوى خلف من يسهل عليها صيدهم، وذلك فقط لكي تبتزهم ماديًّا كما حدث معي فيما بعد..

بالطبع فشلت تجربة تديني تمامًا.. فمختار لم يسع إليّ أو يحاول متابعة محاولاته التي كان من السهل نجاحها، ونسي حتى أن يحضر لي الدروس التي طلبتها منه.. ورفاقي الفاسدون في خلال يومين فقط أجهزوا على كل المشاعر الجميلة التي جربتها وكنت أتمنى دوامها.. ولكن للحق كنا نفعل كل شيء إلا أمر الزنا هذا فلم يرد ضمن جدول أعمالنا.. فقد كان هناك حدًّا لم نفكر في تجاوزه

انتهت السنة الدراسية، وتم تعييني بوساطة أبي في أحد البنوك الشهيرة براتب رائع، وظننت أن حياتي تسير بمثالية حتى جاء ذلك اليوم.

طعام الإفطار كعادتي دومًا أطلبه من أحد مطاعم الوجبات السريعة، وأنا بين أعمالي في البنك، ويبدو أن وجبة هذا اليوم كانت ملوثة فبعد ساعتين فقط، وفي تمام العاشرة والنصف صباحًا داهمني مغص مفاجئ وقيء عنيف.. طبيب البنك قام بتحويلي لمستشفى قريب؛ فتم حقني بعقارين، ووصفوا لي بعض الأدوية مع الراحة لمدة يومين.. وبهذا عدت للبيت مبكرًا، وفي توقيت لم يحدث من قبل.. دخلت بمفاتيحي الخاصة دون طرق للباب لأجد الصدمة الكبرى والتي هي مرتسمة في مخيلتكم تمامًا..

إنها ليلى في أحضان رجل غريب يمارسان الرذيلة..

الذهول والانكسار، وكل ما يمكنك تخيله من مشاعر قاتلة افترستني في هذه اللحظة.. وليلى ليست زوجتي يا سادة..

لو كانت زوجتي لهان الأمر كثيرًا.. فمن السهل التخلص منها وإنهاء المشكلة.. وليست لديها تاريخًا عريضًا مقدسًا لا يمكنني الفكاك منه.. وليست لها عليّ حقوق لا تنفصم أبدًا..

نعم للأسف هي أمي..

هل حدث مرة أن سقطت أرضًا من فوق غصن شجرة ؟!

حدث معي ذت يوم، وأنا في مرحلة الطفولة.. كنت متعلقًا به، وأحاول الوصول لعش عصافير بأطرافه أفلتت يدي، وفجأة وفي أقل من اللحظة وجدت نفسي على الأرض متألمًا.. مدة السقوط هذه لا يمكنك أبدًا أن تدركها أو ترصد مشاعرك بها، ما حدث عندما رأيت ليلى في هذا المشهد كان أكثر من ذلك، شعرت كأنما كنت أسير في طريقي المعهود، وفجأة بلا مقدمات انشقت الأرض تحت قدمي هاويًا في بطنها بسرعة نحو ظلمتها وغموضها؛ ولكن دون أن أدري أو أدرك أو أرصد ما الذي يحدث..

لقد اهتز كياني، وأنا غير مصدق بالفعل بأن هذا مشهدًا حقيقيًا.

لذا فقد اندفعت خارجًا من الشقة هابطًا منها مسرعًا؛ ولكن لم تقو قدماي على حملي أكثر من طابق واحد.. فجلست بموضعي على السلم، وأنا أنتحب بشكل عجيب..

لم تمر دقيقة حتى اندفع الرجل بجواري مسرعًا؛ وقد ارتدي ملابسه الأنيقة، وبالطبع لم يُعرني انتباهًا، وأنا كذلك لم أتصرف معه بأي رد فعل.. ولم تخرج ليلى باحثةً عني وقتها..

ظللت مكاني منهارًا تمامًا.. الحياة كلها زائفة.. لا يوجد فيها شيء حقيقي، فبعد انهيار الأم لن تجد ما يشعرك بقيمتها أبدًا.

ظلت جلستي أكثر من ساعة، وقد نالت مني كل الوساوس وانتصرتْ علي كلُّ الشياطين.. بالطبع كان من الصعب العودة للمنزل، ورؤيتها في هذا الوقت مرةً أخرى.. لذا هبطتُ عازمًا الخروج.. ولكن وجدت تلك المرأة اللعوب امرأة البواب منحنية، وظهرها نحوي، وهي تفعل شيئًا ما بالطابق الأرضي، وعلى الفور استجبت للهاتف الذي صرخ بداخلي أنه يجب أن أنال من أي امرأة الآن، وهذه المنحنية أمامي هي الأقرب.. وكانت هذه أول مرة أقع في ذلك الذنب.. وقد استجابت هي مسرعةً لطلب الفريسة التي أتت لتلقي نفسها بين يديها.. كنت أفعلها انتقامًا ومتقززًا، ولم أجد فيها أي متعة، وبعد أن انتهيت شعرت كأني قد غصت طواعية في بالوعة مجاري، وسيطر عليَّ الندم بعدها.. ولكن لم تتركني هذه اللعينة، وحاصرتني

بمطالبها؛ وإلا فضحتني وبالطبع لم أكن لأتحمل الفضيحة المزدوجة.. وتكرر الأمر معها خمس مرات، وفي كل مرة كانت تحصل على ما تريد من أموال.. ولكن بعدها أصبحت تحصل على الإتاوة فلم أعد أتحملها..

تفاديت المواجهة مع أمي تمامًا، وانتقلت لشقتي المجهزة بنفس العمارة وحيدًا، وبالطبع فسخت خطبتي بمها زميلتي، وقد كنا على وشك إتمام الزفاف.. لماذا ؟!!

إذا كانت أطهر مخلوقة في عينيك قد تدنست فمن ستظن به النقاء بعد ذلك ؟!.. لم يعد بي حاجة للزواج ..

كان من الممكن أن ينتهي الأمر باشمئزازي من زوجة البواب، وعدم قدرتي على التفاعل معها.. ولكن إقامة عمرو ابن عمي بالعمارة تسببت في شرارة أيقظت النار في الرماد الذي كان على وشك السكون والخباء، عمرو مهندس بإحدي شركات البترول العالمية الكبيرة وراتبه كبيرٌ مقارنةً بي.. ولكن في المقابل كان يغيب عن بيته ما يقرب من شهر ونصف الشهر، وأسبوعين فقط يقضيهم كراحة وإجازة.. وكان مشتركًا في شبكة الإنترنت بسرعة فائقة، وبالطبع لم يمانع في مشاركتي معه بسرعة أكبر.. والتلقائي هو عدم علمي بتوقيت تواجده إلا إذا اتصل هو بي وحدثني.. ولم يحدث من قبل أن تعطلت خدمة الإنترنت لدينا حتى مجيء تلك الليلة.. كنت على وشك تحميل فيلمًا أمريكيًّا جديدًا بجودة عالية، ولكن الخدمة كانت

منقطعة.. حاولت الاتصال بعمرو؛ فكان جواله غير متاح.. كررت الاتصال على الرقم الأرضي ليجيبني بصفير عجيب.. فقررت النزول إليه، وكان ذلك في العاشرة مساءً.. طرقت جرس الباب وبعد هنيهة لمحت ظلاً يغطي الفتحة الصغيرة لتلك العين السحرية بأعلى الباب لثوان قليلة، ثم فُتح الباب، وكما توقعتَ أنت تمامًا.. كانت زوجته لوجي تلك الفتاة المرفهة التي تختال بجمالها وحسنها ومواصفاتها الرائعة، والتي تجعل لعاب من يراها يسيل أنهارًا.. ترددت وقلت لها:

– أين عمرو ؟!

فأفسحت مجال الدخول وقالت:

– تفضل يا باسم هل أنت غريب ؟!

دخلت ظنًّا مني بأن عمرو بالداخل.. جلست بغرفة الصالون الأنيقة والثمينة والمريحة جدًّا.. كان التلفاز ذو الشاشة الرفيعة وبالحجم السينمائي يعرض فيلمًا على قناة أجنبية مشفرة ذات اشتراك شهري باهظ.. ما إن رأيت بطل الفيلم حتى هتفت قائلاً:

– أنطوني هوبكنز !! وااو إنه نجمي المحبوب ما اسم هذا الفيلم فلم أره من قبل ؟..

جلست بجواري وهي تقول:

– لست أدري فقد فتحته للتو.. فلتكمل مشاهدته معي حتى ينتهي...

عدتُ بظهري للخلف، وقد أراحني عرضها، ولكن تذكرت عمرو فقلت لها مسرعًا:

– وأين عمرو ؟!

بضيق لمحته على محياها قالت:

– سيعود بعد خمسة وثلاثين يوما..

شعرت بالحرج، ولكن قتله بسرعة تبسطها معي وعرضها السابق لمشاهدة الفيلم.. ففضلت قول الأمر الأخير الذي قد يعطينا الفرصة للخروج من هذا الموقف وقلت لها:

– ماذا حدث لشبكة الانترنت ؟

فقالت بتملل:

– لست أدري لمَ توقفت حرارة التليفون الأرضي؟! مما تسبب بالطبع في فصل الخدمة.

تفهمت الآن كل شيء.. وعرفت سبب الصافرة العجيبة عندما حاولت الاتصال بها، وحتما عمرو في موقع لا تتوفر به شبكة للجوال الآن.. فقلت لها معطيًا إياها دفة الأمر:

– وأنت ماذا ستفعلين بدونه؟!...

ضحكت ضحكة قصيرة جذابة وقالت:

– سأشاهد معك الفيلم...

عدت بظهري للخلف، وقد حصلت على تصريح بالبقاء، ولكن لم يخطر ببالي ولو لوهلة أي أمر نحوها.. كانت صحبة عادية شاهدت الفيلم، وقضيت وقتًا مسليًّا رائعًا وتناقشنا طويلاً حول نهايته.. وأخيرًا عند انصرافي قالت:

– والله لقد هوَّنت علي الكثير يا باسم.. يبدو أني سأفصل عنك خدمة الإنترنت باستمرار...

ضحكت وقلت لها:

– إياك أن تفعليها..

قالت بجدية:

– القناة تعرض دومًا في هذا التوقيت فيلمًا جديدًا.. سيكون من الرائع مجيئك لمشاهدته معي.

وبالطبع كانت موافقتي السريعة.. وتكررت الزيارات وتخففت هي كثيرًا في الكلام؛ فقد كانت تلك القناة تعرض الأفلام بمشاهدها الكاملة، والتي كانت تحوي الكثير من العري التام، وطالت تحليلاتنا العبقرية لأحداث الأفلام بما فيها تفاصيل تلك المشاهد الجنسية الصريحة.. وأنت تدري التطور الطبيعي فقد تبعه التخفف كذلك من الملابس وقضي الأمر.. وقد رأيت فيها ليلى.. كنت أتلمس العذر لزوجة البواب التي تبغي مالاً.. فماذا كان ينقص ليلى ولوجي ؟!

أصبح يقينًا لدي بأن المتزوجات كلهن عاهرات..

وأصبح الأمر لدي حرفة وغاية وهو أن أنال منهن..

ونجحت في محاولات كثيرة.. مرة مع زميلة بالبنك زوجها تزوج بأخرى؛ لأن عينه زائغة كما تقول.. كأن هي التي عينها قريرة آمنة مطمئنة !!.. كانت معي بسيارتي متجهين لفرع آخر للبنك، وبينما نمر على عمارتي أشرت لها بأن سكني هنا.. وأعطتني هي الإشارة عندما قالت:

– يالك من بخيل هل ستمر هكذا على بيتك دون أن تسقيني شيئا ؟!

وبالطبع أنا أرفض أن أتصف بالبخل؛ فقد ركنت سيارتي وصعدت بها لشقتي لأمنحها عصيرًا وأشياءً أخرى !

عميلة بالبنك متزوجة بعجوز ثري؛ وهي الصغيرة المتفجرة بالأنوثة والحيوية كانت تنهي إجراءات سلفة شراء سيارة باهظة الثمن وكنت أنا المتعامل معها.. كانت في كل مرة تنسى أو تتناسى شيئًا من مسوغات الموافقة على هذه السلفة.. وبالطبع صدرت الإشارة بحركاتها وتعمدها الانثناء أمامي أكثر من مرة بلا داعٍ لتظهر ما أود رؤيته.. وعلى الفور استجبت لندائها، ومنحتها رقم جوالي لتتصل بي مساءً لأذكرها بما نحن في حاجة إليه، ومنحتني رقمها بكل يسر، وهي تقول بأني يمكنني مهاتفتها في أي وقت.. وقد اتصلت بها مرارًا وتكرارًا على مدار أسبوع كامل مناديًا لها لصحبة لا تنساها ولا تنسى بعدها تلك المسوغات أبدًا وقد كان.

وهكذا أصبحت أنتظر الإشارة أو المفتاح الذي يشير إلى الموافقة أو الاستعداد للسير في هذا الطريق..

وأصبح ظني اليقيني بأنه لا توجد إمرأة نظيفة على وجه الأرض.. كلهن ينتظرن الفرصة المناسبة فقط..

حتى ظهرت تلك الفتاة والتي وياللعجب لا أعرف اسمها حتى الآن لتقلب كل موازين حياتي بعنف، وبشكل لم أتخيله !!..

ظهرت في حياتي بعد أن تخطيت مرحلة انتظار الإشارة إلى الاقتحام، وكسر الخصم، وكم من ضحية لم يخطر ببالها ذلك الأمر نافستُ كل أبالسة الجحيم في إغوائها وجرّها إلى مستنقع الرذيلة، وما إن تنغمس فيه حتى الثمالة أتركها؛ وقد وضعت قدميها على طريق الانحراف والخيانة..، ولكن دومًا كنت أتخير ضحيتي ممن أجد لديها الاستعداد، وتنتظر فقط من يطرق بابها بالشكل السليم؛ حتى تفتح له.. تركت الكثير من الضحايا، وطعنت العديد من الأزواج ولوثت عددًا لا بأس به من بنات حواء من ربات البيوت الآمنات المطمئنات.

وجاء ذلك اليوم.. كنت متوقفًا بسيارتي عصرًا أمام واحد من تلك المجمعات التجارية الكبرى أنتظر انتهاء أحد أصدقائي من مهمته بالداخل من تسوق وتبضع.. كان قد اتصل بي، وطلب مني أن أمر عليه لحمله معي؛ لأن سيارته في التوكيل للصيانة، ومعه الكثير من المشتريات.. ركنت السيارة جانبًا، واتصلت به لأخبره بأني منتظر له بجانب اللافتة الرئيسية لمتجر مجاور تجاه اليمين.. وجلست أعبث بجوالي قليلاً وأنا أختلس النظر كل حين تجاه بوابة المجمع التجاري.. ورأيتها..

لو أملك تقنية عرض فيديو أمامكم الآن لترو المشهد الذي ما زال مرتسمًا في مخيلتي وملتصقا بها.. ستجدون فجأة كل المباني والطرقات قد اختفت تمامًا، ولا يوجد سواها خارجة بتمهل، وتسير فوق السحاب وكل ما يحيط

بها إنما هي كثبان سماوية تتفاوت بين اللونين الأبيض والأزرق في بهاء لم أره من قبل.. سارت فقط ثلاث خطوات بعد خروجها من باب المجمع كانت أمامي كأنما قد انطلقت بضع كيلو مترات، وتوقفت لتنظر في ساعتها وتتلفت يمينًا ويسارًا.. ياللحظ الجميل إنها تنتظر أحدهم..

وعلى الفور وكماسح ضوئي عالي الكفاءة والجودة بدأت في تفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها..

حجابها الثقيل يغطي رأسها تماما بإحكام لم تفلت منه شعرة واحدة، وينال بضع سنتيمترات من جبهتها، ويخفي تمامًا معالم رأسها الداخلية بما فيها لفة أو تجميع شعرها أسفله.. ويمر أمام أذنيها بمسافة لا بأس بها وبالكاد ترك نصف ذقنها الدقيق والمميز بدقة ساحرة في منتصفه.. وقامت بدس بقايا الحجاب أسفل معطفها السميك الذي يحيط بها ما عدا المنطقة الأمامية.. التي تظهر ردائها المنسدل باتساع أجاد في إخفاء كل المعالم والتضاريس التي كنت أنقب عنها.. فقد تموهت تمامًا منطقة الصدر وحتى آخر قدميها لم يكن هناك حدًّا واحدًا يظهر معلمًا مجسدًا لها.. والأكثر من ذلك كانت ترتدي منظارًا سميكًا وكبيرًا أسودًا أخفى ثلث وجهها..

ما الجديد وما الذي شدني إليها هكذا حتى أن الزمن توقف بمجرد رؤيتها ؟!..

رغم أني رأيت الكثيرات الفاتنات منهن والساحرات.. إلا أن هذا الشموخ العجيب الذي كانت تسير به ووقفتها الدقيقة وحركاتها البسيطة التي يسمونها لغة الجسد كانت توحي بأني أرى أميرة من بلاد السحر والعجائب.. ألقي في روعي بأنها متفردة متألقة رغم عدم ظهور أي تفصيلة جسدية تجذبني لها.. ما إن قمت بوظيفة الآشعة المقطعية التي تفحص الجسد مقاطع رأسية وأفقية من أعلاه لأسفله فحصًا دقيقًا.. نالت مني خيبة الرجاء.. فليس بها إشارة واحدة بأنها يمكن هتك أستارها أو الولوج إلى نطاقها المحرم والمقدس، والذي شعرت به دون وجود لافتة تشير إليه.. وقبل أن أذهب ببصري بعيدًا، وقد عاد إلي خاسئًا وهو حسير.. إذا بطرف عيني ومع نسمة هواء خفيفة هبت لمحت الإشارة لمدة ربع الثانية.. فاتسعت ابتسامتي وانشرحت أساريري وقد لمعت شارة التحدي وتألقت.. إنها المباراة الكبرى الآن.. لن تقر لي عين إلا وقد نلت منها.. وقد كانت تلك الإشارة شيئًا لا ذكر له، ولكن بالنسبة لي؛ وقد أصبحت خبيرًا لا يشق له غبار كانت كافيةً جدًّا.. قد أعاني كثيرًا وأصبر طويلاً وأكافح دهرًا.. ولكن سأفوز.. فلم تكن سوى دهانًا أحمرًا لظفر إصبع قدمها الكبير لمحته، وقد هبت نسمة ذهبت بطرف ثوبها قليلاً لتكشف لي هذا الموضع من فتحة حذائها الأمامية..

وقبل أن أعود لدراسة ميدانية جديدة فاحصة لها إذا بسيارة ضخمة سوداء اللون لامعة بقوة تقف أمامها، وبحاجبيها الدقيقين المزمومين رأيت أمارات

التأفف والضيق عليها، وهي تضع ما معها بالكراسي الخلفية للسيارة، وتستقلها بجوار السائق مما يعني أنه رفيقها؛ والذي غالبًا زوجها، وبهذا قد اكتملت أركان الفريسة المثالية بالنسبة لي؛ وهي أنها متزوجة وصعبة المنال ويوجد الإشارة المطلوبة، حاولت بسرعة رؤية وجه هذا الزوج في مرآته ولكن فشلت، وما رأيته فقط ذراعًا غليظةً تلوح نحوها علوًّا وهبوطًا مما يعني بأنه يصيح فيها أو يتشاجر معها، ولم ألمح منها أي رد فعل من زاوية جلوسي هذه؛ ولكن حتمًا كان وجهها يشتعل غضبًا وغيظًا من هذا الحيوان المرافق لها، والذي لا يعطيها قدرها ولا ينزلها منزلتها.. ولكن..

أنا لا أريد أكثر من هذا.. لقد قصّر لي المسافات وهون علي الأمر كثيرًا.. فكلما كان الزوج على غير وفاق مع زوجته.. كلما دفع بها خطوة بعيدًا خارج مجاله.. وأنا هنا منتظرًا بمجالي المغناطيسي الجاذب بقوة لمثل تلك الحالات.

انطلق بسيارته وبالطبع كنت منسابًا خلفه، ولمحت في مرآتي صديقي، وقد خرج، وأخذ يتقافز، ويصيح ملوحًا ومناديًا عليّ.. ولكن معذرةً صديقي يمكنك التصرف بدوني؛ أما أنا فلا يمكنني تفويت ما بين يدي، لم تتوقف حركات تلك الذراع اليمنى الشبيهة بفخذ حمار من التحرك في عصبية حركات لا نهاية لها كأن صاحبه يعاني من مرض عصبي عضال يجعله لا

يتمكن من توقيفها.. رائع أيها الغر استمر في تمهيد الطريق لي.. فالمرأة في مجتمعاتنا يقهرها رجل ليتلاعب بها الآخر فنصمها بأنها إنما ولدت عاهرة.

واندفعت بذاكرتي إلى مشهد لا يمكنني نسيانه.. كان منزوٍ في ركن مظلم مُهمل بذاكرتي ولكن آن موعد استرجاعه وتسليط الضوء عليه..

كانت هي متألقة بثوبها المخملي الأحمر الصارخ بكل هتافات الإغراء، أتقنت توزيع إضاءة شقتها بألوان مختلفة ودرجات متنوعة؛ كأنما قد درست فنون الإضاءة المسرحية، وتخصصت فيه بما أعطي للشقة رونقًا خاصًّا.. وعبر السماعات المنتشرة في زوايا الشقة كأنما هي صالة انتظار أحد المطارات غرد مطربها المحبوب بصوته الرومانسي الساحر بأغنيتها التي لا تمل سماعها، والتي تقفز بها وبمشاعرها إلى أعلى درجات الشجن.. وعلى مائدة صغيرة ذات مقعدين فقط أعدت له أصناف الطعام التي يشتهيها وبمذاق حتما لن ينساه، وإن كانت رائحته فقط كافية لتدير رأسه.. لقد تعبت كثيرًا وبذلت أقصى ما لديها، وكأنما هي في صراع مصيري يجب أن تأتي فيه بكل ملكاتها.. وأخذت عقارب الساعة تلدغها، وتقتل بداخلها درجات السعادة والنشوة رويدًا رويدًا.. وقامت بتسخين الطعام بجهاز الميكروويف، وإعادة تنسيقه على المائدة عدة مرات، وقد طال المغيب وزاد التأخير.. حاولت أن تناشده بالإسراع عبر جواله، ولكن قام بإلغاء محاولاتها.. فانشرحت أساريرها ظنًّا بأن هذا يعني اقتراب فرحتها برؤية

معالم وجهه.. ولكن طال انتظارها لنصف ساعة أخرى، ارتدت معطفًا سميكًا فوق ملبسها الرقيق، وخرجت لشرفتها مترقبةً له، وما إن أغشاها ضوء مصباحي سيارته حتى أشعلا بداخلها الجذوة التي كادت أن تخبو فدخلت مسرعة تسابق الريح لتتهيأ، وتهييء له المشهد الساحر الذي تتمنى أن يقفز بسعادته درجة واحدة تكفيها..

عشر دقائق حتى سمعت صرير باب الشقة، فانسابت نحوه، وهي تكاد أن تطير، وبسمة ملائكية تنير وجهها، وفتحت ذراعيها مرحبةً به ومقبلةً نحوه.. ولكن..بوجهه القاتم الكئيب، وبتعرج جبهته العنيف، وبصوته الخشن المشروخ قال لها بعنف:

– إليك عني يا ليلى؛ فأنا متعب جدًّا لقد عشت يومًا أسودًا..

هبط ذراعاها بألم وحسرة، ولكن الأمل لم ينزو من صدرها؛ فقالت له والبسمة قد أصبحت مصارعة للموت على شفتيها..

– كان الله في عونك، هون عليك، وانس تعبك بالخارج لتنعم بالهدوء والراحة معنا، لقد أعددت لك طعامًا....

ولكن قاطعها بصوته القميء قائلاً بنفس اللهجة القاسية الغليظة :

– لقد تناولت طعامي بالخارج.

أصبحت بسمتها شاحبة تنازع أنفاسها الأخيرة، والأمل يترنح ذبيحًا وقالت له:

– لا عليك لقد أعددت لك الحمّام لتنتعش قليلاً بعد اغتسالك بالماء الدافئ..

وغمزت بعينها وهي تقول:

– وسوف أعوضك عن كل متاعب الدنيا..

صرخ فيها قائلاً:

– أقول لك يومًا أسودًا وأنت لا يشغل بالك إلا هذا.. سحقًا لك ولتفاهتك.

وتركها منطلقًا نحو غرفة نومه، وقد تم دفن البهجة والأمل سويًّا في مقبرة واحدة من اليأس والإحباط..

همت بالدخول خلفه، ولكن استقبلها صياحه وصراخه ونهيقه، وهو يقول:

– أين بيجامتي الزرقاء قلت لك لا أحب النوم إلا بها.. من قال لك أن تخرجي لي الحمراء أيتها الغبية المأفونة..

بصمت تام وبقلب ممزق وبيد كسيحة ألقت له ما يريد، واستلقت على ظهرها.. وارتمي هو بجانبها مصدرًا ظهره لها

فأغمضت عينيها في ألم، وبعد هنيهة ومن بين دمعتين مترقرقتين في مقلتيها قالت له:

– كل عام وأنت بخير بمناسبة عيد زواجنا...

فرد عليها بشخيره المتصل الذي يضج مضاجع الموتي، وقد ذهب في سبات عميق..

بالطبع شهدت فقط المقطع الأخير، وهي تندفع نحوه حين دخوله؛ فقد استيقظت من نومي، وكنت ذاهبًا إلى الحمام، وأردت استكشاف سر هذه الأغاني الهادئة التي تنساب بالشقة مع الإضاءة المتدرجة بشكل لم أره من قبل، ولا أدري من أين يأتي ذلك العبير الذي أنعش أنفي برائحته.. ولكن الصراع الذي دار جعلهما لا ينتبهان لي، وكنت وقتها في الإعدادية، وتفهمت أن ذلك أمرًا عاديًا فقد كنت أظن بأن دور الزوج الرئيسي هو أن يتخذ الزوجة أمةً له يمكنه إهانتها في كل وقت، ومن الخطأ أن يرضى عنها يومًا أو يُسمعها كلمةً طيبةً حتى لا تتمرد عليه !!

الآن فهمت يا ليلى ما دفعك للخروج من المجال الطاهر إلى جذب الشياطين والأبالسة لك.. ولكن بالطبع ليس هذا بعذر أبدًا .

سرت خلفهم رحلة طويلة حتى أحد الأحياء الحديثة بالقاهرة الجديدة، ودخل بسيارته إلى أحد المجمعات السكنية؛ والتي لا يمكنني ولوجها طالما لا أملك وحدة بها إلا بعد الاتصال بأصحاب الزيارة، وأخذ الإذن منهم مع تسجيل بياناتي كاملة..

توقفت قليلاً مفكرًا هل يكفي علمي أين سيتم نصب شباكي وفقط ؟!.. لا.. يجب أن أستكمل معلوماتي.. ولهذا ركنت سيارتي جانبًا، وذهبت إلى العامل على بوابة المجمع، وحاولت منحه سيجارة فخمة حتمًا سيسر بها.. ولكن رد يدي قائلاً:

- شكرا يا أستاذ.. لا أدخن.. حضرتك تأمرنا بأي شيء ؟

بمنتهى الغموض وبصوت عميق قلت له:

- معك الرائد باسم من مباحث أمن الدولة، انتفض الشاب النحيل، وغارت عيناه أكثر مما هما عليه من غوص في جمجمته الحادة، وقال بصوت مرتبك:

- أمرك يا باشا ؟

أشعلت السيجارة التي رفضها سحبت نفسًا ببطء نافسًا دخانه بوجهه، وحاول المسكين أن يقاوم الاختناق بفشل دفعه للسعال فلم أشأ التمادي وقلت له:

– السيارة التي دخلت حالاً أريد كل ما يتعلق بها من بيانات..

بحروف تلاحق بعضها بعضًا قال الشاب المسكين:

– أقسم بالله لك يا باشا لا أعرف عنها شيئًا؛ فهم هنا منذ شهر واحد بمبنى ب.

تصنعت الغموض أكثر بسحب نفسين طويلين وقلت له:

– فلتذهب حالا، وتأتيني برقم الشقة والتليفون من دفاترك

ارتبك وحاول قول شيء ما، ولكن قتل نصف الحرف الأول، وانطلق مسرعًا كأنما يطارده مارد، ظل بالكشك الصغير المتاخم للبوابة يفعل شيئًا ما، ثم عاد مسرعًا بوريقة صغيرة ليمدها نحوي قائلاً بلهاث منفعل:

– هذه يا باشا كل البيانات.

تناولت منه الورقة ودسستها بجيبي دون أن أفتحها، ثم قلت له بصوت جاف:

– لو علم مخلوق بما طلبته منك أو بوقفتي معك.. ستذهب خلف الشمس.

رفع يده بتحية عسكرية هزلية وهو يقول:

– أقسم لك بالله لن أخبر حتى رفاقي.

ابتسمت وانطلقت بسيارتي، ومخي يشعل كل تروسه حركة ونشاطا في إعداد الخطة الكبرى للفوز بتلك الغنيمة.

خططي كلها دومًا ترتكز على مبدأين، الصبر والإلحاح، فالصبر على الفريسة أطول مدى ممكن يمنحني الوقت اللازم لحسن التصرف، وتعديل ما يستوجب التعديل أثناء رحلة الصيد، وصاحب النفس الطويل هو الفائز في جميع المجالات حتى في مجال الاقتصاد، وربما السياسة كذلك، أنجح الخطط وأمضاها التي يتم بناؤها على أن يكون أثرها بعد خمسين عامًا أو أكثر، أما المتعجلون لجني الثمار فسريعًا ما يتعثرون وينال منهم اليأس، ومع أول موجة فشل يستسلمون، وعن الإلحاح فله مفعول السحر، عندما تطرح فكرة قد تبدو حينها جنونية ومستحيلة وغير مقبولة منطقا ولا عقلاً؛ ولكن مع كثرة التكرار والتناول لها تبدأ عملية الرفض في الوهن، وقد تدخل حيز التفكير بعد أن كانت مرفوضة بلا ذرة مناقشة؛ ولهذا كلما كان الهدف

عظيما كلما تسلحت بهذين السلاحين الماضيين حتى أفوز بالجائزة الكبرى.

ولذا قررت أن المرحلة الأولى مع هذه المتألقة تتطلب التعارف فقط، ويجب أن يتم بطريقة تلقائية وبسيطة لا تتحمل الرفض، معي رقم الهاتف الأرضي، وحتمًا زوجها لا يتواجد فترة الصباح بالمنزل، ويبدو من الدلال الظاهر عليها أنها لا تعمل؛ وبالتالي الاتصال في هذه الفترة يضمن لي سماع صوتها وبداية الرحلة، اتصلت في تمام العاشرة وأنا بالبنك من جوالي لأجد صوتا ناعسًا رقيقًا يفوح بكل إغراء يقول:

– ألوو...

فقلت بمرح؛ وكأني أحدث صديقًا عزيزًا.وأعرف صوته:

– صباح الخير يا مها أما زلت تغطين في نومك العميق هيا انهضى حتى لا تتأخرين.

غادرت نغمة النعاس صوتها وهي تقول بجمود:

– من تريد ومن أنت ؟

قلت وأنا أتصنع التردد:

– أنا باسم يا مها !

وبجمود أكبر مغلف بالصرامة قالت:

– الرقم خاطئ..

تيييييييت...

وكان ذلك صوت الصفير دلالة أنها أغلقت الخط، وقطعت الاتصال.

من الواضح أن الصيد ليس فقط بالصعوبة التي توقعتها إنه يتعدى ذلك كثيرًا، لماذا لم تتلطف في حوارها ؟

قد يكون ذلك لأني أيقظتها من نومها ونزعتها من لذته وخدره فأجمل وأروع مراحل النوم تلك التي تسبق الاستيقاظ، وخاصة إذا كان ذلك رغمًا عنك، حسنًا معنا الوقت اللازم، وهو أبد الدهر، ولذا بعد ثلاثة أيام كررت المحاولة، واتصلت بها وقت الظهيرة، والتي حتمًا هي مستيقظة تمامًا، ومن المؤكد أنها لن تكون منهمكة في أعمال البيت؛ فأمثالها لديهم الخدم الذين يقومون بكل ما تُثقل به ربات البيوت العاديات، ستكون في مثل هذا التوقيت منشغلة بتقليم أظافرها غالبًا، وبالتالي ربما أزيد من تسليتها بمكالمتي هذه، توقعت أن يطول الحوار هذه المرة لذا أعددت الحجة التي يجب أن تكون منطقية لخطأ الاتصال بها مرة أخرى، فكتبت الرقم بجواري

وبدلت فقط رقمين كلا منهما موضع الآخر؛ حتى أبرر لها بأني إنما كنت أريد الاتصال بهذا الرقم، وخطأ التبديل هو ما دفعني إليها، طلبت الرقم لترد بصوت خالٍ من جميع التعبيرات قائلة:

- السلام عليكم..

فقلت مازحا وبقهقهة مصطنعة:

- وعليكم السلام يا مولاتنا.. ما هذا التدين الذي هبط عليك فجأة من السماء ؟!

فقالت بنفس الصرامة التي ردت بها في المرة السابقة:

- من معي ومن تريد ؟!

فقلت بنفس التردد:

- أنا باسم يا مها..

فردت بتنهد قائلةً:

- هذه المرة الثانية التي تخطئ بها وتتصل بنا، ليتك قمت بتسجيل الرقم بجوالك؛ حتى لا يحدث هذا الخطأ مرة ثانية.

كسرت وضيعت كل ما كنت معدًا له، صرامتها ورفضها في المرة السابقة لم يكن بسبب النوم، وإفسادي له إنه مبدأها وطبعها، الفريسة بالفعل صعبة المنال؛ ولكن لن أيأس ومحاولاتي لن تنتهي.

فقلت لها:

– أعتذر جدًّا فأنا..

وقبل أن أتم جملتي كان الخط قد صدمني بصفيره المتصل، سحقًا لم يحدث هذا معي من قبل، كان ذلك كفيلاً بصرف انتباهي ورغبتي فيها تمامًا، ولكن العناد وروح التحدي بداخلي دفعتني لأن أنال منها مهما كلفني الأمر، لا توجد إمرأة واحدة نظيفة ونقية أبدًا، سأظل خلفها حتى لو طال الأمر سنين عدة، إن كانت قوية الآن فحتمًا سينال منها الضعف يومًا ما فرفيقها الخرتيتي هذا إن تحملته عاما لن تتحمله الآخر، وأنا هنا على الجانب الآخر مترقب لها، وبعد أسبوعين، وفي توقيت يسبق توقيت عودة زوجها حين تبعتهما اتصلت، وقبل أن ترد هي وبصوت باكٍ قلت لها بسرعة:

– أعلم بأن هذا ليس رقم مها؛ فقد عملت بنصيحتك وسجلته لدي، ولكن أنا في مصيبة ومشكلة كبرى، وأريد فقط من يستمع لي أرجوك فقط استمعي لي ولا تردي المهم أن أفرغ الشحنة المدمرة التي تعتمل بصدري.

طال صمتها حتى ظننت بأني أخطأت التوقيت، وحتمًا هذا هو زوجها، ولكن يبدو أنها كانت تنتظر مني السرد، ولما طال صمتي أنا، و بصوت عادي منزوع الصرامة والجمود؛ ولكن لا يحمل الشفقة التي توقعتها قالت:

– أنا منصتة لك.

فرحة لا مثيل لها نالت مني لمجرد ردها هذا، شعرت كأني قد ظفرت فعلاً بها، لقد تحطمت أول صخرة في القلعة الشمّاء التي تتحصن بها حاولت كتمان لهجة الفرحة من كلماتي، وقررت أن أقص عليها شيئًا حقيقيًا، ولكن مع بعض التعديلات التي تتناسب مع تفكيرها هي حتى تتقبلها؛ فكلما كانت القصة التي تقصها وتبتكرها لخداع الضحية مرتبطة بشيء حقيقي كلما قلت نسبة أخطائك في المستقبل؛ وهذا لأنك تعمل للمستقبل البعيد، وحتما ستعود لتفاصيل صغيرة ودقيقة تتعلق بهذه القصة؛ فقلت لها:

– تركت بيتي بسبب أمي التي كنت أظنها ملاكًا، واتضح لي بأنها شيطان مريد، كيف تتعاملين مع أمٍ سارقةٍ، وتحترف السرقة في الخفاء رغم عدم حاجتها لها، وليست مريضة بأي أمراض نفسية، أكاد أن أموت بعد رؤية أكبر قدوة لي في حياتي تتحطم، وتندثر أسفل كومة من القاذورات، أرى الحياة الآن لا قيمة لها.

سكتُّ وطال صمتي بعد نشيج مصطنع؛ فقالت لي بصوت هاديء كأنه صوت حكيم يبلغ من العمر أرذله أو أحد الكهنة الكبار:

– لماذا لم تواجهها فقد يكون ما رأيت أو علمت خطأً أو صورةً لم تفهمها أنت على وجهها السليم، أو قد تكون هي الغلطة الوحيدة التي إن أغلظنا عليها دفعناها للسير في هذا الطريق، وإن أحسنَّا التصرف انتزعناها قبل فوات الأوان فكل ابن آدم خطّاء.

ردها هذا قذف بحجر رشيد إلى منتصف رأسي ليشجها نصفين، ثم أتبعها بصب ماء بارد يقارب التجمد عليه.

كنت أصطنع قصة؛ ولكنها ردت بما هو مفترض عليَّ أن أقوم به بالفعل، ونسيتُ تمامًا هدفي وقلت مدافعًا:

– إنها أمي المفترض أنها لا تخطئ، فهي التي علمتني كل شيء صواب، وزرعت بداخلي كل المبادئ التي تربيت عليها؛ فحتى لو أجرمت كيف يكون بمثل هذه البشاعة ؟!

مجرد إقدامها على هذه الخطيئة ينزع منها كل الحقوق التي هي متوجبة عليّ فلم يعد المجال يتحمل النقاش.

بنفس الهدوء الذي لا أدري كيف أحببته، وأصبحت استمتع برنته في أذني قالت:

– لست أعظم من الخالق عز وجل حين قال يا ابن آدم لو جئت بملء الأرض ذنوبًا، ثم استغفرتني لغفرت لك.

للمرة الثانية طارت رقبتي تحت حد مقصلتها القاطعة بمنطقها البسيط والحاضر، هذه المرة كانت الطعنة موجهة لي أنا لم أفكر يومًا بالعودة من الطريق الذي كنت أسير به، وكلما مشيت به خطوة كان يتعمق بداخلي اليأس من الخروج منه، وأنه لم يعد لي سوى المضي قدمًا به، لم يخطر ببالي يومًا هذه الجملة البسيطة التي قالتها بأن الله عز وجل يعدنا بأننا مهما ارتكبتنا من خطايا، ثم استغفرناه بصدق سيغفر لنا !! لم يرد بذهني أبدًا حل الاستغفار هذا، هل الأمر بهذه البساطة مجرد الاستغفار وفقط ؟! ياله من سبيل هين فلمَ كنت محاطًا بجدرٍ وسدودٍ نزعت مني مجرد التفكير في هذا؟!...

شعرت بصداع غريب يطرق جانب رأسي الأيمن، وخفتُ أن تزيد في الطعن، والنيل مني، فأغلقت الخط دون رد، وعدت بمقعد سيارتي للخلف، وأنا مستلق عليه عاقدًا يدي خلف رأسي مغمضًا عينيّ بقوة، وأخذت أفكر هل يعقل أني أخطأت التصرف مع ليلى ؟!..

لم يكن هناك مجال للخطأ لقد رأيتها في أحضان الرجل وهما شبه عاريين؛ فما الشك الذي يحتمله هذا المشهد ؟!

وفي أي أمر قد أناقشها ؟!

حتى لو كانت غلطتها الأولى؛ فهي جريمة لا تغتفر، والمرة الأولى فيها مثل الألف كيف تقبل بذلك ؟!

مجرد القبول في حد ذاته جريمة فما بالك بالشروع فيه، بدأ يتوارد لذهني مشهدها في المرات القليلة التي رأيتها فيها قدرًا بعد هذه الحادثة في كل هذه السنوات الماضية، على نقيض مشهدها الدائم، ورؤيتها السابقة كانت منكسرة وعيناها لا تستطيع التطلع نحوي، ولمحت ذات مرة بريق واهن لدمعة ربما كانت تترقرق بعينها اليمنى، هذا حتمًا شعور بالذنب، فهل يمكن أن يكون تصرفي دفعًا للإصرار على هذا الذنب، وكان الواجب علي أن أحسن التصرف بغير ما فعلت ؟!...

أخطاء الزوج مع زوجته قد تدفعها لهذا الطريق، فهل يكون خطأ الابن معها كذلك دافعًا لها للاستمرار والإصرار عليه ؟!

وإذا بصوت آذان المغرب يصم أذني؛ فقد كنت متوقفًا بجوار أحد المساجد، كيف مرَّ الوقت عليّ هنا بهذه السرعة هممت أن أدير موتور سيارتي؛ لأنطلق ولكن كلمة " الله أكبر " المتكررة شعرت بها كمطرقة تدق

رأسي، وتزيد من الصداع الذي امتد ليشملها كلها، ولست أدري كيف تذكرت المرة الوحيدة التي صليت فيها بالمسجد عقب زيارة مختار لي قديمًا، الراحة النفسية والهدوء اللذان نلتهما وقتها أراهما الآن خير علاج لي؛ لذا بشكل تلقائي دخلت متوضئا، وبمجرد أن مس الماء وجهي بدأت البراكين المشتعلة بداخلي تخفت حرارتها القاتلة، وبينما أنا في الصلاة خرجت من حدود هذا العالم لأتذكر ليلى، واسترجع هذا اليوم الخاص جدا في حياتي:

غرفة مكتب أبي غرفة خاصة جدًّا، ومنطقة محرمة غير مسموح لي بدخولها في ذلك الحين عندما كنت أدرس بالمرحلة الثانوية، وليلى فقط مسموح لها بالدخول لتنظيفها، الغرفة تحوي مكتبًا ضخمًا أنيقًا باهظ الثمن ومكتبة تغص بالكتب الكثيرة والضخمة، والتي لم أره يومًا يتصفح أحدها، ربما كانت هذه المكتبة من أجل الوجاهة فقط أمام أصدقائه الذين لا يستقبلهم إلا بها، وفي أحد أركانها كانت توجد مزهرية ضخمة يبلغ طولها حوالي مترًا ونصف المتر مزينة باللونين الأزرق والأبيض في مشهد أخاذ، ونقوشها البارزة دقيقة بطريقة تجعلك تتساءل كثيرًا كيف صبر عليها صانعها، ويقوم أبي بتغيير الزهور الصناعية التي يضعها بأعلاها بمعدل كل عدة أشهر لست أدري ما سر ارتباط أبي بهذه المزهرية التي جاءت إلينا مشحونة عقب عودته من رحلة لإحدى الدول الشرق آسيوية، كنت أستشعر كأن فيها سحرًا خاصًّا لا يعلمه سواه، فكم حذَّر ليلى من الاقتراب منها أو حتى لمسها،

وهو فقط من يقوم بتنظيفها، ومحو الأتربة العالقة بها بمنتهى الحنان والصبر، في هذه الفترة كنت أمتثل للتنبيهات والأوامر التي تصدر إليّ، ولكن في أحد الأيام كنت وحدي بالمنزل، وخرجت ليلى لبعض شأنها، وأبي كالعادة في أعماله التي تستغرق ليله ونهاره إلا مواعيد نومه فقط، واتصل بي سامي صديقي قائلاً:

– ولد يا بيسو أحضر مائة جنيه، وتعالى الآن وبسرعة وإلا سيفوتك فرصة لن تنالها مرة أخرى.. أنتظرك أمام منزلي بعد ربع الساعة.

حاولت منه معرفة ما هذا الشيء؛ ولكن الوغد لم يصرح به مما أشعل فضولي وبقوة، وأوقد رغبتي في مشاركة هذا المجهول الذي حتمًا يستحق كل هذه اللهفة في صوته، ارتديت ثيابي مسرعًا، ولكن اكتشفت خواء جيوبي من الأموال تمامًا، أسقط في يديّ.. هذه الفرصة الغامضة لا يمكن أن أضيعها فماذا أفعل ؟!

تذكرت قول أبي لليلى مرارًا بأنه يترك لها مبلغًا للطوارئ بدرج مكتبه، حسنًا لن تمانع ليلى حينما أخبرها بأني قد أخذت هذه المائة لطارئ لا يمكن تأجيله، وبالطبع لن تسألني كعادتها عن هذا الطارئ، فتحت غرفة المكتب الغامضة وخافتة الإضاءة، وكان أبرز ما بها تلك المزهرية السحرية التي شعرت بها تتوهج كأنما تخاطبني وتقول لي:

– سأخبر أباك...

وفي ذهني أخرجت لها لساني غير مبالٍ، وتوجهت لدرج المكتب، وكما توقعت وجدت رزمة الأموال من فئة المائة؛ فسحبت اثنتين، واستدرتُ عازمًا الخروج، ولكن لست أدري كيف فقدتُ توازني، وكدتُ أن أقع، ولم أجد ما أستند عليه في اتجاه سقوطي سوى تلك المزهرية اللعينة، فارتكنت إليها مرغمًا، وبدلاً من أن أهوى وحدي سقطنا سويًّا لترتطم بالجدار الذي تبتعد عنه مسافة نصف المتر، وبالطبع تحطمت بسبب ثقل جسدي وقوة الاندفاع إلى عشرات القطع، أُسْقِطَ في يديّ، فهذه اللعينة نجحت في وعدها بإخبار أبي، وياليتها اكتفت بسر دخولي للمكتب؛ ولكن بجريمة تحطيمها كذلك !

قبل أن أفيق أو أبدأ التفكير في كيفية الخروج من هذه الأزمة الطاحنة إذا بليلى تقف بباب المكتب شاهقة وفزعة ومتسعة العينين؛ كأنما هي التي قد حطمتها وصرخت في قائلةً:

– ماذا فعلت أيها البائس ؟!

ولكن لمحت عيناها مالم أنتبه له أنا، وهي الدماء النازفة من يدي اليمني جرَّاء استنادي على إحدى شظايا تلك المزهرية القاتلة؛ فاندفعت بسرعة لتمسك بيدي متفحصة إياها، وباحثةً عن مدى عمق جراحي، وقد تبخر أثر

جريمتي من ذهنها، وبينما هي تفعل اكتمل وعد المزهرية السحرية لي فقد اتسعت عيناي فزعًا، وعدت للخلف بخوف، وأنا اتطلع لما وراء ليلى مما دفعها للنظر خلفها لتجد أبي واقفا في موعد من النادر جدًّا أن يتواجد فيه بالمنزل، كان الشرر المتطاير من عينيه كفيلاً بإخبارنا بكل ما يعتمل به، بالطبع علت الصيحات والشتائم، واندفع لينال مني؛ ولكن وقفت ليلى بيني وبينه، وصرخت فيه قائلةً:

- أنا السبب فقد طلبت منه تنظيفها.

وبلا أدني شفقة وبصوته الهادر قال لها:

- حسنًا فأنتِ من تستحقين العقوبة إذاً.

وانهال عليها ضربًا وتعذيبًا لم أرهما في أي مشاهد مسلسلات وأفلام فترات الجاهلية مع العبيد السود، ونالت ليلى وحدها عاقبة جرمي، وخرج أبي مسرعًا؛ وكأنما قد عاد فقط لأجل هذا، وجلست ليلى مسندة ظهرها المتوجع إلى المكتب وبكاؤها لا ينقطع فاحتضنتها وبكيت معها وقلت لها:

- أنا آسف يا ماما.

ازدادت قوة احتضانها لي، وغسلتني دموعها وهي تقول:

- لا عليك يا حبيبي.

وبسرعة انزوت كل آلامها حين تذكرت ما فاتها، وهي تهتف:

- أرني يدك.

وأخذت تتفحصها، وقامت لتنظف الجرح وتغطيه، وقبلتني وطلبت مني الراحة بسريري.

غسلت دموعي أرض المسجد ليس خوفًا من الوعيد الذي كانت تنذر به الآيات التي قرأها الشيخ ولا تضرعًا إلى الله، ولكن لتذكري بأنه إذا لم يكن لليلي إلا هذا المشهد فكفى به معي، هل تستحق مني كل هذه القسوة التي عاملتها بها ؟

انتهت صلاتي، وقد قررت الذهاب إليها طالبًا منها تفسيرًا ومبررًا أقوى مما فعله أبي معها ليدفعها في هذا الطريق، وآملاً كذلك في إخباري بأن الأمر ليس كما رأيت، أتمنى أن يكون ما حدث فعلاً رؤىً خيالية ليست حقيقة يقينية لدي.

كنت أتمنى أن تقتل الصلاة صداعي هذا، ولكنه زاد بأكثر مما كان، قدت سيارتي مسرعًا نحوها، وكلي لهفة حقيقة أن أحدثها وأستمع لصوتها؛ ولكن يبدو أن الأقدار كان لها رأيٌ آخر، لقد عدت متأخرًا جدًّا، فبعد أن ركنت

سيارتي صعدت مسرعًا، ولم أعير زوجة البواب انتباها، وهي تنادي عليّ، وطرقت الباب منتظرًا أن تفتحه لي لأرى عينيها المندهشتين، واللتين حتمًا ستحملان سعادة برؤيتي، ولكن طالت فترة الصمت، كررت الطرق مرات عديدة بلا مجيب، وإذا بزوجة البواب خلفي هممت بأن أصرخ فيها تاركةً إياي، ولكنها بادرتني قائلةً:

– الهانم نقلتها الإسعاف إلى المستشفى منذ ساعتين.

ارتكنت للحائط، وقد شعرت بقلبي يخفق بقوة، ورغمًا عني سالت دموعي، لماذا يا ليلى لم تصبري ساعتين فقط؛ لقد جئت مسرعًا لأجلك، أرجوك اصبري ولا تغادري هذه الدنيا قبل أن أسمع منك مبررًا يعيد لي توازني في هذه الحياة، انطلقت مسرعًا بعد أن علمت منها أي مستشفى؛ لأجدها في غيبوبة تامة، وتحيط بها الضمادات من كل اتجاه، لست أدري هل أصيبت في حادث أم سقطت من أعلى السلم أو ما هو السبب الحقيقي؛ المهم أنها غادرت الوعي الذي كنت في حاجة إليه كي أفرغ ما بي من شحنات مكبوتة من لوم وعتاب وحساب أليم لها، ولكن غيبوبتها لم توقفني؛ فانطلقت أحدثها بكل ما يعتمل به صدري، وأنها قد دمرتني، وحطمت حياتي، ومحت من عيني أي مثاليات قد تتواجد في هذه الدنيا، كنت أتحدث لها ودموعي تسابق كلماتي، وأخيرًا بعد أن فرغت، حادثت الأطباء لمعرفة حالتها الصحية؛ فأخبروني أنها برغم الكسور التي نالتها بيديها

وساقيها إلا أن الشرخ بقاع الجمجمة هو أخطرها، وتعجبوا كيف أن حادث سيارة ينال من كل الأطرف مجتمعة بهذا الشكل الغير مسبوق، طلبت منهم العناية الفائقة، وعدم وضع التكلفة عائقًا أمام أي إجراء يعجل بشفائها، وعدت لشقتي لأجلس على طرف سريري واضعًا رأسي بين كفيّ ومرتكنًا بساعديَّ على ركبتي، لماذا أيتها الأميرة القادمة من أرض الأساطير لم تظهري لي من قبل ؟!

ولماذا لم تتم هذه المكالمة منذ يوم واحد فقط كي ألحق بليلى قبل عزمها على المغادرة ؟

شعرت بحاجتي القوية لسماع صوت هذه الأميرة، ودون أي إعداد أو تحسب لما قد تكون عليه الآن أو تواجد زوجها اتصلت بها ولكن رد عليّ صوتا خشنا قميئا ليقول:

– ألوو..

ترددت كثيرًا وارتبكت، ثم قلت:

– مطعم مؤمن فرع المعادي الجديدة ؟

بنفس الصوت المقزز قال لي:

– النمرة خطأ..

ثم صوت الصفير المستمر...

لماذا يكون الصفير هو أكثر ما يقابلني مع هذا الهاتف ؟!

لم أجد إلا أن أستلقي بكامل ملابسي غارقًا في نوم مليء بالكوابيس، كلها تتعلق بليلى.. مرة أراها تجري في الطرقات عارية والرجال يلاحقونها، وأخرى أجد زميلاً بالبنك يمنحني فيلمًا داعرًا، ويقول لي إنها ليلى نجمة الإغراء الجديدة، لأجدها بالفعل ليلى والرجال يتناوبون عليها، قمت من نومي وقد وصل الصداع لدرجة غير مسبوقة بالفعل؛ فاتصلت بالبنك طالبا راحة بسبب إصابة ليلى، وذهبت مسرعًا لها؛ لأجدها ما زالت كما هي تغط في غيبوبتها، فخرجت إلى صالة الانتظار، وطلبت الأميرة، وكلي ثقة بأنها هي التي سترد وليطرق سمعي صوتها المطمئن، وقد علمت من أنا مسبقا، وقالت:

– لا يصح ما فعلت بالأمس ليس معنى أني استمعت لقصتك المفبركة وردي عليك أن يصبح لك الحق في إعادة الاتصال و..

كنت أعلم بأنها حتما ستغلق الخط مع تهديد، وكنت بالفعل حريص على سماع نصائحها لذا قاطعتها صارخًا:

– أقسم بالله لقد عملت بنصيحتك، وذهبت لأكلم أمي طالبًا منها التوضيح ومنحها الفرصة، ولكني عدت متأخرًا، وأنا معها الآن بالمسشتفى وهي تنازع الموت، إليك بيانات المستشفى واسم أمي لتستعلمي عن حقيقة ما أقول.

ذكرت لها بيانات ليلى كاملة مع اسم ورقم المستشفى، وطلبت منها أن تتصل بهم الآن لتتحقق من صدق روايتي قبل أن تستمع لي، ولكنها صمتت، ثم قالت:

– شفاها الله وعافاها لست في حاجة للتحقق.. صوتك هذه المرة يوحي بصدقك بالفعل.

كيف تقوم تلك الأميرة بهذا التحليل الدقيق للأصوات وما تحتمله من صدق وكذب ؟!

ولكن تعجلت ما أريد سماعه، وقلت لها:

– ماذا أفعل وقد فات الأوان ؟!...

بنفس الهدوء، والحكمة قالت:

– لم يعد أمامك إلا باب الله عز وجل أن تطلب لها المغفرة أولاً والشفاء ثانيًا.

– ولكن الصداع يفتك بي، وقد ارتبكت كل حياتي.

– ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

– هل من الممكن أن أعلم اسمك لأناديك به ؟

– أعتقد بأنك لم تعد بحاجة لي لتعرف اسمي، السلام عليكم.

وأعقبها صوت الصفير اللعين المحتفظ بإصراره على النيل مني دومًا، إصابة ليلى ونصائح تلك الأميرة كان من الطبيعي أن تسير بي في طريق التطهر والخلاص؛ ولكن أيضا لعبة الأقدار كان لها رأي آخر.. ظللت بجوار ليلى في هذا اليوم حتى الظهيرة، وأنا أتطلع لوجهها الصامت الخالي من أي تعبير، وأتذكر لها كل ما كانت تفعل معي من عناية واهتمام وقبلات وأحيانًا دعوات، تذكرت فرحتها يوم خطبتي بمها وصوت زغاريدها التي تعجبت كيف يمكنها الإتيان بها فلم أرها تفعلها من قبل، إذا كانت ترى زواجي وارتباطي بأخرى شيئًا مبهجًا لهذه الدرجة فلم حطمت هي كل ذلك بتلك الجريمة الشنعاء ؟!

وأخيرًا قررت العودة للمنزل لتقابلني تلك اللعينة زوجة البواب لتقول لي:

– هل ألقيتم القبض عليه ؟

توقفت وسألتها مندهشًا:

– القبض على من ؟

قالت مستغربة جهلي:

– اللص الذي ضرب الهانم، وتسبب في ما هي فيه، والذي هرب أثناء مطاردة البيه الكبير له.

دارت الدنيا بي للمرة الألف؛ وقد بدأت الحقائق تظهر أمام عيني جليةً واضحةً هذه المرة، أبي لم يظهر منذ بدأت أحداث إصابة ليلى، ولم يهاتفني ولم يكن يرد على مكالماتي، ومن طلب الإسعاف هو الأستاذ محسن جارنا، ولهذا السيناريو ليس كما يرونه بأن أبي أنقذها من يد لص كاد أن يفتك بها وخرج ملاحقًا له، ولكنه ضبطها هو هذه المرة في حالة خيانة أخرى؛ فحطمها معاقبًا لها، وخرج هاربًا تاركًا إياها تصارع الموت الذي تستحقه، والجيران تعاملوا مع المشهد بما يتراءى لهم مع تاريخ العائلة وموقعها، سحقًا لك يا ليلى فلتذهبي إلى الجحيم ما زلت في غيّك كما أنت، لا تستحقين فرصة ثانية أو ثالثة؛ فالموت رحمة لك ولنا جميعا لقد خسرت الدموع التي ذرفتها عليك، وهذا الصداع المقيت إنما هو تعاطف سخيف نحوك بلا طائل، هذه الأميرة اللعينة هي من وضعتني في هذا الموقف من تعذيب ذاتي وتأنيب كبير بلا داعٍ، لقد قررت الانتقام منها

فكلهن داعرات خائنات حتى لو تصنعن التدين والخوف من الله، حتى لو كان كل كلامهن متسم بالحكمة وبآيات القرآن وأحاديث الأنبياء، لذا عدت مسرعًا لأقود سيارتي نحو هدف لم يكن يومًا ضمن أي مخططاتي أو غاياتي، لم يعد لدي الصبر ولا الطاقة نحو السعي الحثيث والبطيء نحوها، لقد قررت أن أغتصبها انتقاما منها ومن ليلى ومن كل العاهرات اللاتي يغص بهن العالم.

انطلقت بسيارتي وحمم الغضب تستعر بصدري وشهوة الانتقام تغشي بصري حتى أني بالكاد أرى معالم الطريق أمامي، التوقيت مناسب جدًّا لما أنا مقدم عليه، فحتمًا وحدها الآن إن لم يكن لديها خدمًا، أخيرًا ركنتُ سيارتي بصرير عجلاتها، وأنا أقف بخشونة ضاغطًا على مكابحها بعنف كأني أبغي الانتقام منها أيضًا، كانت ملامحي بلا حاجة لتصنع الصرامة والغضب لذا كانت رهبة فرد الأمن الذي قابلته في المرة السابقة مضاعفة عندما رآني، وقد تذكرني بسرعة ولم تخف عني ارتعادته بمجرد رؤياه لطلعتي عندما وقف منتصبا مؤديا تحيته العسكرية البلهاء، وهو يقول لي:

- أهلا وسهلا بك يا باشا...

بمنتهى الجمود والخشونة والصرامة قلت له:

- إذا كان لديك نسخة احتياطية للشقة رقم ٢٣ بمبني ب إليّ بها بسرعة.

ارتبك الشاب وتردد وظهر عليه العجز التام، وقبل أن يرد بالنفي إذا به يرفع حاجبيه، وتنتعش مشاعره، وهو يقول لي:

- دقيقة واحدة يا باشا سوف آتي بها من فرد الحراسة المخصص لهذا المبنى.

لم أرد عليه وأشعلت سيجارة، وأخذت أنفس دخانها بقوة؛ كأنما أريد معها أن أطرد كل أنفاسي المحتبسة بصدري، وانطلق هو مسرعًا إلى الداخل ليعود إليّ به بعد ثلاث دقائق مادًّا يده وقائلاً:

- تفضل يا باشا.

تناولت منه المفتاح، وألقيت بالسيجارة أرضًا هارسًا إياها بلا رحمة بقدمي، وقلت له بمنتهى الصرامة:

- هذه عملية تعذيب واعتقال.. مهما سمعتم من صراخ أو تحطيم لا أريد رؤية وجه أحدكم، ومن أراه منكم بالأعلي سيلحق بهم في فوهة الجحيم، ولو ظهر ذلك الفيل صاحب الشقة احتجزه هنا حتى لا يهرب لأتمكن من القبض عليه.

انتفض الشاب وأدي تحيته العسكرية قائلاً:

– أمرك يا باشا.

فشلت في تصنع الهدوء، وانطلقت بخطواتي المسرعة نحو المبني الذي رأيته متجهًا إليه لجلب المفاتيح، وما إن رآني فرد الأمن القائم عليه حتى انتصب واقفًا مؤديًا نفس التحية العسكرية وقائلاً:

– تفضل يا باشا.

لم أعيره انتباهًا، ومن خلف ظهري قلت له:

– اسأل زميلك عن التعليمات.

واستقللت المصعد الإليكتروني إلى الطابق الثاني عشر بالبناية، وبينما هو يتهادي في صعودة بلا صوت تقريبًا أعددت الخطة البسيطة في ذهني، سأفتح الباب بالمفتاح الذي معي دافعًا إياه بقوة إلى الحائط ليحدث دويا يُخرج لي من بالشقة، إن كانوا خدمًا سأصرخ فيهم بأني رجل أمن الدولة، وأن يهربوا بسرعة، وإن كانت وحدها سأغلقه خلفي بقوة، وأبدأ في نهشها وافتراسها، ومهما كانت قوتها لن تتغلب عليّ، وصلت للطابق الثاني عشر لأجده مكونًا من طرقة صغيرة هادئة الإضاءة بمصباح صغير ولا يطولها أيا من أشعة ضوء النهار، ويغطيها من أولها لآخرها سجادة حمراء رفيعة، وعلى طرفيها بابا الشقتين اللتين بهذا الطابق، لمحت رقم الشقة ٢٣ تجاه اليمين، فتوجهت إليه ببطء، وقد بدأت خيالات التراجع تراودني، إن كانت

ليلى مجرمة ما ذنب هذه المرأة؛ فأنت لم تر منها سوءًا، بل لقد حاولت تقديم المساعدة لك، ولكن كلهن عاهرات كلهن مصيرهن قاع الجحيم كلهن لا يستحققنّ الحياة، الغضب والشيطان والنفس الأمارة بالسوء وكل المشاعر السلبية دفعتني لأن أخرج المفتاح من جيبي، ودفعت به نحو الباب، ولكن قبل أن يمس قفل الباب وقع ذلك الأمر.

أنا لا أرى ولا أؤمن بوجود المعجزات في عصرنا هذا فليس منا أنبياء أو من يستحق أن تحدث معه أو لأجله معجزات، ولكن هي الصدف الغريبة، والتي قال عنها أحدهم يوما ما: "الصدف الجميلة لا تحدث إلا لمن يستحقها" أي أنها هدية الأقدار لمن تقع له، والذي حتما بذل جهدًا لأجلها يومًا ما، فقبل أن أشرع بفتح الباب بنصف الثانية إذا برنين جوالي يرتفع ليصيبني برجةٍ ورعشةٍ كأنما قد مسني أحدهم بصاعق كهربائي، تراجعت يدي بسرعة؛ كأنما قد تم ضبطي متلبسًا، وأحاول نفي التهمة عن نفسي بالابتعاد عن موقع الجريمة، استجمعت مشاعري التي اضطربت لسماع رنين الجوال، وحاولت تجاهله، لكن لم أستطع فما كان مني إلا أن تناولته؛ لأرى من الذي يريد إفساد خططي في اللحظة الأخيرة، وإذا بها المستشفى التي ترقد فيها ليلى، دق قلبي بعنف فهم لم يتصلوا بي من قبل فما الذي يدفعهم لذلك الآن؟

لابد أن طارئًا جديدًا قد حل بهم، أردت تجاهلهم لأن ليلى لم تعد تستحق ذرة اهتمام مني فما فعلته لأجلها في هذين اليومين إنما كان بغباء وسذاجة بالغة مني، ولكن فشلت في ذلك التجاهل تمامًا، ضغطت زر الإجابة ورفعته إلى أذني اليمني، ودقات قلبي قد بلغت الذورة، وبصوت مبحوح رغمًا عني قلت:

– ألوو..

– الأستاذ باسم ؟

– نعم.

– البقاء لله السيدة ليلى توفاها الله منذ دقائق و...

لم أستمع لبقية كلامه الكثير، لست أدري كيف انهرت وسقطت جالسًا على الأرض، وأنا أشهق بعنف، وبدأت سيول الدموع تنهمر مني بغزارة وقوة، تبًّا لك يا ليلى ها قد نلت ما تستحقين ومت بالفعل لماذا هذا الجزع الذي نال مني الآن ؟

لماذا فجأة أظلمت الدنيا بعينيّ؛ كأنما قد أطفأ أحدهم المصباح الوحيد الشاحب بهذه الطرقة أو فقدت حاسة البصر ؟!..

لماذا سكنت جميع الأصوات بأكثر مما عليه من هدوء وصمت في هذا المكان ؟!..

لماذا أشعر بقلبي على وشك التوقف ؟!..

وفي وسط الظلمة المعتمة بدأت مشاهد ذكرياتي مع ليلى في التوارد والتتابع أمام عينيّ ولم أعد أبصر سواها، بدأت بمشاهد مهزوزة متقطعة لها، وهي تعبئ حقيبتي المدرسية بالشطائر التي أحبها، والقبلة الكبيرة التي تطبعها على وجنتي قبل أن أستقل الحافلة، ومشهدها وهي تتباعد مع تحرك الحافلة ملوحة بيديها، ولم تغادر وقفتها يومًا إلا بعد غيبتي عن بصرها إلى الشارع المنعطف تجاه اليمين، سهرها المخضب بدموعها بجواري، وأنا أعاني من آلام تقتحم كل جسدي على إثر ارتفاع درجة حرارتي بمرض ما، وبالرغم من ذلك لم تنم نهارًا قبلها أو بعدها، اعتنائها بكل تفصيلة دقيقة في ملبسي وتعليمي أزواق اختيار الألوان، وتوافق بعضها البعض حتى لو كان الاختلاف في الدرجات كبيرًا، حضنها الكبير الدافئ الذي كنت أشعر به مصدرًا سحريًّا لبث الطمأنينة والهدوء بعد أي خوف أو فزع، تلبيتها لجميع طلباتي العادية منها والمجنونة، لم تنقطع الرؤى أمام عيني لمدة نصف الساعة، وبعد أن جف معين دموعي، وتجمدت بقيتها على وجنتي قمت بجسد مكدود لم يعد يقوى حتى على المسير عائدًا، وقد فشلت خطتي، وضعفت تمامًا عن الإقدام عليها، بل لقد تبخرت ونسيتها، وانطلقت

بسرعة، وأنا لا أعير فردي الأمن انتباها، فقد نسيت حتى أين المفتاح، وبالطبع لم يرد بذهني مطلقا فكرة البحث عنه لمنحهم إياه، استقللت سيارتي التي أنّت من ضغطي على دواسة وقودها لتنطلق مسرعة، وأنا أتمنى الموت فلم يعد للكون مذاقًا بل لقد أصبحت كل المشاهد التي يقع عليها بصري كأنما هي صور كرتونية مزيفة وغير حقيقية، هذه الفتاة الجميلة التي تمسك بيد صبي يبدو أنه أخوها بعد عمر ليس بالطويل سيتحلل جسدها الأخاذ هذا، وتختفي كل معالمه بين ذرات التراب، ووقتها لن يفرق معه ما نال من لذات جسدية أو معنوية أثناء حياتها السابقة، هذا الشاب الذي يقف أمام نافذة العرض الزجاجية لأحد محلات الملابس بحثًا عن زي رائع يبرزه بمشهد متأنق غدًا لن يرتدي سوى ثوبًا أبيضًا من قطعة واحدة تخفي كل المعالم التي يحرص على إبرازها بما فيها وجهه، ذلك الشيخ الذي يتهادي مستندًا على عصاه هل أدركت الآن يا شيخنا أن كل ما مر بك من متع له نهاية، وأنك أكثر من يترقب الموت، ودخول القبر وتراه ضيفًا ثقيلاً، ولكن لابد منه في القريب العاجل ؟

تلك المرأة الفرحة بحملها لرضيع على ساعديها تُرى أي أب منحك إياه، وهل سيقتلك زوجك أم سيتجرأ رضيعك هذا على فعلها بنفسه عندما يكتشف خطيئتك ؟

توقفت أمام باب المستشفى بسيارتي، واندفعت نحو شباك الاستعلامات، وعلمت بأن ليلى ما زالت بغرفتها، فصعدت مسرعًا إليها لأجدها قد تواري وجهها أسفل الملاءة الزرقاء التي كانت تتدثر بها، جسدها الساكن والمسجي أسفل تلك الملاءة أثار بنفسي رهبةً نالت من فؤادي؛ فلم يحدث أن دنوت من قبل لهذه المسافة القريبة من موتى، فما بالك عندما يكون ذلك الميت هو شخص ارتبط بكل أحداث حياتك ؟

انتزعوا منها جميع الأجهزة فلم يعد هناك أنابيب متصلة بأوردتها، ولا قناعًا يغطي الوجه أو محاليل حولها، وتوقف الصفير والأصوات التي كانت تصدر بجانبها من أجهزة إليكترونية ترصد مؤشرات حياتها، فمددت يدي المرتعشة لكشف وجهها؛ وإذا بي أجدها نائمةً بهدوء شديد مغمضة العينين، وملامحها كما عهدتها دومًا دقيقة ومحتفظة بجمالها حتى بعد تعديها الخمسين، وكذلك بعد مماتها، أخذتُ أتطلع لها كثيرًا؛ كأنما كنت مفتقدًا لها، وجئت من سفر طويل، وبدأت الدموع تسيل من النهرين المختبئين خلف عينيّ، ولست أدري كيف امتلآ بهذه السرعة مرة أخرى، وارتفع صوت نحيبي مرة أخرى، وأخذت أضرب سريرها بيدي، وأنا أصرخ قائلاً:

– لماذا ؟.. لماذا يا ليلى فعلت ما فعلت ؟!.. لماذا تقتليني دومًا في حياتك ومماتك ؟!..

اندفع رجلان لست أدري ما هي وظيفتهما ليهدئا من روعي مع مواساة بالجمل المحفوظة بأن استغفر الله، واسأل لها الرحمة وما شابه، وأخيرًا انطلقت بعد أن راجعت معهم إجراءات نقل الجثة للمنزل، حاولت الاتصال بأبي كالعادة لم يرد فما كان مني إلا أن أرسلت له رسالة أخبره بوفاتها، وأنه يجب أن يظهر، ويحضر الجنازة حفظًا لماء الوجه، والمحافظة على شكلنا الاجتماعي أمام الناس.

تمت الجنازة في ذلك الجو الكئيب الذي أكرهه، واختفى أبي بعدها، ولم أبحث عنه، أو أتساءل أين هو، وتوارت ليلى تحت الثرى، ولم يعد هناك ما ينغص علي حياتي، ولكن رغم العظة الكبرى من وفاتها لم أفكر بالعودة للصلاة، وإن كنت قد توقفت تمامًا عن أمر الإغواء هذا، فقد ذهبت تلك التي كنت أنتقم لأجلها ومنها، وتبخرت القضية التي كنت أسعى بسببها، وأصبح تركيزي على عملي فقط، ونسيت تمامًا تلك الأميرة التي كنت على وشك الفتك بها، وظننت أني بعد عام أو عامين قد أعود لتوازني، وقد تظهر تلك التي تعيد ثقتي مرة أخرى ببنات حواء، ولكن كالعادة لا يستقيم شيء على مساره أبدًا فبعد عشرة أيام فقط كنت عائدًا من البنك، ولم أنتبه لعداد الوقود بالسيارة إلا عندما بدأ مصباحه الصغير أمامي في الوميض بأنه على وشك الانتهاء تمامًا من مخزنه، كان ذلك، وأنا أحاول ركن السيارة بموضعها، وجسدي يئن من إرهاق يوم عمل شاق بالبنك، وبالتالي لابد من الذهاب الآن لملئه بما يحتاج؛ لأني لا أضمن استهلاك الوقت صباحًا أثناء

ذهابي للبنك من أجل الحصول عليه، كدت أن أسب وألعن غفلتي عن ذلك، وعدم انتباهي مبكرًا، ولكن ظهر أمامي ذلك الغر الذي نادرًا ما أراه، وكأنه ليس أحد أهم أفراد عمارتنا؛ إنه البواب، والذي تحتل زوجته الواجهة الرئيسية في كل الأحداث بدلاً عنه، فقفزت الفكرة إلى ذهني ناديت عليه، وطلبت منه الذهاب لهذه المهمة بدلاً عني من محطة الوقود القريبة؛ فوافق مسرعًا وفرحًا؛ لأنه سينال إكرامية مقابل هذه المهمة حتمًا، صعدت إلى شقتي، وأمام بابها تذكرت أن المفاتيح كلها مرتبطة بمفتاح السيارة التي هي بعيدة الآن برفقة البواب، نطقت سبابًا خافتًا لنسياني ذلك، وأخذت أبحث عن حلول فلم أجد، يائسا طرقت باب شقتنا الخاوية بعد وفاة ليلى، وبالطبع أجابني الصمت التام، تذكرت لوجي فتوجهت إليها، ولن يفرق معي تواجد عمرو الآن أم لا؛ فلست في مهمة خاصة تتطلب مغيبه، فتحت لي الباب فرحةً بأني أنا الطارق، فقلت لها متسائلاً:

– هل عمرو هنا ؟

ببسمة أكلت ثلثي وجهها قالت:

– لا اطمئن وتفضل بالدخول.

سحقًا لك فلست قادمًا لما تبغين، ولكن دخلت، وأنا أقول لها:

– معذرةً نسيت مفاتيح شقتي بالسيارة التي ذهب بها البواب لمهمة سريعة.

فقالت مستنكرةً:

– ألهذا فقط جئت إليّ ؟! يبدو أنك نسيتني بالفعل، وليس بسبب الوفاة فقط.

قلت لها متذمرًا:

– لا تذكريني بذلك يا لوجي.

مسحت على رأسي، وربتت على ظهري، وضحكت ضحكةً قصيرةً، وقالت:

– لا عليك سأنسيك كل شيء، سأقوم لأعد لك مشروبًا وليتغيب البواب كما يشاء ستقضي وقتًا طيبًا هنا.

قبلت بمسألة إعداد المشروب هذه، فقد يظهر البواب قبل الفراغ منه، ولا أقع مرة أخرى فيما أود الهروب منه، ولكن عادت لوجي ليس برفقة مشروب منعش فقط، وإنما بثوب يدير الرءوس كذلك، وجلست بجواري ملتصقة بي، وقبل أن تتحدث نالت أمنيتي في الهروب فرصة تحقيقها بسرعة لم أتوقعها، ولكن بصورة لم تخطر لي على بال، لم ننتبه لصوت المفتاح الذي دار بقفل الباب، ولكن انتفضنا على صرخة عمرو الواقف ذاهلاً به، وحقائبه ملقاة أرضًا، وسقطت من على كتفه الحقيبة الأخيرة التي تحوي حاسبه المحمول، وهو يقول:

– ما هذا ؟!

لم يكن المشهد في حاجة إلى سؤاله التعجبي هذا، ولكن عدم تصديقه لما تراه عيناه دفعه لطرح ذلك التساؤل الغبي الخاوي من معناه.

وعلى نقيض كل التوقعات كان رد فعلي، فقد انفجرت مقهقهًا لهذه المفارقة العجيبة، لقد ظللت دهرًا أخونك مع زوجتك، وفي المرة الوحيدة التي كنت متطهرًا ومتهربًا منها تضبطني معها في هذا الوضع المشين ؟!!

كان الموقف عجيبًا جدًّا بكل المقاييس كيف لي أن أقسم له ببراءتي، وأنا بالفعل موصوم بالجرم، ولكن ليس في هذه المرة فقط، بالطبع قامت لوجي صارخة، وهي تحاول حجب نفسها بأي شيء؛ وكأنما لا يجب أن يراها هكذا بينما ذلك مباح لي فقط، واندفع عمرو نحوها مسرعًا ليجرها من شعرها، وهو يصيح بصوت ينافس مكبرات صوت المسجد القريب و يقول:

– هيا أيتها الماجنة إلى بيت أبيك هكذا كما أنت فليرَ العالم أجمع جسدك المتسخ بدرن الخطيئة؛ فأنت لا تستحقين ذرة شفقة واحدة، بعد كل ما فعلته لك، وتخونيني هكذا !!

لم يترك شعرها وصرخاتها لم تنقطع ليطرحها أرضا خارج الشقة، وألقى عليها يمين الطلاق أمام الكثير من الأعين المتلهفة لتفاصيل أكثر، وجزلة جدًّا بما تراه، همَّت بمحاولة الدخول مرة أخرى لتستر نفسها بأي شيء، ولكنه

دفعها بقوة لتتعثر، وتقع بضع درجات من السلم قبل أن تتمالك نفسها، فأسرعت إحدي ساكنات العمارة لتجذبها بسرعة نحو شقتها؛ لتمنحها ستر الجسد فقط بعد أن تعرَّت من كل شيء أمام الجميع، التفت عمرو نحوي بعد أن فرغ منها كنت خلفه أهم بالخروج، ولكنه صرخ بي بما فاق كل احتمالي حين قال:

- ليس معنى أن أمك عاهرة أن تنال من زوجتي أيها الفاسق.

وهوت صفعته القوية على وجهي لتنال مني؛ كأنما رأسي داخل ناقوس ضخم، وتم دقه من الخارج لتفتك بي موجاته المترددة والمباشرة، ليلى لم تكن مستترة ولا دفنت معها سرها، إذا كان عمرو الذي لا يتواجد إلا أيامًا قليلةً من العام كله علم بذلك فما بالك بالرابضين بالعمارة ولا يفارقونها !!

رنت صفعته الثانية لتطير شذرات من دموعي التي سالت، وأنا عاجز عن أي رد فعل تمامًا، ولم يتوقف وهو في حالة هيستريا عجيبة إلا بعد أن جذبه أحد الجيران للداخل ليهدئ من روعه، وبروح كسيرة، ونفس كسيحة، وبقدمين مشلولتين خطوت بمنتهى الصعوبة للأسفل، وخرجت من الباب في نفس التوقيت الذي عاد فيه البواب بالسيارة فرحًا بنجاح مهمته التي يتمنى تكرارها، هبط من السيارة عندما لمحني، وترك المفتاح اللعين بها، وهي دائرة ومد يده لي ببقية النقود التي منحتها له، ولكني تجاهلته تمامًا، واستقللت السيارة، وانطلقت بها، ولست أدري إلى أين.

لماذا يا ليلى يستمر الطعن منك حية وميته ؟!...

لقد ظننت موتك هو النهاية الجيدة لكل ما كنت أعانيه، ولكن يبدو أن لعنتك ستطاردني أبد الدهر، كم هو محظوظ عمرو، فقد اكتشف خيانة زوجته قدرًا حينما عاد مبكرا على غير عادته، ودون أن يخبر لوجي معدًّا لها مفاجأةً سارةً على حسب ظنه، ولكنه أنهى كل شيء وبحسم سريع طلقها، ونال مني أمام الجميع، قد يبيع شقته هذه ليقيم في أخرى جديدة مع اختيار آخر أفضل، ومهما كان جرحه سيلتئم بسرعة، وستنطلق به الحياة في مسارها الطبيعي، أما أنا فقد تسببت ليلى بعاهة مستديمة ستظل ملازمة، ومعوقة لي عن أي شيء طبيعي، ولن أكون كالآخرين أبدًا، كنت قد تأهلت نفسيًّا بتلوث سمعة ليلى أمامي أنا وأبي فقط، وظننت ذلك جُرحًا داخليًا مستترًا لا يلحظه مخلوق، ولكن اتضح لي الآن أن العملية تم تسجيلها، ونشرها عبر جميع وكالات الأنباء، ولكنهم يتوارون عن الحديث عنها أمامي فقط، إذا تلوثت ليلى ونال الجميع من سمعتها فلا توجد مخلوقة في هذا الكون تستحق الستر من بعدها، وبما أني لم أتعامل مع أنثى إلا، وكانت عاهرة فتلك الأميرة الفاضلة الماكثة في برجها العالي، والتي كنت قد نسيتها لن تفلت مني، لا أدري لماذا أدور بتفكيري نحوها دومًا ؟!

هل لأنها الوحيدة التي فشلت معها ؟!..

أم لأنها الوحيدة التي كسرت، وحطمت لي القاعدة التي وضعتها متيقنًا منها؟!

يجب أن أحطمها حتى أثبّت أركان قاعدتي، لم يعد لدي رغبةً في النساء بأي شكل كان، ولهذا انزوت فكرة الاغتصاب هذه، سأحاول معها محاولةً الآن لو لمحت منها أي ملمح للفشل، فهي تستحق ما ورد في بالي.

طلبت رقمها ولا يعنيني توقيت الاتصال، فحتى لو رد علي زوجها سأطلب منه أن ينادي زوجته؛ لأني أريدها في أمر هام، رن صوت الهاتف ولحسن حظها ردت هي قائلةً:

- السلام عليكم.

وقبل أن أتحدث سمعت ذلك الصوت المشروخ خلفها وهو يقول لها:

- من المتصل ؟

طرق أذني صوتها المرتبك، وهي تقول:

- النمرة خ..

واستكمل جملتها الصفير المعاند لي دوما، ولكن ابتسمت بقوة لقد نجحت؛ فمعنى أن ترتبك و تغلق الخط مسرعةً أنها تداري خطيئة وقعت

فيها، مرحي يا فتاة لقد ظننت وهلةً أنك نقية بالفعل، وأردت تلويثك مثلنا، ولكن حظك من التلوث متوفر بالفعل، لو كنت سويَّة حقًّا لمنحت زوجك سماعة الهاتف ليرد هو عليّ.

اكتفيت بهذا عازمًا على الاتصال بها صباحًا، و انطلقت بسيارتي على غير هدى، ومحاولاً الانسلاخ من مشاعر الانهزام التي قهرني بها عمرو أمام الجميع، ركنت سيارتي أمام النيل، وأخذت أتطلع إلى مياهه المتدفقة أبد الدهر، والتي تبدأ نقيةً؛ ولكن نحن البشر من نقوم بتلويثها بكل قباحاتنا ومخلفاتنا، ومن العجيب أن هذا النهر لا يشهد منا التلوث البيئي فقط، وإنما كذلك شاهدًا رئيسيًّا على كل ملوثات أخلاقنا، وخطاياها من كل العشاق المتخفين ليلاً ونهارًا عنده لينهلوا من سموم أجسادهم غير مبالين بنظرته الصامتة إليهم، فكرت أن أقوم لألقي بنفسي به منتحرًا ومغتسلاً من كل الخطايا التي تكبلني؛ ولكن حب الحياة والجبن عن ذلك أوقفني تمامًا، وصرف ذهني عن ذلك، لم أشعر بالوقت ولم يكن يعنيني، ولكن رنَّ جوالي بمفاجأة لي، فقد كان المتصل هو رقم بيت الأميرة، نعم إنه هو فأنا أحفظه جيدًا، ولكن ترى من المتصل هل هي أم زوجها مفتشًا خلفها ؟!

لو كانت هي سيكون الأمر رائعًا، ولكن إن كان زوجها ما التصرف السليم ؟!..

هل أفضحها كفضيحة لوجي؛ وبهذا يتحقق الانتقام المراد، وننتهي أم أتحجج بأي سبب لو سألني لما طلبته حتى أستكمل خطتي معها ؟

تركت التصرف ليكون رد فعل عما يقابلني من المكالمة وقلت:

- ألوو..

كان صوتها منزعجًا وعصبيًّا بشكل لم أتوقعه، وهي تقول:

- هل من الممكن أن تخبرني لماذا تتصل بنا ؟

صمتُ محاولاً تقييم الأمر، وباحثًا عن حجة تجعلها تتقبل حواري، ولكن طرق سمعي صوت زوجها البعيد، وهو يقول:

- لن يرد الجبان!...

فهمتُ الأمر، طوال الساعة الماضية كانت في صراع مع زوجها، وأرادت تبرئة نفسها أمامه بشكل مباشر؛ فطلبتني وتركت الصوت الآن على السماعة الخارجية ليسمع ردودي، والتي حتمًا ستثبت له براءتها.

لست أدري كيف برز لي أنياب ذلك الذئب القاسي المتوحش، وبلا ذرة تردد قلت لها:

– آسف لم أكن أعلم أن زوجك موجود، أردت أن أخبرك بأني سأنتظرك غدًا في شقة الدقي لنكمل ليالينا الحمراء سويًّا، ولكن نهارًا.

صمّ أذني صراخها، وهي تقول:

– حرام عليك يا ابن الكلب هل آذيتك في شيء ؟!

وأغلقت الهاتف، وأنا أسمع في الخلفية صراع لن يقل حتمًا عمّا فعله أبي بليلى عندما ضبطها في وضع الخيانة.

وبلا ذرة تأنيب ضمير أغلقت جوالي تاركًا إياها تواجه مصيرها، وقد تحقق انتقامي منها بمنتهى البساطة، لست أدري لما شعرت بالراحة بعدها، وابتسمت، وفتحت مسجل السيارة رافعًا الصوت إلى أعلى مدي، وأخذت أهتز على النغمات الصاعدة منه، وأنا أقود السيارة منتشيًّا؛ كأنما قد نلت منها جسديًّا بالفعل، إذا كانت ليلى قد فُضِحَت فلن تكوني أنت الطاهرة أمام المحيطين بك أيتها الأميرة، وبعد أن كنت مكبلاً بكل مشاعر النقص والهزيمة عاد لي شعور اللامبالاة، ولم يعد يعنيني من ينظر لي على أني ابن عاهرة أو حتى ابن زنا، فليذهب العالم أجمع إلى الجحيم.

ولكن سبحان الله يبدو أن هذه الأميرة كانت طاهرةً بالفعل؛ فقد تحقق انتقامه مني في خلال أسبوع واحد من هذه الحادثة، ووقعت معكم في هذا الجب العجيب؛ لأنال كل ما استحقه في الدنيا، وبالطبع ينتظرني الكثير من

الأهوال في الآخرة، والتي لا يوجد معي أي شيء يشفع لي يومها، لذا دعك يا صاحب الصلوات مني؛ فأنا رجل شيطاني مريد، ولكن رغم كل خطاياي إلا أن فضيحة الأميرة هذه هي أكبرها، وأفظعها من وجهة نظري، فالخائنات نلن ما يستحققن، ولكن ماذا فعلت هي كي تنكسر هكذا بلا جريرة إلا أنها فقط وقعت في مرمى بصر وحش لا يعرف الرحمة، ولا يراعي أي مبادئ أو أخلاق، ولا يخاف من خالق، لذا أتمنى فقط أن أخرج الآن؛ لأقبل قدميها وأطلب منها السماح، ومستعد لتعويضها بما تريد، وبعد ذلك فليعذبني الله بما يشاء على بقية الذنوب، وقد تضحك لو قلت لك بأنها هي الوحيدة في هذا الكون التي قد أقبل بالزواج منها، وأنا مطمئن لها، ولا أتشكك نحوها، ولكن قُضيَّ الأمر، ولم يعد هناك مجال لأي شيء.

الفصل الرابع

جحيم الزوجية

أنهى باسم قصته بصوت متهدج مليء بالتأثر، وكالمرة السالفة أجابه شخير وفيق العالي والمتصل؛ مما دفع نبيل لأن يقهقه؛ فنظر باسم نحوه بدهشة، وقال:

- ظننتك ستبكي مثل محمود الغارق في دموعة تأثرًا بما قلت !!

تمالك نبيل نفسه، ولكن فشل في محو البسمة المرتسمة على وجهه، وهو يقول:

- في يوم ما حدثني صديق إندونيسي يدرس هنا في جامعة الأزهر، وتم القبض عليه منذ عامين من قِبل أوغاد أمن الدولة ضمن حملة اعتقالات طالت الكثير من طلبة الأزهر، كان يحدثني، وهو متأثر وموشك على البكاء، وقال لي من ثنايا كلماته " ما أدهشني وسط الأهوال هناك هي قدرة الضابط العجيبة على النوم أثناء التحقيق معنا.. عجيب جدًّا أن ينتقل من الصياح إلى النوم مباشرة، وعيناه مفتوحتان " لم أفهم مقصده فسألته قائلاً " وما الذي جعلك تظن أنه نائم طالما عيناه مفتوحتان، وكان يصيح قبلها بثانية ؟!!" فرد عليّ بمنتهى البساطة قائلاً " بالطبع كان ينام وإلا كيف تصدر منه تلك الأصوات الخيشومية ؟!!" لم أتمالك نفسي من الضحك وقتها، وأعاد لي الذكرى رد فعل وفيق المتفق تمامًا مع نهاية قصتك بشخيره الرافض لها، تخيل أننا الشعب الوحيد الذي يستخدم الشخير دلالة الرفض والاستهجان ؟!

قال باسم بضيق:

– حسنًا وماذا بعد ذكرياتك المضحكة ؟ ظننتك ستلقي عليّ خطبة عصماء بعد انتهائي.

كسحت ملامح نبيل الجدية التامة، وقال:

– ليس عندي ما أقوله لك يا باسم أنت تدري ما هو الخطأ، وما الصواب جيدًا ولديك المخرج، وقد منحته لك الأميرة بجملة مختصرة وبليغة جدًّا حين قالت لك " لم يعد أمامك إلا باب الله عز وجل أن تطلب لها المغفرة أولاً والشفاء ثانيًا" كان ذلك نحو والدتك – رحمها الله – والآن أنصحك بالتمسك بها فلم يعد لنا جميعًا إلا هذا الباب، والاستعانة بالاستغفار والدعاء لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، أما إن كنت تريد مواساةً أو تبريرًا لما فعلت أو منحك حلولاً سحريةً؛ فهذا ما ليس بيديّ.

عاد باسم لوضعه السابق من سقوط رأسه لتمس ذقنه صدره ملتحفًا بالصمت التام، ثم نظر مرة أخرى نحو نبيل، وقال:

– هل لو قمت وصليت الآن، واستغفرت الله سيقبل مني بالفعل أم أنه لن يكون مقبولاً بسبب مجيئه في لحظة اليأس من جميع المخارج الأخرى ؟!

تنهد نبيل، وقال:

– أقبل عليه بقلبك أولاً، وعندما يرى الله منك الصدق قد تكون أنت أوفرنا حظًّا وقتها.

هزَّ باسم رأسه مرةً أخرى، وقال:

– لا أمل، أنا شخص ميئوس منه تمامًا، ولن يقبل بي أبدًا.

كان الضعف والوهن قد نالا من نبيل، ولم يعد لديه الطاقة أو العزيمة للصراع والجدال، فهز رأسه هو أيضًا بغير عناية وقال له:

– كما تشاء، إنه مصيرك أنت.

أراد باسم أن يخرج من الصراع المشتعل بوجدانه انشغالاً بأمر آخر، فنظر نحو محمود الجالس مستندًا إلى الحائط مادًّا قدميه للأمام، وعاقدًا كفيه ببعضهما البعض أمامه، ونظراته شاردة تمامًا؛ كأنما يبصر مجهولاً غير مرئي إلا له وحده، وقد جفت دموعه تاركةً خطين رفيعين منسدلين على وجهه من أعلى لأسفل.

فقال له:

– دورك الآن أيها العاطفي ذو الإحساس المرهف.

نظر محمود نحوه طويلاً بنفس النظرة الخاوية، ودون أن يفتح فاه هزَّ رأسه بأن لا وعاد لما كان عليه.

فهتف فيه باسم قائلاً:

– إن كنت تشعر بالوهن؛ فيفضل أن تبدأ قبل أن تعجز عن الحديث بشكل تام، هيا إنه دورك، وهي فرصتك.

لم يرد عليه محمود، وظلّ مطالعًا أفقه الغامض بنفس الثبات، همَّ باسم أن يصرخ فيه، ولكن نبيل أشار له أن كفي، وقال:

– دعه..من الواضح أنه في حالة نفسية سيئة تمنعه من ذلك الآن، ولكن يا محمود سيأتي دورك حتمًا لا محالة فلا مجال للتراجع عن ذلك لا تدري لعل إخراج مكنونك يريحك من هم ثقيل يعتمل بك؛ فمجرد مشاركتك للآخرين آلامك يشعرك بأنك قد تخففت بمنحهم جزءًا شعوريًا منها حتى لو كان تعاطفهم هذا لحظيًا.

ظل محمود على حاله حتى يئسوا منه، ولكن قبل الذهاب عنه التفت نحو نبيل، وابتسم ابتسامةً تعتصر بالمرارة، وهزَّ رأسه دلالة الموافقة؛ فابتهج نبيل، وقال:

– حسنًا يا محمود نحن في قارب واحد، وأشعر بقرب نجاته إن شاء الله.

تركه محمود ليعود إلى عالمه الغامض في حين قال باسم بحماس:

– مرحى لقد جاء دور فاكهة البلاء الذي نحن فيه.

وأخذ يهزّ وفيق بعنف مما جعله ينتفض بنفس الرعب السابق، ولكن قبل أن يهتف متسائلاً طالعت عيناه وجه باسم العابث؛ فقال في نقمة:

– مالك بي أيها الوغد هل أكلت غذاءك كي تنتقم مني هكذا ؟!..

ضحك باسم، وقال:

– المأكل والمشرب هما المحرك الوحيد للأحداث عندك ؟

لوح وفيق بيده بوهن، وقال:

– ابتعد عني ودعني أقابل الموت بسلام.

قال نبيل مسرعًا:

– بإذن الله لن نموت هكذا يا وفيق، فلتشاركنا قصتك بعد أن سمعت قصصنا، وعلمت أسرارنا.

تحرك وفيق ببطء للاعتدال جالسًا، وقد فرَّ النوم من مقلتيه وقال بسخط:

– ليس لدي ما أحكيه، وأنا لم أعلم منكم أسرارًا خطيرةً، أنت فقدت أباك، وحاولت الجري خلف الإناث؛ لأنك لديك عقدة نحوهن، والآخر مرفه لم ير معشار ما لاقيت من شقاء في حياتي وصار لعوبًا كأمه، الحمد لله أني نمت، ولم أستكمل هذه الأساطير الفاشلة معكم.

بذكاء؛ ولكي يدفعه نبيل للسرد قال:

– بالعكس وفيق أرى لديك قصة ثرية بالفعل تظهر لنا مدى التفاهة التي كنا فيها، لقد شمّت أنفي قصة كفاح لا مثيل لها أتمنى سماعها بالفعل.

ابتسم وفيق للمرة الأولى، وقال:

– وأي قصة !! إنها معجزة الكفاح بمعنى الكلمة.

صفق باسم بيديه، وكاد أن يعلق ساخرًا، ولكن قاطعه نبيل مسرعًا كي لا يفسد عليه الأمر، وقال:

– أرجوك يا وفيق لا تحرمني منها أثق بنجاتي، وأريد بالفعل التعلم منك معنى النجاح الحقيقي.

اعتدل وفيق في جلسته بشكل لا حاجة إليه، ولمعت عيناه جذلاً، وقد راق له نبرة المدح في حديث نبيل إليه، وقال:

- حسنًا يا فتى لقد نجحت في مسعاك، ودفعتني للكلام بالفعل، هيا نظف أذنيك من كل الدرن الذي علق بها من فشلكم السابق، ولتتعلموا معنى المثابرة وانتزاع النجاح من فم الضباع والوحوش، ولكن أريد جرعةَ ماءٍ أبلل بها ريقي الجاف.

بلا تردد قتل نبيل وهنه، واندفع ليملأ له إحدى الزجاجتين وقدمها له منحنيًا أمامه بشكل مسرحي أعجب وفيق الذي تناولها منه، وتجرع نصفها دفعةً واحدةً، ثم تجشأ كأنما قد تناول وجبة دسمة، وأخيرًا تنهد بعمق، وبدأ يقص عليهم قصته الأسطورية على حسب ظنه.

*****

هل سمع أحدكم عن فوبيا الاستيقاظ من النوم ؟!

بالطبع لا؛ لأنه شيء لا يعلمه ولم يجربه سواي، فالاستيقاظ من النوم بالنسبة لي كان يعني يومًا جديدًا من الشقاء، والعنت، والنصب الذي لا حد لهم، وقد كان ذلك، وأنا ما زلت في مرحلة الطفولة، في تلك الأثناء ينام الأطفال كالملائكة، ويستيقظون بهزات هادئة تتفتح أعينهم كالزهور اليانعة ليدفعوا عنهم الغطاء الناعم الدافئ، وبعيون ناعسة يندفعون لدور النظافة الذي يسبق تناول إفطار شهي واصطحاب باقة لا بأس بها من أطعمة مُعدَّة

لهم بعناية، وبمنتهى الحيوية والنشاط ينطلقون نحو يوم تعليمي جديد بذهن متوقد وجسد نشيط.

أما أنا فقد كنت أستيقظ فجرًا بهزات عنيفة أسوأ من تلك التي يفعلها معي الوغد باسم، وبصوت جهوري يفتك بكل ذرات النعاس المتلاعبة بي، والتي تشدني بيأس نحو عالمها المريح والجميل، فأنتفض رعبا، وأنا أدرك جيدًا معنى عدم تلبية نداء أبي بسرعة، فأدفع الغطاء الخشن، وأغادر المرتبة الجافة، وأنطلق مسرعًا للوضوء وصلاة الفجر، وأنا شبه غائب عن الوعي، ثم يصحبني إلى الحقل الصغير، وما زال سواد الليل هو سيد الكون؛ لأنشغل بأعمال شاقة، وأنا مرتدِ زي المدرسة المهترئ، وعند تمام السابعة أحمل حقيبة كتبي القماشية، وأنطلق مسرعًا مبتهجًا بالفرار من هذا الجحيم الذي يجرني أبي إليه كل صباح تاركًا إياه ينعم فيه طالما هو محبًّا له، وبجسد مكدود أجلس على مقعدي بالفصل محاولاً تحصيل أي شيء وغالبًا ما أفشل، ويأتي موعد العذاب عندما يدق جرس الفسحة؛ لأجد مهرجانًا من الأطعمة التي يسيل لها لعابي من شتى الأصناف والألوان، وبكميات أتعجب كيف يتمكنون من التهامها كلها، فأفتح حقيبتي لأجد النذر اليسير الذي توفر لأمي كي تضعه بحقيبتي من الخبز الجاف والجبن المملح بقسوة، وقد عملت بنصيحة جدتي عندما سمعتها ذات يوم تقول لها " إذا أردت ألا ينفذ طعامك بسرعة فلتزيدي من مقدار الملح به؛ فلا يدفعهم لطلب المزيد، وقد انتهكت شهيتهم" سامحك الله يا جدتي على

هذه النصيحة التي عملت بها أمي؛ حتى لقد ظننت بأنها قد تضيف الملح إلى العسل الأسود الذي يشكل وجبة العشاء غالبًا مع نفس الخبز الجاف.

وبالبرغم من العقوبات المتكررة طوال اليوم من المدرسين بسبب عدم تحصيلي أو عمل الواجبات المنزلية إلا أني كنت أتمنى ألا ينفد وقت المدرسة حتى لا أعود مرة أخرى لهذا الشقاء بالعمل المستمر في الحقل مع أبي، والذي أتعجب كيف يظل هكذا طوال يومه يكد بلا وهن فيه، أذكر ذات يوم ونحن نعمل بحقلنا البعيد جدًّا في غير أيام الدراسة، وقد فات وقت العصر، ولم تأت أمي أو أيٍّ من أخواتي الخمس بوجبة الغداء لنا، كان أبي يعمل في إعداد الحقل لزراعة الأرز به، وهذا يستوجب غمره بالماء، ثم تمهيد أرضه الطينية بلوح خشبي كبير؛ حتى يصبح سطح الأرض مستويًا، وبميل يسمح لها بدخول الماء إليه كاملاً؛ حتى يرتوي جيدًا في مواعيد الري الدورية له، في الأحوال العادية المفترض أن يكون هناك دابة نربط هذا اللوح خلفها لتجره، ونحن نضغط على اللوح من الخلف، ولكن لأن هذه الدابة ليست معنا، وأبي لا يطيق تأجير إحداهن فكان يقوم هو بدروها ليجر الحبال الملفتة حول كتفيه وصدره، وأنا بضعفي الذي لا يمكنني من الضغط جيدًا كنت أتماسك فوق اللوح ليجره هو بثقلي المناسب لفعل ما يريد، وعندما مرّ أوان الغداء، وطال المغيب شكوت لأبي الجوع الذي ينال مني، وأصابني بوهن يعجزني عن استكمال العمل معه، وقتها كانت لمحة نادرة منه أن طلب مني الجلوس على مشارف الأرض منتظرًا للغداء، واستكمل

العمل وحده حتى يأتي المدد والوقود الذي يعيدني لمساعدته، ومن شدة جوعي وأسفل شجرة الصفصاف، ومع نسمات الهواء العليلة غرقت في النعاس، ولم أستيقظ الا على هزات أبي ليمد يده لي بثمرة خيار ذابلة لست أدري من أين جاء بها، وبوجهه المكدود، ومن بين تجاعيده المتصببة بالعرق الغزير قال لي:

– خذ يا وفيق هذه وسد جوعك بها يا بني..

لم يكن قلبه صخريًّا كما ظننت قبل، ولهذا وبعد أن أنهيت دراستي المتوسطة كان يظن بأني سأصبح أحد البكوات ذوي الوظيفة الكبرى التي تدر دخلاً ينتشل الأسرة من الفقر المدقع الذي هم فيه، وقتها من كان يرتدي قميصًا وبنطالاً في قريتنا يُعد أحد الوجهاء، ولكن بالطبع لم أجد تلك الوظيفة ذات العائد العالي الذي يطمح إليه أبي كي أساعده في تزويج بناته بل لقد فعلت النقيض !

بدأ ذلك بسبب صداقتي لوجيه الحسيني أحد زملائي في كل فشل لاقيته؛ فبعد أن عدنا من المدينة القريبة بعد رفض جميع المحلات التجارية والمطاعم الشعبية العمل لديهم حتى لو في وظيفة حامل للمخلفات لهم وبأي عائد جلس جانبًا وتنهد بعمق وقال لي:

– هل تعلم يا وفيق لا أمل لنا في هذا البلد، كل من يراك فلاحًا لن تخرج من عينيه نظرة الاستحقار نحوك أبدًا؛ فحتي لو نلنا وظيفة سنكون أهون من يعمل بها، وسيتم طردنا بلا هوادة عندما يجدون البديل ابن الأكرمين من أهل المدينة.

قلت له يائسًا ومرهقًا:

– هل لديك بلدًا آخر نعمل فيه ؟!

فرد بمنتهى البساطة:

– أرض الله واسعة، ولكن فقط فلنجد السبيل إليها،

وكان ذلك بداية التفكير في السفر خارج مصر كلها، ذلك الحل السحري الذي كان يقفز بصاحبه من الفقر وامتطاء النعال البالية إلى الثراء وركوب السيارات الفارهة، وقفت ذات يوم أمام باب أحدهم عائدًا من دولة العراق وفاتحًا حقيبته ليوزع ما بها من هدايا، ولست أدري لمَ لمْ يغلق بابه وتركه مفتوحا متفاخرًا بما يفعل، وكما كان يسيل لعابي نحو أطعمة زملائي بالمدرسة، ومثل ما تكرر انتظاري خلف الأبواب المفتحة، والتي تقذف أحيانا بقشر ثمرات المانجو التي يتناولونها لأسرع خلفها لاعقا ما تبقى من عوالق بها، كانت تزيغ عيناي نحو ما يناله كل فرد من هدايا قادمة من الخارج، هذا له زيٌّ رياضيٌ أحمر، وتلك معطف ثقيل، والآخر مسجل

صغير، وقطع القماش الصوفية للوالدين، كم أنتم عائلة محظوظة بالفعل لديكم الولد الذي تفتحت له الأبواب السحرية، وأفاض عليكم بعضًا مما ظفر به هناك، وأصبح اقتراح وجيه حلمًا كبيرًا لي وهدفًا وحيدًا لا أرى سواه، ولكن عندما طرحته على أبي كان رفضه قاطعًا قائلاً لي:

– يا ولدي دعك من أحلام الغيب إن لم تظفر بالوظيفة التي ترجوها؛ فلدينا الأرض التي يشتاق لها غيرنا، فلتكن مثل الأستاذ عبد السميع مدرس العربي الذي يعمل في مدرسته صباحًا، ويجتهد في حقله مساءً، فالعمل بالحقل ليس عيبًا، وخيراته وفيره، ولا انتهاء لها؛ لأنها منحة من الله إليك مباشرة بلا وسيط.

انفعلت عليه وقتها وقلت له:

– يا أبت أنت تكد فيه منذ مولدك، وبالرغم من ذلك ما زال الفقر هو عائلنا الأكبر، هل يتناسب الجهد الذي تبذله مع العائد الذي تحصل عليه؟! أنت بالكاد تمكنت من تزويج هناء أختي مع اقتراضك لدين ما زلت تسعى لسداده.

نظرة الألم الملتاعة في عينيه مزقتني، وهو يقول:

– سيفرجها الله من عنده أنت سندنا في الحياة ولا طاقة لنا بفراقك.

ظللت أجادله بأن سنده هذا لا قيمة له إن ظل هكذا بلا فائدة، وأن السفر هو الحل السحري الفعلي لكل ما نحن فيه ولم يقتنع.

و لم ينل مني اليأس، فطلبت من وجيه السعي حثيثًا لجلب فرصة سفر لنا سويًّا، وعندما يحين الأوان ستفرج من عنده سبحانه، وبعد أشهر من اللف وزيارة كل عائد من الخارج جاءت لنا الفرصة على طبق من ذهب، كان عبد اللطيف عائدًا من أرض الحجاز عازمًا الاستقرار بعد أن بنى بيتا خرسانيًا جيدًا وأسفله متجر كبير لبيع الأعلاف والمبيدات الحشرية والأسمدة، وقد قرر الاستقرار بعد تحقيق ما كان يطمح إليه، وعندما طلبنا منه التوسط لدى كفيله الذي كان يعمل عنده لنعمل سويًّا أنا ووجيه بنفس وظيفته هناك، وأن نقتسم نفس الراتب، بعد تفكير عميق وافق على وعد بمنحه راتب أول شهرين، وبالطبع هززنا رأسنا بالإيجاب غير مصدقين اقتراب تحقق الحلم، وكان من اليسير عليه إقناع كفيله بجلب يدين عاملتين بدلاً من واحدة وبأقل من السعر الذي كان يعمل به.

كنا نظن بأن مصاعبنا قد انتهت بمجرد العثور على الوظيفة، ولكن تكاليف السفر الباهظة، وثمن تصريح دخول البلاد، والإقامة فيها كان قاتلاً ولا قِبل لنا به، أُسقط في يدي إذا كان أبي يرفض مجرد فكرة السفر، فكيف سيجلب لي هذا المبلغ الخيالي وقتها ؟!

ولذا قررت الاستعانة بفريق لتنفيذ الفكرة التي وردت إليّ إنها جدتي أم أبي ومعها أمي.

أقنعتهما بأن بيع قيراط واحد من أرضنا سيعود عليهم بعدة أفدنة مستقبلاً، ويكفي نعمة حج بيت الله الحرام الذي سوف أيسره لهم بتواجدي هناك في تلك البقاع الطاهرة على حسب ظني وقتها.

وقد نجحتا ببراعة، وبعد شهر واحد كنت برفقة وجيه أستقل باخرة تمخر عباب البحر الأحمر لتعبر بي نحو الجانب الآخر من العالم السحري الذي سيرفعني إلى عنان السماء.

وبدأت المرحلة الثانية من المعاناة، والتي لم أكن أتخيل هولها، قبلُ كنت أعمل مع والدي، وإن قصرت فلدي اليقين بأنه سيجبر كسري، وإن أهملت سيصلح ما أفسدت أنا، وأقصى ما ينالني بعد ذلك هو التوبيخ فقط، كان أبي بالنسبة لي حائط الأمان ودرع الاطمئنان الذي يجعلني لا أحمل همًّا، وكما يندهش الطفل عند اكتشافه بأن هناك أفقا جديد يفوق جنبات بيته حين يتطلع للشارع وما فيه من بشر ومتاجر ومساكن فقد كان اندهاشي باكتشافي لعوالم أخرى، وطبائع جديدة، وثقافات لم أألفها من قبل، وكانت أولى المفاجآت أننا لم نذهب للوظيفة التي اتفقنا عليها بالعقد؛ وهي كاتب حسابات بالنسبة لي، ومراجع بالنسبة لوجيه، وإنما كانت الوظيفة التي إن لم تعجبنا لنعد أدراجنا على الفور هي العمل في مزرعة نخيل كبرى رعاية

وتلقيحًا وتشظيبًا وجنيًا، وكل ما يخصه من أعمال زراعية ظننت مخطئًا بأنني قد هربت من جحيمها مع أبي لأجد نفسي هنا في مهام لم أطرقها من قبل، أنا الذي تعلمت ودرست وأجيد القراءة والكتابة وبعض العمليات الحسابية من المفترض أني أحد الوجهاء بقريتي هل يصبح هذا حالي عاملاً زراعيًا لا أفرق شيئًا عن نبيل الجهيني الأردني، والذي كان معنا ولا يجيد القراءة والكتابة أبدًا، والعجيب أن راتبه كان أعلى منا بسبب قدم عمله في المزرعة؛ ولأنه من سيعلمنا كل شيء، أنا الذي بسبب حادثة سقوطي من أعلى سطح بيتنا أصبت بالخوف المرضي من المرتفعات أصبح كل عملي ارتقاء تلك المرتفعات عبر الصعود لجني التمر والبلح من مقره بأعلى النخيل ؟!

لم يكن هناك مجال للتفكير أو التردد، ولا توجد لمحة أو فرصة للتراجع، مرغمًا يجب أن أقبل بصمت، وخوفي هذا يجب قتله بصدري دون أن يدرك به صاحب العمل، والذي قد يفصلني، ويعيدني على أول باخرة مغادرة، ولكن رصيدي من العنت كان ذخرًا لي ومعينًا على التحمل والصبر على أي مشاق أو أهوال قد تواجهني، فلن تجد ذلاً أكبر من قهر الجوع، ولن ينال مني تعب قدر العمل من الفجر حتى آذان المغرب دون توقف مع أبي بالحقل، الفارق أن هناك دافعًا جيدًا هذه المرة، وهو راتب ٨٠٠ ريال سعودي شهريًا لن أنفق منهم أكثر من مائتي ريال فقط في حالة البذخ.

عملت وتغلبت وقهرت كل المعوقات، والمثبطات التي قد تفشل خططي المستقبلية، فبعد اكتشافي بأن عبد اللطيف إنما قد ارتقى، وأصبح صاحب بيت خرساني، ومتجر يدر عليه الربح الوفير كانت هذه هي وظيفته الفعلية، وليس مديرًا عامًا لقطاع كبير من الأعمال الإدارية كما يظهر عليه بالقرية عندنا، بعد هذا أصبح حلم تحقيق ما وصل إليه ماثلاً بين عينيّ، وبعدها تبدأ الراحة إن شاء الله.

ولكن دائما ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فبعد ستة أشهر غادرنا نبيل الجهيني عائدًا إلى موطنه الأردن بعد أن تعلمنا منه أدق أسرار وتفاصيل رعاية النخيل، ومخطئين ظننا بأنا سنقتسم راتبه بعد أن نقوم بما كان يفعله زيادة على مهامنا التي اعتدنا عليها رغم كثرتها ومشاقها، ولكن صاحب العمل لم يقبل بذلك، فمن وجهة نظره خطر كبير أن يوكل أمر مزرعته لصديقين من جنسية واحدة، ولهذا بعد أسبوع واحد جاءنا الشيخ بسّام السوري من ريف دمشق، كان طيبًا ودودًا رغم العرق الغزير، وأنفاسه المتلاحقة كانت البسمة مقيمةً على وجهه، ولسانه لا يفتر عن ذكر الله أبدًا، وهو الذي ذكَّرنا بالصلاة التي تناسيناها بسبب الجهد الكبير وحاجتنا للراحة أكثر من الصلاة على حسب ظننا وقتها، كان بسّام يبلغ من العمر اثنين وخمسين عامًا ولديه قصصًا، وحكاياتٍ لا تنتهي أبدًا لذا كانت راحتنا دائما على جانبيه؛ لنسمع منه ذكرياته العجيبة، والتي منها هروبه المدهش من

مذبحة حُماة التي قام بها الأسد عام ١٩٨٢، وقد ماتت زوجته الأولى أثناء عملية الهروب هذه.

ولكن في يوم عندما سألني عن أهلي قلت له:

– أبي رجل طاعن بلغ الستين يعمل في أرضه وحده الآن

، وإذا به يقذفني بجملة غيرت كل مسار حياتي فقد قال:

– ولكن أمك وأخواتك حتمًا لبؤات جيدات، ويساعدنه

دارت رأسي بمفاجأة سماع تلك الإهانة لأمي وأخواتي، ولم أجد الوقت الكافي للتعجب من كيفية تلفظه بها، ولا كيف نال منهن بمثل هذه الجرأة الغريبة، وفي أقل من الثانية كنت قد تلقفت حجرًا، وبمنتصف رأسه سال الدم على إثر ضربه به ليقع متكومًا أمامنا مفارقًا الوعي وربما الحياة.

وقف وجيه ذاهلاً بأكثر مما يحتويني وقال لي:

– ماذا فعلت أيها المجنون ؟!

ارتعدت، وقد أدركت جرم ما فعلت، وقلت له:

– ألم تسمع ما قال ؟!.. كيف بهذه البساطة يسب أمي وأخواتي ؟!

لطم وجيه خديه بكفيه وقال:

- ليتك صبرت عليه أيها الأحمق هذه الكلمة إنما هي مديح في ثقافتهم بسوريا، وليست سبًا !

لم يكن لدي التركيز، ولا العقل الذي يبحث عن خطأ فعلي من عدمه، ما يهمني الآن هو الإفلات من هذه المصيبة فقلت له:

- ماذا أفعل هل أهرب ؟!...

فقال بحيرة وهو يقلب كفيه:

- إن كان ميتا فلتفلت بجلدك لأنك قتلته متعمدًا، وسوف يطيرون رقبتك هنا مقابل هذه الجريمة، أما إن كان مصابًا فقط؛ فيجب أن نذهب به مسرعين الآن للمستشفى قبل أن يغادر الحياة، ويُقضَي عليك.

ولهذا بعد ساعة واحدة كنا به في أقرب مستشفى بعد أن عاينت دقات قلبه بوضع أذني على صدره، وهناك بسرعة تم استدعاء الشرطة لتقتادني إلى مصير ذهبت إليه بقدماي، وعندما سألتهم مرتاعًا عنه قالوا لي:

- صلْ وادع أن يستفيق وإلا ستتحمل وزر ما فعلت كاملاً

، وبعد تسجيل محضر به كل بياناتي، وسحب جواز سفري لديهم تم احتجازي بغرفة لا أملك إلا أن أقول كانت أكثر من رائعة لم أحلم يومًا بأن أسكن بيتا أنيقا مثلها، تم صرف ثوبا نظيفا معطرا لي شعرت بالبهجة، وأنا أرتديه وبعد قليل جائتني وجبة طعام بها الكثير من اللحم، دهشت وأنا أستكمل رحلة استكشاف المجهول هذه فلو كنت بنقطة شرطة قريتنا لنلت من العذاب ألوانا، واجترعت الذل كئوسا قبل حتى معرفة التهمة الموجهة لي، وربما واجهت الموت بمثل ما نحن فيه الآن، ولولا الخوف من مصير الشيخ بسّام، وأن تصبح الجريمة هي القتل العمد لقلت بأني سعيد بمثل هذه الإجازة من مشاق الحياة التي لم أر سواها في حياتي، ظللت في زنزانتي يومين بلا معلومات مفيدة عن مصير الرجل، ولكن مع تلك الرعاية الفندقية الرائعة، وفي اليوم الثالث جاءني ضيف مرافق لي في زنزانتي، شاب سعودي يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا اسمه مالك الشهري كل تهمته أنه لم يحترم إشارة المرور، وتجاوزها بعد غلقها، ولم تكن معه أوراق هوية؛ فتم حجزه حتى الاتصال بأهله، كان مالك ثملاً بشكل عجيب؛ فهو يحدثني، ولكن بعد دقيقتين ينطق بكلمات لا مدلول لها وعندما أسأله عما به يندهش ويقول:

- ليس بي شيء لم تسألني هكذا ؟!

لم أكن مطمئنًا له، وبالفعل فقد حاول أن يزيد مصائبي مصيبةً جديدة، وذلك عندما ارتمي متمددًا أرضا فجأة، ويداه ممدودتان إلى جوراه، وبدأ في التشنج، وعيناه شاخصتان لأعلى، وقد بدأت بعض الإفرازات البيضاء تخرج من فيه، لطمت وأنا أقول له:

– ماذا بك يا مالك ؟ مقتل اثنين دفعة واحدة !! إن أفلت من الأول لن أهرب من الثاني !

بدأت في طرق باب الزنزانة صارخًا ومناديًا على الحارس الذي لم يعيرني انتباها، وغالبا لعدم سماعه لي، فما كان مني إلا محاولة التصرف قبل أن يموت، ويُلصق بي تهمة قتله، وكان أول ما تبادر لذهني هو محاولة تنظيف فمه من تلك الإفرازات، مددت سبابتي وقد لففتها بمنديلي القماشي، وحاولت سحب تلك الإفرازات من الداخل للخارج، وكانت دهشتي عندما وجدت كبسولة حمراء لعقار ما لا أعلمه، وعلى الفور تبادر لذهني أنه قد ابتلع الكثير من دواء ما هو ما تسبب له في ذلك، تبا لك ألا يحلو لك الانتحار إلا معي، ولم يخطر ببالي السبب الحقيقي، وهو أنه ابتلع إياها عند توقيفه حتى لا تصبح تهمة اختراق إشارة المرور السهلة معها تهمة حيازة أدوية مخدرة كذلك، والتي لها مالها من جرم وعواقب.

عندما أدركت سبب ما هو فيه بأنه ابتلع ما ابتلع أيا كان السبب أو الدافع على الفور فعلت ما رأيت أمي يوما تقوم به عندما ابتلعت أختي الصغرى

ثلاث حبات دواء ظنا منها أنه نوع من الحلوى، فعدلت وضعه ليكون مستلقيا على جانبه، ودفعت بسبابتي لمنتهاها، وضغطت على مؤخرة لسانه، ومع تتابع الضغط بدأ في القيء طاردا كل ما تحويه معدته من طعام، وكبسولات كثيرة متعددة الألوان، وقد سارت في طريق الذوبان، لم يكن ذلك كافياً بالطبع فمعنى بدء التشنجات أن التسمم بالأدوية قد بدأ في السريان بدمائه، ولهذا أخذت أعيد الطرق والصراخ مرات ومرات حتى ظهر الحارس أخيرًا؛ ليسرع في عمليه نقله للمستشفى بسرعة، وأخذ أقوالي، وقام بتصوير قيء مالك المتكوم على أرض الزنزانة؛ مما يعد دليلا لبراءتي هذه المرة.

وجاء الفرج بعدها بسويعات؛ فقد أفاق الشيخ بسّام من إغمائته، وصرح بعفوه عني، وأنه هو من أخطأ في حقي أولا، وذلك بالطبع بعد أن أوضح له وجيه كيف أن كلمة لبؤة هذه عندنا إهانة مبتذلة في حق المرأة على نقيض الحال عندهم، ظننت بهذا أن الحياة ستعود لما كانت عليه مع الكثير من الحرص بعد ذلك، ولكن صاحب العمل لم يرق له استعدادي للقتل بهذه البساطة، ولذا كان كريمًا معي بعدم سيره في إجراءات ترحيلي خارج البلد كله، وترك لي فرصة البحث عن عمل آخر، وهذا ما كان خارج طاقتي بالفعل، فكيف أبحث عن عمل هنا في تلك الأرض الغريبة؛ فأنا لم أغادر المزرعة منذ مقدمي إلا مرتين إحداهما للسجن، والأخرى يوم أن رافقت

سائق إحدى الشاحنات في رحلة ذهاب وإياب، ووقتها لم تر عيني إلا الرمال الصفراء في غالب المسار الذي سلكناه !

ولم أكن أدري بأن هناك هدية كبرى تنتظرني، فبينما أنا جالس في الحجرة التي سمح لي صاحب العمل بالبقاء فيها حتى آخر الشهر فقط، وبعدها يجب أن أذهب لحال سبيلي سواءً وجدت عملاً أم لا، كنت جالسًا واضعًا خدي الأيمن على كفي مستصعبًا، وأبكي حالي وحظي العاثر، إذا بوجيه قادم مسرعا، وهو ينكفئ تارة، ويصيح أخرى مناديا عليّ، وصوته مغلف بفرحة كبرى لا أدري سببها، ظننت أن صاحب العمل حتمًا قد سامحني، وعفا عني، ورق قلبه لحالي، وسمح لي بالعودة لوظيفتي التي لم أكن أدرك قيمتها إلا بعد مفارقتها، ولكنه صاح بي قائلا:

- أسرع لمقابلة ضيوفك يا ابن المحظوظة.

لم أدرك للوهلة الأولى عن أي ضيوف يتحدث، في قريتي لم يكن لي من يزورني لضيق البيت، وحاله المزري فهل يأتيني ضيوف هنا، وأنا لم أتعامل مع أكثر من سبعة أفراد !!

ولكن كانت المفاجأة السارة، والمدهشة؛ فالزيارة بالفعل لأحد هؤلاء السبعة، والذي جمعتني به صدفة عجيبة، إنه مالك الشهري الابن الوحيد لأحد مشايخ قبيلة بني شهر الكبرى بجنوب البلاد، ولأنه الوحيد بعد تسع

بنات؛ فكان حظه من الدلال مبالغًا، وكاد أن يفارق الحياة لولا وجودي معه بالزنزانة في لحظاته الأخيرة، وعندما أخبر الطبيب أهله بأن ما فعلته هو الشيء الوحيد الذي أنقذ حياته جاء الشيخ بصحبة ولده ليشكرني، ويعرض علي مكافأة مقابل ذلك، وبالطبع رغم شدة فرحتي لم يكن لي سوى مطلب واحد، وهو وظيفة بدلاً من عملي الذي فقدته، وكانت تلك النقلة الأولى هناك التي أصبحت سببا في سعادتي وشقائي في نفس الوقت، فلم أكن أدري بأن وظيفتي الجديدة كمحاسب متوسط في أحد مخازن الشيخ سيرفع مستوى الأهوال إلى شكل غير مسبوق، وذلك عبر عينين سوداوين قاتلتين لفتاة ساحرة اسمها عنود !

اصطحبني الشيخ في سيارته برفقه ولده مالك بعد أن جمعت أشيائي القليلة في أقل من لمح البصر؛ لأنطلق معه غير مضيع للفرصة التي منحها لي بموافقته على العمل لديه، ولأول مرة أشعر بمدى قيمة وجيه بالنسبة لي، ومثل ما علمت مقدار أبي بعد مفارقته أدركت كيف كان وجيه سندًا لي في كل شيء، فارق كبير بين وحدتك ومواجهتك للمجهول منفردًا، وبين وجود شريك لك يتقاسم معك كل شيء من ضعف وقلة حيلة وخوف، وكأن الضعف يقوي بعضه بعضًا لمنح شيء من القوة، على كاهل من سوف ألقي عبء فشلي رغم يقيني بعدم قدرته على دفع شيء !!

مجرد تواجده معي، ورؤيته كانت تمنحني قدرا لا بأس به من الاستقرار، وكأن رؤيتك لآخر يشاركك نفس المصير يمنحك الكثير من الرضا بما تؤول إليه الأحداث.

احتضنته وسالت دمعة كبيرة لم أفلح في مقاومتها، وأخبرته بأني حتما سأعود لرؤيته قريبا، ولكن كانت على سبيل المواساة؛ لأني بالفعل لا أدري هل سأراه مرة أخرى أم لا.

انطلقت السيارة الفارهة بنا قرابة الساعتين حتى وصلنا لمبنى مكون من طابق واحد، ولكن على مساحة شاسعة، لها سور متوسط يحيط بها كلها، والمبني يتوسط ما يشبه الحديقة من جميع الجهات، والتي لا يوجد بها إلا القليل من الأشجار الخضراء الوارفة، والكثير من الجذوع المقطعة بعناية ودقة في بعض الأركان، فتح لنا العامل الهندي الباب لتكمل السيارة مسيرتها حتى الباب الداخلي لهذا المبنى؛ لتتوقف بجواره، وهبطت من السيارة مستطلعا المكان حولي، وأنا أحمل حقيبتي الضخمة، نادي الشيخ على شخص يسمى سليمان، وسأله قائلا:

- هل عنود هنا ؟

وعندما أجابه سليمان بالنفي، وأنها لم تأت هذا اليوم سأله مجددا قائلا:

- هل استراحتها منسقة جيدًا ؟

أومأ سليمان مجيبا بأن نعم، فقال له الشيخ:

– فلتصحب وفيق إليها.

ثم التفت نحوي، وقال:

– إقامتك هذه مؤقتة لمدة يومين فقط؛ حتى نعد لك غرفة خاصة في آخر المبنى، فلا تبتئس عندما تنتقل من الاستراحة إلى الغرفة التي ستكون أقل كثيرًا مما ستراه الآن، ولا تفكر في العبث بمحتوى الاستراحة، وإلا نالك الويل والثبور من صاحبته، هذا حل لابد منه؛ لأننا لم نعد العدة لمفاجأتنا بمجيئك معنا.

أوصى سليمان بي حتى صباح الغد، ووعدني بأنه سيشرح لي كل شيء، ويكشف لي أبعاد وظيفتي الجديدة فيه.

صحبني سليمان متوجسا نحو غرفة واسعة بمقدمة المبنى لها حماما خاصا داخليا بها، ومفروشة بأثاث خفيف، ويوجد بها مكتبة صغيرة بها العديد من الكتب، ومكتب عليه مصباح خاص به، ويحوي الكثير من الأدراج، وكان هناك من الأجهزة الإليكترونية تلفاز، ومسجل، وثلاجة صغيرة، وهاتف، وموقد صغير أسفل الشباك الوحيد بها، كنت أراها منزلا متكاملا لو ملكت مثله يوما لن أرغب بشيء آخر من الدنيا، فلو فكرت في تجهيز بيت زوجية جديد كهذا حتما سأفشل.

ما إن وضعت حقيبتي، وأنا اتطلع ذاهلا لمحتوى الغرفة حتى تنحنح سليمان قائلا:

- سوف آتي لك بوجبة الغداء بعد ساعة واحدة، هل ترغب بأي شيء آخر.

قلبت كفيّ بكل تعجب، وماذا عساي أطلب، أو أرغب فيه بعد كل هذا، فتمتمت شاكرا له بأن هذا أكثر مما أحلم به؛

فتجرأ سليمان، وسألني قائلا:

- معذرة لسؤالي التالي.. هل أنت من أقرباء الشيخ ؟!

هززت رأسي بقوة نافيا ذلك، وقلت له:

- لا على الإطلاق..

تعجب سليمان من قوة نفييّ لهذا، وكأنما هذا شيء سيوصمني، وبدلا من قتل حيرته ازدادت بداخله، وتضاعفت رهبته نحوي، ورأيت في عينيه التساؤل الذي فشل في طرحه بلسانه.. إن لم أكن من الأسرة فمن أنا، ولم هذه العناية الخاصة، والتي جعلت الشيخ يأتي بنفسه في إحدى المرات النادرة ليوصلني، ويوصي بي بل وقد وعد باللقاء في الصباح الباكر، لم أكن

متمرسا وقتها على استثمار المواقف، وكنت على طبيعتي الساذجة، ولهذا عدم إفصاحي وقتها عن هويتي، وحالي مع الشيخ لم يكن لزرع الرهبة أكثر نحوي؛ حتى يتوجس الجميع مني، ولا يقدموا على ما يضرني إلا بعد حسابات مطولة للعواقب التي قد تنولهم؛ وإنما فقط لأني لم أدرك هل يحق لي محادثة الناس هنا، والتبسط معهم أم لا، وهل سيكون ذلك تدخلا في شئونهم مني؟ فما زلت أحفظ وصية أبي الخالدة.. "إذا لم تعلم ما الواجب قوله؛ فالزم الصمت؛ لأنه خير مقال وقتها".. لذا كان الدافع لصمتي هو جهلي بالمتوجب عليّ قوله فقط.

عملت بوصية الشيخ، ولم أحاول استطلاع الغرفة، أو التلاعب بما فيها حتى الثلاجة لم أقترب من بابها، ولأول مرة نمت نوما عميقا استغرقني النهار بأكمله، ولم استيقظ إلا على طرقات سليمان لمنحي وجبة العشاء الشهية بأكثر من وجبة الغداء التي جاء بها قبلا، وبعدها فتحت التلفاز، وأنا مستلق على السرير الوثير، ويداخلني شعور بأني ملك متوج؛ فلأول مرة في حياتي يلفني مثل هذا الاطمئنان والرفاهية، وعدت للنوم بسرعة ملتهما منه أكثر ما يمكنني، فلست أدري بعد صباح الغد هل سأجد مثل هذه الفرصة مرة أخرى أم لا، وجاء الصباح لأجد طرقا عنيفا على الباب جعلني انتفض رعبا؛ كأنما قد عدت لمرحلة العذاب الصباحي على يد أبي مرة أخرى، قمت متعثرا لفتحه، وأنا أرد بصوت خامل بأني قادم، وعندما فتحت الباب

محاولاً النظر بعيني النصف مغمضتين نحو سليمان متسائلاً بصمت عما هناك، ليقول لي بفزع:

– ارتدي ثيابك، وتعالى بسرعة عند البوابة...

وتركني وانطلق تاركًا الحيرة، والفزع ينالان مني، وأنا أحاول فاشلاً أن أرتدي ثيابي بأسرع ما أملك، وأخيرًا خرجت مهرولا نحو البوابة متوقعا وجود كارثة أو حريقا هائلاً يلتهم المكان كله؛ فأنا أعلم حظي العاثر هذا، ولكن وجدت سيارة فارهة لا تفرق كثيرا عن سيارة الشيخ، ولكن زاد عليها أن زجاجها كان قاتما يخفي من بداخلها، وسليمان واقف أمامها بذل، وبرأس منكسرة لست أدري لماذا شعرت كأن هناك تفتيشا حكوميا من جهة أمنية كبرى عن العمالة في هذه المنطقة، والتي أعلم بأنها إن تمت مهما كان موقفك سليما حتما سيجدون خطأً يجب محاسبتك عليه، وقفت بجواره وأنا أسأله بأنفاس متقطعة:

– ماذا هناك يا سليمان ؟!

ولكن لم يتفوه سليمان بحرف، وإنما بدأ زجاج السيارة الخلفي، والذي كنت بجواره في الهبوط ببطء ليظهر وراءه كائنا متشحا بالسواد خلف السائق الباكستاني، ولم يكن يظهر منه إلا عينان سوداوان ضيقتان في صرامة، وخرج الصوت قائلا بنقمة:

– أنت.. كيف سمحت لنفسك بدخول الاستراحة الخاصة بي ؟

إذاً أنت عنود، والتي حذرني الشيخ من الويل والثبور إن مسست ركنا من استراحتك، ولكن يبدو أن هذا المساس كان يشمل مجرد الدخول إليها، قلت بصوت مرتجف:

– الشيخ هو من أشار بدخولي لها، وأنا جديد هنا لا أعلم شيئا، وآسف لو كنت تخطيت حدودي دون علم مني بالواجب أو الأصول.

لان صوتها كثيرا، ولم أحاول مجرد التطلع نحو عينيها مرة أخرى بعد انكسار بصري عن رؤيتي لمطلعها في أول ثانيتين، وقالت:

– حسنا.. اصحبه يا سليمان إلى مكتب المخزن الخلفي

، وعاد الزجاج لرحلته الصاعدة، وأمسك سليمان بيدي؛ ليجرني بسرعة من جوار السيارة التي بدأت التحرك؛ لترتكن بنفس الموضع الذي أوقف الشيخ سيارته فيه بالأمس، وذهبنا نحو مؤخرة المبنى، والذي لم أعلم ما يحويه حتى هذه اللحظة؛ ليسألني سليمان مباشرة قائلاً:

– من أنت ؟!

بمنتهى البساطة قلت له:

– أنا وفيق..

وكأنما قد وصل لكل ما يبغيه من معارف هزَّ رأسه راضيا، وأكمل سيره بي حتى المدخل الخلفي، والذي أظهر لي طبيعة المكان؛ فلم يكن سوى مخزن كبير للأخشاب ضمن أحد تجارات الشيخ المختلفة، وعلمت فيما بعد أن عنود هذه، والتي تعدت سن الثلاثين بلا زواج صاحبة الشخصية القوية، والقيادية أكثر من الرجال هي التي تدير، وتشرف على هذا المخزن في سابقة نادرا ما تجدها بين النساء في هذا البلد، وخاصة في العائلات الكبرى مثل هذه العائلة، وعلمت فيما بعد أيضا بما دار بينها، وبين أبيها من مكالمة صارخة بشأني، وكيف سمح لي بالمكث باستراحتها بهذه البساطة، وفيها الكثير مما يخصها، ولا يجوز أن يطلع عليه أحد، ولم يهدئ من روعها محاولة أبيها طمأنتها بمعرفته بمعادن الناس، وأنه لمس فيّ الطيبة والبساطة، وأني كنت سببا لإنقاذ حياة أخيها الوحيد، وكان يجب عليه إكرامي، وتسببت هذه المكالمة في منع مجيء الشيخ بعد أن أخبرته عنود بأنها قد تسلمتني منه، ولا يقلق بشأني طالما اختار له العمل في هذا المخزن، وليتركها بمملكتها تتصرف فيها كيف تشاء كما اعتادت، كنت أجلس على كرسي خيرزاني أمام مكتب أنيق مترقبا المجهول، فدخلت عليَّ بخطوات قوية واثقة، وبلا تحية من أي نوع توجهت لتجلس خلف المكتب، وبلا مقدمات أيضا قالت:

– انظر يا هذا إنقاذك لأخي وتكريم أبي لك شيء، والعمل شيء آخر تماما لا عواطف أو مشاعر فيه، فهل أنت على قدر تحمل مسئولية مشاق عملك أم أنك جالس، وكلك طمع في التجاوز عن تقصيرك مهما فعلت ؟!

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي تحدثني فيها امرأة بمثل هذا العنف، ولكني أسرعت في الإجابة قائلا:

– لا والله أنا قادم للعمل، وليس لي أية أطماع، ولن يكون هناك أي تقصير بإذن الله.

تنهدت وعادت بظهرها للخلف، وقالت:

– حسنا ما هي مؤهلاتك ؟

قلت بتردد كبير:

– أنا حاصل على دبلوم تجارة أجيد القراءة والكتابة والحسابات

هزت رأسها دلالة رضاها، وقالت:

– رائع جدا أن يكون لك دراسات عليا بعد تخرجك من كلية التجارة.

تنحنحت بقوة، وقلت:

– تعليمي متوسط فلم أدخل أية كلية.

ارتفع صوتها مرة أخرى، وقالت:

– ماذا ؟! أين عملت قبل مجيئك هنا ؟

ابتلعت ريقي بصعوبة، وقلت:

– الشيخ يعلم كل شيء، وقرر أني سأعمل...

قاطعتني بحروف تقطر قسوة، وصرامة قائلة:

– أنت هنا تعمل لديَّ أنا، إن لم يعجبك؛ فلتذهب إلى الشيخ مباشرة، وأخبره أنك لست على قدر العمل معي.

كدت أن أبكي، وقد شعرت بتسرب الأمل أسرع من تسرب الماء من خلال أصابعي، وقلت لها بتذلل:

– جربيني في العمل، وإن وجدت عجزا أو تقصيرا افعلي بي ما تشائين.

صمتت هنيهة، وهزت رأسها، وقالت:

– اقتراحك مقبول.

وأشارت خلفي قائلة:

- الملف الأزرق هناك أحضره، وضعه أمامي هنا.

قمت مسرعا ملبيا طلبها، وجئت به في لمح البصر، ووضعته بعنايه أمامها، وهي ترقبني في صمت لم أتجرأ على الجلوس ثانية إلا بأمرها، ويبدو أن ذلك راق لها، فاستمتعت أكثر بتركي واقفا، ومدت يدها ببطء لتفتح الملف، وتخرج منه عدة وريقات وضعتها جانبا، ثم أغلقت الملف، ودفعته نحوي قائلةً:

- هذا الملف يشمل حركة دخول وخروج الأخشاب للمخزن بمختلف أنواعها وأوزانها في خلال الأسبوع الماضي ستجد في أول ورقة الرصيد المتبقى من الأسبوع السابق، أريد منك عمل جميع الحسابات لتخرج لي الرصيد المتبقى للأسبوع التالي.

مددت يدي المرتعشة من التوتر؛ لأتناول الملف، والخوف من هذا الاختبار المصيري يفتك بي، وقلت باضطراب:

- حسنا إلى أين أتوجه به كي أقوم بحساباتي هذه ؟

قامت من موضعها، وتحركت من خلف المكتب، وقالت:

– ستجلس على هذا المكتب، وعندما تنهي أعمالك أرسل الملف لي، وبه الناتج النهائي مع سليمان.

وتناولت الوريقات التي أخرجتها من الملف، وصحبتها معها وانطلقت خارجة.

تنفست الصعداء فور خروجها، وقد شعرت بزوال حجر عثرة كبير من فوق صدري، وفتحت الملف، وظللت قرابة الساعة فقط أحاول فهم كيفية التسجيل التي كانت تتنوع من ورقة لأخري على حسب نوع الأخشاب الصادرة والواردة، واستغرق الأمر مني ساعتين كاملتين قمت بحساب الصادر والوارد لكل يوم منفصل، وناقلا الرصيد النهائي من كل يوم إلى اليوم التالي له، وأخيرا تنهدت بقوة، وقد وصلت للرصيد النهائي، ولكن لأن الأمر لا يحتمل الخطأ مع هذه المرأة؛ فقد راجعت العمليات الحسابية كلها خمس مرات أخري في خلال ساعة إضافية، وأخيرًا حملت الناتج، وخرجت باحثا عن سليمان، ووجدته يتصبب عرقا أكثر مني، وهو منطلق بسرعة لأمر ما لست أدري ما هو، ولم يرد سوى على ندائي الثالث بضجر قائلاً: ماذا تريد الآن ؟

قلت له بعناية:

– أوصل هذه الحسابات للهانم.

تناول الوريقات مني صامتا، وانطلق دون أن يرد عليّ، وقفت مترددا، ولست أدري ماذا أفعل أو إلى أين أذهب، ولم أجد بدًّا من الرجوع للمكتب الذي كنت أعمل عليه، وجلست على الكرسي أمام المكتب، وليس خلفه، ودقات قلبي تزداد بتصاعد، وأنا لا أتوقف عن فرك كفاي ببعضهما البعض، ترى ماذا سيكون مصيري الآن ؟ هل ستعجب بآدائي، وتقبل تعييني معها أم ستتصل بأبيها لتخبره بفشلي التام، وأني لا أصلح لأي عمل معهم ليطردني الشيخ بعد أن يمنحني مبلغا حتما لن يزيد عن الألف ريال، وبهذا سيكون جميع ما ادخرته منذ مقدمي بعد دفع راتب الشهرين الأولين لعبد اللطيف مقابل جلبه لعقد العمل لنا بالكاد يكفي مصاريف عودتي دون حتى بعض الهدايا لأهلي هناك، وبهذا سيكون أمر قتلي مستساغا جدا، ولا يمكنني معارضته بعد أن ضيعت جزءا من الأرض مقابل وهم كبير، وقد تبخر الأمل في حج بيت الله الحرام لأمي وجدتي، هل يملك هذا الشيخ مزارع نخيل لأعمل بها، وقد تعلمت كل فنونها ؟ ياللعجب وظيفة الفلاح التي فررت منها أصبحت أمنية صعبة المنال لي الآن، كيف يتبدل الحال، وتتغير القناعات بهذه السرعة ؟! هل الحاجة تكسر بنا كل الأحلام، وتنتهك أذواقنا واختياراتنا لهذه الدرجة ؟!

ساعتان كاملتان تضورت فيهما عطشا وجوعا، وقد فات وقت الغداء، ولم يفكر سليمان الوغد في المرور عليّ لسؤالي عما أحتاج، وأخيرا ظهرت عنود، وخلفها السائق الباكستاني الطاعن في السن المرافق لها كظلها كأنما

هو حارسها الخاص ليقف وقفته الثابتة، والجامدة على الباب كما كان في المرة السالفة، ودخلت هي بلا تحية أيضا لتجلس خلف المكتب على كرسيها الوثير، ومن خلف النقاب، وبعينيها القويتين نظرت نحوي طويلا، وقد أصبحت أنا كقشة في مهب الريح أنتظر كلمة منها تحدد مصيري، وكلي تعجب لماذا تفعل هذا معي هل أسأت لها في شيء ؟ ربما هناك خلاف كبير بينها وبين أخيها الذي تسببت في إنقاذ حياته، ولهذا تنتقم مني بسبب ما أجرمت من وجهة نظرها !!.. وأخيرا نطقت قائلة:

- رائع يا وفيق حساباتك دقيقة جدًّا، والطريقة التي فعلت بها ذلك جديدة وسهلة، وأفضل بكثير مما فعلت أنا.

كدت أن أصرخ طربا لكلماتها هذه، ولم أستطع النطق بسبب ارتعاد شفتيّ وارتجاج كياني، وأخيرا قلت بصوت متهدج:

- هل أصلح للوظيفة ؟!...

لمحت بشائر الابتسامة على وجهها بمنطقة العينين اللتين لا أرى سواهما، وكان من الواضح جدا أنها قد راق لها ما فعلته بي، وقالت:

- كم كان راتبك السابق ؟

خفت أن أخبرها بأني كنت أعمل في مزرعة للنخيل كأمل في أن تجعل الراتب الجديد متناسبا للوظيفة الجديدة حتى لا تغير رأيها فقلت لها مسرعا وبلا تفكير:

- ٨٠٠ ريال مع السكن فقط.

ضحكت ضحكة قصيرة برنة أراحتني جدا، وقالت:

- راتبك هنا سيكون ١٠٠٠ ريال مع السكن والمأكل والمشرب كذلك.

صحت فرحا لهذا التطور الرائع، وقلت لها أيضا بلا تفكير: أنا بالفعل جائع جدا...

تكررت ضحكتها القصيرة الجميلة، وقد تحولت بناظري إلى ملكة طيبة بعد أن كانت إمبراطورا قاسيا، وقالت لي:

- سأرسل لك سليمان بوجبة دسمة تستحقها بعد الجهد الذي بذلته اليوم، ويمكنك الذهاب للراحة في الغرفة التي يقيم هو بها، والتي ستصبح محل سكنك الجديد.

ترددت، وقد تذكرت ما غاب عني، وقلت:

- حقيبتي وأشيائي باستراحتك هل يمكنني استردادها ؟

قامت واقفة وهمت بالانطلاق، وهي تقول:

– سيأتيك سليمان بها، وستجد فيها أوراقك ونقودك كما هي، أما الخرق البالية التي كنت تسميها أثوابا فقد قمت بحرقها.

كدت أن أسبها، ولكن تداركت نفسي مسرعا بعد أن عاد لي الوعي بسرعة لينبأني مع من أتحدث، فمهما فعلت هي فلها الحق في كل ما تشاء، أنا هنا عبد للحاجة التي تجعلني أتقبل أي شيء المهم أن يستمر عملي، والعائد المادي منه، ولكنها فاجأتني قائلة:

– لك ثلاثمائة ريال هدية سيذهب بك عدنان لتتسوق ملابس جديدة تليق بوظيفتك، وعملك معي.

للمرة الثانية تصدمني هذه المرأة بما لا أتوقع، يبدو أن هذا هو دأبها أن تأتيك من حيث لا تدري، ولكن راقني ما فعلته معي جدًّا، وأسعدني بالفعل، وجاءني سليمان بنفس دهشته ليصحبني إلى الغرفة العتيقة التي يقيم بها، والتي تحوي سريرا بطابقين، ودولابا صاجيا ذا بابين، وسجادة مهترئة تغطي الأرض، وبجوارها حماما كئيبا مشتركا بينه، وبين الغرفتين الآخرتين، واللتين بهما سكن بقية العمال المغتربين بالمخزن لم يخف عني تأفف سليمان؛ لأني سأضيق عليه غرفته باقتسام كل شيء فيها معه، وأنه المكلف براحتي، ولكن حسن معشري معه بعد ذلك أذاب كل هذا الجليد، وقد صرنا

صديقين رائعين عوضني كثيرا عن افتقادي لوجيه، ومنحني أسرار ومفاتيح العمل في هذا المكان، ومن الجدير بالذكر أن سليمان هذا باكستاني الجنسية كذلك، ولكن لطول عمله، وإقامته بأرض الحجاز أصبح يجيد العربية كأهلها مثل عدنان السائق الكبير، والذي لا تثق عنود إلا به، ولهذا يرافقها في كل تحركاتها داخل أو خارج المخزن، ورغم أنه يرعاها منذ مولدها إلا أنها بقوة شخصيتها قادرة على السيطرة الكاملة عليه بشكل تام، وللصدق فهي مسيطرة على الجميع بأفضل من الرجال، مر يومان ولم تستدعيني عنود لأي أمر، كنت أمكث أغلب الوقت بالحجرة، وأخرج وأنا متخوف أن تقابلني؛ فينالني منها أي عقاب لأي تقصير أو عجز لا أدري ما هو، من الواضح أن عملي كله لن يكون إلا جلسة واحدة أسبوعية بمثل التي تمت وفقط، ياله من عمل سهل جميل !

ولكن الفراغ الذي كنت أتوق إليه قديما اكتشفت بأنه قاتل ومنهك لي، يبدو أن الاعتياد على الشقاء يجعلك تستسيغه، وهناك أُلفة خفية بينك وبينه تدفعك لافتقاده إذا ابتعدت عنه؛ ولهذا لم أتحمل بعد مرور اليومين، وخرجت لأول مرة ماراً على العمال في عمليات التحميل، والتفريغ مراقبا لهم على سبيل التسرية والتسلية، كان لهم مشرفا مسئولا عن مراقبة كل ذلك، وعندما رآني واقفا للمشاهدة عن بُعد توجس مني شرًّا، وظن بأني أقف للتجسس، وتلمّس أوجه القصور؛ فبدأ في النشاط والصراخ في العمال، وازدادت الحركة بأكثر مما كانت عليه، وفي كثير من الأحيان كنت

أرى أحد العمال يجاهد في العمل، وينال منه الإرهاق؛ فكنت أسرع لمساعدته، ولكن رغم كل ذلك لم يحاول أحدهم التودد إليّ أو مصاحبتي، وقد ترسخ في وجدانهم جميعا بأني بوضعي الخاص والشاذ بينهم لي ما لي، وأن هناك الكثير الذي يجهلونه، ولهذا البُعد عني كان خير غنيمة، مر الأسبوع الأول؛ فاستدعتني عنود لأقوم بمهمتي التي فعلتها هذه المرة بمنتهى الثقة، والثبات، واليقين، وتمت بحمد الله في خلال ساعتين فقط، وحملت الملف، وذهبت مباشرة إلى استراحتها لأطرق الباب، ولكن عندما تساءلت مَنْ بالباب، وأخبرتها بأنه أنا صرخت فيَّ مجددا موبخة إياي كيف أتجرأ للقدوم هكذا إلى استراحتها مرة أخرى، ارتبكت من جديد، وسألتها ماذا أفعل، فقالت بضجر:

اذهب إلى المكتب وسوف ألحق بك، فتركتها، وعدت مسرعا بوجه مكفهر، وبروح غير التي أتيت بها، وجلست مرة أخرى متوترا، ومنتظرا الكثير من الاستهجان والوعيد، والذي قد يطول تقليل راتبي مقابل هذه الغلطة الكبيرة.

دخلتْ تنفث حمما، وارتمت على مقعدها بعنف، وقالت بصرامة:

– هل طلبتُ منك القدوم إليّ ؟!!

قلت بتردد:

– أنا آسف جدا، ولن أفعلها مجددًا.

مدت يدها بصمت، وتناولت الملف، وذهبت مباشرة للصفحات الأخيرة، وشعرت بها ترفع حاجبيها دهشة وقالت:

– كيف هذا ؟!.. ها قد أخطأت في الحسابات يبدو أن ما فعلته في المرة الأولى كان ضربة حظ معك، ويجب التفكير مجددا في أمر تعيينك هذا.

سقط قلبي بين قدميّ ياللهول يبدو أن الثقة المفرطة لا تصلح معي، الخوف والحرص هما خير سلاح لي لماذا لم أدقق، وأراجع طويلا كما فعلت في الأولى ؟ ها قد ذهب كل شيء، قلبت كفيَّ عاجزًا عن النطق، وقد شملتني الحسرة، وهزني الخوف من المجهول مجددا.

ولم تحاول النظر نحوي، وأخذت تعيد الحسابات بسرعة، وأخرجت صوتا مكتوما دلالة على زيادة العجب لديها ونادت على عدنان قائلة له:

– استدع لي سليمان بسرعة.

ليتحرك السائق المسكين من وقفته الثابتة كتمثال أصم لا يسمع إلا صوتها فقط مسرعا نحو الخارج، وعاد إليها بسليمان المرتبك بأكثر مني متسائلا عما هناك، فقالت له بنفس الصرامة القاسية التي لا تفارقها:

– استدع جمال، وليأتني بصور الفواتير الصادرة والواردة التي يحتفظ بها لهذا الأسبوع.

انطلق سليمان دون حرف واحد، وأخذت تعيد الحسابات مجددا، وأنا مثل فرخ صغير مبتل في وسط صقيع بارد، ولكني كنت أكتم ارتعاداتي بداخلي، وأنا أسأل الله عز وجل أن ينجيني، ولو بتخفيض راتبي مقابل هذه الغلطة، ولو رأت أني لا أصلح للعمل في هذه المهنة، فأنا أقبل العمل كعامل في التفريغ والشحن، فهي مهنة جيدة أطيقها، وليست في حاجة لأي مؤهلات مسبقة، ولكن هل ستقبل بذلك ؟

عاد سليمان بصحبة المشرف الذي ما إن رآني حتى أطال النظر نحوي، وظهر على وجهه الغيظ الكبير، ولست أدري لماذا ؟

يبدو أن وظيفة العامل تحت إشرافه ستكون قاتلة؛ فكراهيته غير المبررة هذه ستجعله ينال مني بأكثر مما يفعل مع البقية.

تناولت عنود منه صور الفواتير، وأخذت تراجعها مع الأصول التي كنت أعمل عليها، وألقت بكل ذلك جانبا، ونظرت نحو المشرف بمنتهى الجمود، وقالت له:

– اشرح لي يا جمال كيف حدث ذلك ؟ هذا الأسبوع.....

وقبل أن تكمل حديثها انطلق جمال قائلا:

- عمليات الشحن والتفريغ كلها تمت أمام وفيق الذي راقبها كلها من بدايتها حتى نهايتها، ويمكنك التأكد منه بأنها كانت كلها سليمة الآن.

ارتفع حاجباها عاليا، ونظرت نحوي مجددا نظرة خسفت بي، وكدت أن أهتف معتذرا لها عما فعلت دون إذنها، وقد أوقع بي هذا الوغد، ووشي بي أمامها، وانكمشت أكثر مما كنت حتى كدت أن أزوي بداخلي.

صمتت عنود كثيرا ولم تنطق، ثم أشارت له ولسليمان بالخروج فانطلقا مباشرة خارجين بسرعة، وقد اصطدم سليمان بكتف عدنان الواقف كأحد المعالم الثابتة على الباب، وعادت ببصرها، وأمسكت بالفواتير، وغمغمت قائلة:

- اللص !!

ياللهول لقد أصبحت سارقا ليت الأمر توقف عند إقالتي ! كدت أن أهتف مدافعا، ولكنها سبقتني، وقالت بصوت ودود جدًّا:

- أخبرني يا وفيق لم ذهبت لمشاهدة ومتابعة جمال، وماذا كان انطباعك عما رأيت ؟

قلت بتهدج محاولا دفع التهمة:

– لقد نال مني الملل، وأنا الذي اعتدت العمل الكثير؛ فخرجت لقتله فقط والله، لم يكن لي أي هدف آخر، وجمال كان صارما، وبالفعل كان يدفع الرجال جميعا للعمل بمنتهى النشاط والحماس، ولم يقصر أبدا مع أي مخطئ، ابتسمت عنود، وصمتت، ثم ضحكت ضحكتها القصيرة التي أحبها، وقالت:

– لا تقلق يا وفيق لا أتهمك بشيء لقد جئت إلي كهدية من السماء، هناك ارتفاع كبير جدًّا هذا الأسبوع لم يحدث من قبل في عائدات العمل بالمخزن اعتقدت أنك أخطأت في حساباتك بسببه، ولكن مع مراجعتي وجدتك لم تخطئ في شيء، فظننت أن هناك اختلافا بين أصول وصور الفواتير تسبب في ذلك، فأردت المقارنة، ولكن حدثت الصدفة التي كشفت لي حقيقة الأمر، هذا اللص جمال قاطعني قبل أن أستكمل سؤالي عن كيفية زيادة العائد ليخبرني بمتابعتك التي تسببت في منع السرقة التي كانت تتم في غفلة مني.. حسنا يا وفيق لست أدري كيف أشكرك؛ ولأني عملية سيكون شكري لك عملي جدًّا هل تقبل بوظيفة جمال وراتبه إضافة لوظيفتك هذه ؟

يالك من قاتلة هل سأظل أتقلب على جمر جحيمك وتلاعبك بي هكذا كثيرا، تتقاذفني من قعر اليأس إلى قمة الفرحة والسعادة، كدت أن أقفز

عاليا كالأطفال، ولكن لست أدري كيف سالت مني دموعي بدلا من ذلك، وشُلَّ لساني عن النطق تماما، فانطلقت ضحكتها القصيرة مجددا لتقول لي:

– ماذا بك يا وفيق ؟!

أسرعت بتجفيف دموعي بكفي، وقلت لها بعينين محمرتين: لا شيء، أنت تسألينى، وأنا أرى هذا حلما لم أتخيله يوما...

بمنتهى الجمود قالت:

– حسنا هيا يا وفيق اذهب لغرفتك، ولا تخرج منها حتى أرسل طالبة إياك كي لا يطولك أي أذى من هذا المجرم الذي لم أرتح له يوما.

تعجبت كيف تخشى عليّ من ردة فعله، ولم تخش على نفسها، وهي التي ستكون في مواجهته، ولكن مع قوتها هذه قلت بنفسي فليخش هو على نفسه منها، فشكرتها وقمت منطلقا نحو غرفتي التي أحكمت غلقها جيدًا وأخذت في الدعاء، والشكر لله على هذه الهدية، لم يصلني ولم أسأل عما حدث، ولكن في آخر اليوم أرسلت لي، وطلبت مني نقل أشيائي للغرفة المنفردة التي كانت مخصصة لجمال، ومنحتني دفاتره، وأخذت تشرح لي لمدة ساعة الأعمال الورقية المتوجبة عليّ نحو الوظيفة الجديدة التي رفعت من دخلي المادي كثيرا جدًّا.

وأخيرا بدأت لأول مرة في حياتي أنسلخ من الشعور بالنقص والهوان، لأول مرة أجد من يحترمني، ويخشاني ومن يترقب أوامري، لأول مرة هناك من يتمنى رضائي عنه، لأول مرة يكون ظهوري له كل هذه الأهمية، ولكن هذا الشعور بدلا من أن يبث في قلبي الكثير من الرحمة نحو العمال المساكين، وقد جربت كل مشاعرهم النفسية والجسدية من قبل، تحول هذا الشعور بشكل عجيب إلى النهم في طلب المزيد من الإحساس بالسيطرة والقوة، أصبحت أتلذذ برؤية نظرات الخوف والتذلل والتضرع لي، راق لي جدا التحكم في مصائر الغير بهذا الشكل، ولست أدري من أين جاءت تلك القسوة التي اصطبغ بها قلبي نحو الجميع، وياللعجب كل ذلك كان يتحول إلى النقيض تماما أمام عنود التي بمجرد رؤياها يصيبني التوتر، وأنسى أين أنا، وتنخفض رأسي تضرعا لها، فرغم كل شيء فعلته إلا أن الرهبة منها كانت تملأ قلبي دوما، ولا يمكنني التحكم في أوصالي المرتجفة أمامها حتى جاء ذلك اليوم الذي غير مصيري للمرة الثانية.

في هذا اليوم خرجت صباحاً قبل موعد قدوم عنود بحوالي نصف الساعة واضعا كفيَّ في جيبي متجولا بالساحة الأمامية، وأنا أطلق صفيرا للحن عشوائي، وعندما رأيت سليمان خارجا من استراحة عنود ناديت عليه بوجه جامد، وصوت صارم فجاء تجاهي رافعا حاجبيه، ومتسائلا عما أريد منه، فقلت له مباشرة بنفس الجمود:

– هل نسقت الاستراحة جيدًّا ؟

ازداد ارتفاع حاجبيه اكثر، ورأيت في عينيه التساؤل الذي عجز لسانه عن النطق به متعجبا من تدخلي في شأن كهذا، وهو ليس تحت إمرتي؛ لأنه لا يتبع عمال الشحن والتفريغ، وكذلك صحبته الودودة السابقة تعد شفيعا له لو كان تحت هذه الإمرة، ولكن بمنتهى أدبه الذي لم أر سواه منذ مقدمي قال لي:

– نعم فعلت ما اعتدت عليه منذ سنين...

شعرت أيضا بالرسالة الخفية في رده الهادئ، ولم يرق لي ذلك فقلت له بصوت ازداد صرامة:

– وجبة الافطار لم ترق لي اليوم.

انكمش المسكين، وقد أدرك من أين يمكنني النيل منه وقال بصوت خافت:

– أعتذر إليك، وأعدك بألا يتكرر هذا.

ابتسمت بثقة ونصر، وأشرت له بيدي لينصرف، وقد بلغت هدفي معه، يجب أن يعلم الجميع هنا بأني أنا الرأس التالية لعنود مباشرة.

طرق أذني بوق سيارتها مناديا على العامل الهندي ليفتح لها البوابة الرئيسية، فشحذت كل حواسي، واعتدلت في وقفتي بانتصاب ممشوق، ودخلت السيارة لتستقر في موضعها الدائم أمام المبني الداخلي، فأسرعت قبل أن تفعلها هي، ومددت يدي لأفتح لها الباب بيسراي وباسطا اليمنى لمنتهاها مرحبا بها في شبه انحناءة واضحة، هبطت عنود ببطء، وقد راق لها كثيرا هذا المشهد التمثيلي التملقي الرائع، وتعمدت أن تطيل وقفتها أمام الباب بما يمنع غلقه حتى أظل على وقفتي الماسكة بمقبضه منتظرا تحركها، وأخيرا تنهدت، وانطلقت دون حتى أن تلقى التحية أو أي عبارة شكر وامتنان، فأغلقت الباب بعناية، وعندما التفتُ كانت قد غابت داخل استراحتها، وعلى الفور انطلقت أنا إلى منطقة العمل لأجد العمال جالسين لا يجدون ما يشغلهم، ولكن بمجرد طلعتي عليهم قاموا منتصبين في توتر منتظرين أي توبيخ على أي شيء، فقلت لهم بمنتهى الجمود:

– بدلا من هذا التكاسل الذي تعيشون فيه هيا جميعا إلى الطرف الشمالي حتى يتم تنظيفه.

نظروا لبعضهم البعض، وتجرَّأ أحدهم، وقال بتوتر:

– لم نقم بتنظيف أي شيء من قبل، فعملنا مع الأخشاب وفقط !

اقتربت منه ووضعت يدي اليمنى على كتفه واليسرى في جيب بنطالي، وقلت له:

– هل تعلم أنه يمكنني جلب عمالة تقوم بالتنظيف، والتلميع، وجلب المياه من آخر الأرض إضافة لهذا العمل الذي تقوم به وبنصف أجرك ؟

شعرت بارتعادته تحت كفي، وانخفضت رأسه كثيرا وصوته أكثر، وهو يقول:

– حسنا سنقوم بكل ما تأمر به.

انتشيت كثيرا بهذا الشعور الرائع الذي احتلني، والذي كلما ارتشفت منه ازددت عطشا له، وبحثت عن سبل السيطرة والتحكم أكثر، شعرت في عيونهم بنظرات الأسى والتحسر على عهد جمال الذي كان يعاملهم بجفاء، ولكن لم ينالهم منه سوى صوته العالي فقط، أما معي فقد ازدادت الأعمال، وبدأت في خصم أيام عمل لمن يفكر في التمرد منهم، ولم تراجعني عنود في أي قرار اتخذته بشأنهم، فهي تذهب لتختفي في استراحتها، ولست أدري كيف يمضى بها الوقت هناك، وكلما خرجتْ وجدتْ جديدًا قمت به فلم تحاول شكري أبدا، ولكن هزات رأسها الصامتة كانت تكفيني جدا.

وعند الظهيرة، وبينما نحن جميعا في المؤخرة إذا بصرخات متصلة تنطلق من اتجاه البوابة، وقف العمال مشدوهين غير مدركين لما يحدث بينما

اندفعت أنا مسرعا تجاهها لأجد عامل البوابة الهندي يتقافز مشيرا بيده للداخل ويصرخ مرددا كلمة:

– هريق.. هريق

نظرت تجاه إشارته لأجد الدخان الكثيف يخرج من بين ثنايا شباك استراحة عنود، لقد كان حريقا ينال منها، وهي بالداخل، بلا وعي اندفعت مسرعا نحوها، وارتفع صوت طرقاتي العنيفة على الباب ولا رد، حاولت فتحه، ولكنه كان موصدا بعناية، فشرعت في دفعه عنوه ملقيا عليه بكل ثقلي، ولكن فشلت، كان الجميع قد تحلقوا حولي متفرجين، وغير قادرين على التصرف أو النطق أمام المشهد الذي يرونه للمرة الأولى، تذكرت الفأس الصغيرة المعلقة بجوار أحد أبواب المخزن، وجدت أن طلبها من أحدهم سيضيع الوقت في محاولة شرح موضعها له، فاندفعت كالقذيفة، وجئت بها في خلال ثوان، وبسبب مبيتي ليلة بالداخل كنت أعلم مواضع القفل ومزاليج الباب، فانهلت عليه بالفأس محطما لها، ونجحت في الدخول مسرعا لأجد الدخان يمتد بكثافة تجاه الشباك الخارجي فقط أعلى الموقد الصغير الخاص بإعداد القهوة بعد أن شب حريق محدود بمنطقته، ولكن كانت عنود في الركن القصي بعيدا عنه مستلقيةً برأسها على مكتبها الصغير، وهي ما زالت بنقابها، وأمامها كتاب مفتوح؛ كأنما هي في سبات عميق، ناديت عليها فلم ترد عليّ فتجرأت وهززتها فلم تستفق فما كان مني

بعد أن تعاظمت جرأتي إلا أن حملتها على كتفي مغادرا الغرفة التي بدأ الدخان في اقتحام بقية أركانها، وبينما أنا خارج أمام العيون الذاهلة والمرتبكة صرخت فيهم بأن يسرعوا لإطفاء الحريق، فغادرو جمودهم ودهشتهم، وانطلقوا متفاعلين مع أمري، ومددت عنود على الأرض أمام المبنى في منطقة نقية الهواء، وأنا في حيرة لست أدري ماذا يجب فعله معها، ولكن رؤية رحلة هبوط وصعود صدرها طمأنني بأنها ما زالت على قيد الحياة، ستكون مصيبة لو ماتت هنا الآن فكيف سيكون الحال لو وقعت؟.. هل سيبيع الشيخ هذا المخزن تشاؤما منه أم سيأتي بإدارة أخرى قد تتخلص مني أم سيوكل أمره بالكامل لي ؟!

نجاتها الآن محافظة على ما وصلت إليه من مكتسبات بدلا من خوض المجهول، والذي غالبا سيكون سيئا، لهذا كانت لهفتي وفزعي عليها بالغين، ولجهلي بما يجب فعله صرخت في عدنان بأن يأتي بسيارته ليصحبنا إلى أقرب مستشفى، وبالفعل في خلال خمس دقائق كنا بمركز صحي قريب، قام الأطباء بكشف وجهها الذي لم أتجرأ على فعله، وأسرعوا بتوصيل مصدر تنفس للأكسجين إليها مع الكثير من العقاقير والمحاليل الوريدية، وأنا بجوارها أبتهل إلى الله أن ينجيها إنقاذا لي ولمستقبلي، وأخيرا جاءت نتيجة فحص دمائها بأنها تعاني من نقص حاد بنسبة السكر في الدم، وقد تسبب لها في غيبوبة عميقة، وعلى الفور تم استبدال أحد المحاليل بآخر يمنحها نسبة مركزة وكبيرة من السكر الذي جاء بأثره في

خلال ثوان من بدء تقطيره بأوردتها، وفتحت عينيها، وهي ما زالت ذاهلة، وأول ما طالع بصرها كان وجهي القلق والمتوتر، وأخيرا بسمتي العريضة، وأنا ابتهل شاكرا، وحامدا لله، حاولت أن تعتدل جالسة، ولكن أعجزها الوهن المتمكن منها فنظرت حولها، وقالت:

– ماذا يحدث، وأين أنا ؟!

بصوت متهدج قلت لها:

– حمدا لله على سلامتك لقد كنت في غيبوبة وسط حريق استراحتك.

وقبل أن ترد اندفع أباها الشيخ للداخل، وقد جاء على إثر اتصال عدنان به مخبرًا إياه بما حدث، وبمجرد رؤياه لابنته في حالة الوعي دمعت عيناه، وهتف حامدا لله، وكان هذا دوري أن أنسحب بسرعة تاركا عنود، وقد جاء من يمكنه الاعتناء بها.

خرجت جالسا مع عدنان بساحة الانتظار دون تبادل أحاديث، وبي شعور غريب، فقد بدأت في استرجاع ملامحها التي لم أحاول التمعن فيها بسبب الفزع الذي تمكن مني، كانت ملامحها رقيقة لا تتناسب أبدا مع عنفها وقسوتها، كان بذهني لها صورة مغايرة تماما بملامح غليظة، ووجه قاس قبيح، ولم أتخيل أنها بمثل هذه الرقة، حاولت تخيل هذه الملامح، وهي مقطبة الجبين؛ فوجدته مشهدا يستحق التأمل، والتمعن فيه؛ لأنه سيرسمها

بشكل جميل، فابتسمت رغما عني وتساءلت "إن كنت بهذه الرقة يا عنود فلم تظهرين نقيض ما تملكين ؟"

خرج الشيخ بعد ربع الساعة، ووقف أمامي ممتنا، ومد يده مصافحا، وهو يقول:

– يبدو أن الله قد أرسلك لتنقذ أولادي من الموت واحدًا تلو الآخر، لست أدري كيف أشكرك يا ولدي.

كانت السعادة والتحليق في آفاق الفرحة هما المسيطران عليّ، وأنا أرد بأني لم أفعل إلا ما هو واجب فقط في كل الأحوال، وبعد الاطمئنان بأن دفة الأمور بيد الشيخ استأذنته في الانصراف، وقام عدنان ليوصلني إلى المخزن الذي دخلته هذه المرة كملك ومالك له، وبميلاد جديد، توجهت على الفور إلى داخل الاستراحة مستطلعا آثار الحريق الناتج عن موقدها الصغير بينما هي غارقة في غيبوبتها في مفارقة جاءت إليّ لتمنحني أفقا جديدا لم يخطر ببالي من قبل.

جلست أمام المكتب ممسكا بالكتاب الذي كانت تطالعه فإذا به رواية لا أذكر اسمها، أغلقتها وأعدتها الى المكتبة، وعلى عكس الماضي أخذت أتصفح ما بها لأجدها تحوي الكثير من دواوين الشعر والروايات، إذاً كان هذا ملجأك يا عنود تأتين لتحلقي فيه بين عوالم جديدة نسج خيالها الكثير

من عقول الأدباء هاربةً من واقع غير مرضٍ لك، وبمنتهى الجرأة أيضا فتحت أدراج المكتب مستطلعا محتواها، ولكن داهمني سليمان، وهو يتنحنح غير طارق للباب؛ فأغلقته بسرعة، وأنا أصرخ فيه متسائلاً ماذا يريد فقال بتردد:

- يوجد شحنتين في انتظار أمرك لتفريغهما بالخارج.

اعتدلت، وأشرت له ليسبقني، وأنا أقول له:

- أنا قادم فلا يوجد ما يؤجل العمل هنا – وضغطت على أحرفي وأنا أقول – لقد كنت أبحث عن أسباب الحريق بالداخل.

هزَّ سليمان رأسه دون إجابه، وانطلق لعمله، وذهبت أنا للعمال الغارقين في رهبتهم وخوفهم مني.

مر يومان في المخزن بدون عنود، وقد أصلحت الباب، ونسقت لها استراحتها بأفضل ما يكون منتظرا مجيئها في اليوم الثالث، ولكن لم تظهر به أيضا، لم أكن أدري هل يصح الاتصال بالشيخ سائلا إياه عن مصيرها أم أن هذا يعد تجاوزا، ولكن حرصت على سير العمل بأفضل ما يكون، ولست أدري لماذا داهمني شعور بأن المكان يفتقد للكثير بدونها، إشراقتها الصباحية، ومشيتها الواثقة كانت تشعرني بأن هناك من يحكم هذه المملكة بمنتهى الصرامة ليقيم أركانها، أما الآن ورغم إحساسي بالقوة المتضاعفة إلا

أن هذا لا قيمة له إن لم يظهر المقارن الأكبر له، ولهذا كان وجودها بقوتها وجبروتها يجعل لي أفقا أحاول الوصول إليه، أما الآن كنت كمن يجري في الصحراء دون وجود خط نهاية أو هدف يسعى إليه، كان أمرها الصارم إليّ إذا وُفقت في تنفيذه يتوجني بالنجاح، وامتنانها الذي لم تعبر عنه يوما إلا بالصمت كان يشعرني بأني قد ارتقيت درجة جديدة في سلم الوصول إلى مكانتها من القوة، ولكن مشهد النهاية بضعفها الكبير، وكذلك رقة ملامحها جعلتني أتساءل ترى هل سيعود الأمر إلى ما كان عليه ؟ وداهمني تساؤل آخر ترى بعد ما تعرضت له هل سيسمح لها الشيخ بالمجيء هنا مرة أخرى ؟ إن كان سمح لها سابقا متجاوزا كل أعرافهم لعدم وجود مخاطر ظاهرة؛ فكيف سيكون الحال بعد حدوث هذه المخاطر ؟! ولكن في صباح اليوم الخامس، وبينما أنا أجول بمنتهى الثقة كقائد عسكري يأمر هذا وينهى ذاك حتى عامل البوابة الهندي لم يسلم مني، وقد شملت سلطاتي الجميع بلا استثناء كأني أنا المالك الفعلي للمخزن إذا بأجمل سيمفونيات العالم تطرق أذني، لقد كان بوق سيارة عنود الذي ارتج له قلبي، وكاد أن يقفز من فرط السعادة، انهار وقاري دفعة واحدة، واندفعت مسرعا كطفل صغير كان ينتظر أبيه بلهفة، وسمع صوته يقترب، ووقفت أمام البوابة مباشرة حتى أن عدنان أشار لي؛ لأتنحي جانبا ليتمكن من الدخول، تحركت وأنا في منتهى الارتباك، ووقفت السيارة، وأسرعت لأفتح بابها كما اعتدت، ولم أطق صبرا فصرخت بحروف تتقطر فرحة وسعادة قائلا:

- حمدا لله على سلامتك أخيرا استنار المكان بطلعتك

تنحنحت عنود ولم ترد، وانطلقت مسرعة للداخل، فأغلقت الباب، وقد شعرت باطمئنان كبير، وشعور عجيب بالرضا كأن مجرد تواجدها حتى وإن لم أرها كان كافيا جدا بالنسبة لي، وباعثا كبيرا للسعادة، وقد عاد للحياة عبقها مرة أخرى، أنهيت الكثير من الأعمال وذهبت مستريحا إلى المكتب بمؤخرة المخزن، وبينما أنا مستلق على الكرسي مرتخيا بظهري عليه عاقدا كفَّي أمام وجهي إذا بي أسمع، صوتها وهي تقول:

- السلام عليكم.. كيف حالك يا وفيق ؟

رغم رقة صوتها، وسؤالها العجيب عن حالي في سابقة لم تحدث من قبل انتفضت واقفا مرتبكا أمامها عازما إخلاء الكرسي، ولكنها ضحكت ضحكتها القصيرة والساحرة والتي افتقدتها كثيرا وقالت:

- اجلس كما كنت.

وبمنتهى البساطة جلست هي على الكرسي المواجه لي في سابقة جديدة لم أتخيلها يوما مما دفعني لتنفيذ أمرها بلا مناقشة، صمتت برهة، وأنا عاجز عن التفوه بحرف وأخيرا تنحنحت وقالت:

– رغم أنك تجاوزت في الكثير، وفعلت ما يعجز غيرك عن التفكير فيه، ولكن لست أدري كيف أشكرك لقد أنقذت حياتي بالفعل، وإن كنت لا أدري هل كان ذلك شيئا جيدا أم سيئا لي.

نال تعليقها الأخير مني، وقد شعرت بألم دفين يتقطر من أحرفه، فقلت متمتما بأني لم أفعل إلا الصواب فقط، طال صمتها كثيرا هذه المرة، وكأنها لا تجد ما تتحدث فيه أو ربما تبحث عن كلمات مناسبة، وأخيرا قالت:

– اعتدت على التصرف بشكل عملي دوما، ولهذا سوف أكافأك بما يتناسب مع ما فعلت أريد جواز سفرك، وانتظر مني مفاجأة تليق بك وتستحقها.

هممت أن أرد عليها بمنتهى الفرحة شاكرا، وأني لا أستحق كل ذلك، ولكن يبدو أن كل ما فات كان لحظة انكسار سريعة تمر بها، فقد اعتدلت فجأة في جلستها، واكتسى صوتها بالصرامة المحببة لي، وهي تقول:

– ولكن سأتجاوز وأتجاهل خطأك وجرمك الكبير باستطلاع محتوى المكتبة، وأدراج المكتب أملا في عدم تكراره، وإلا سينقلب كل ذلك لنقيضه.

تبًّا لك يا سليمان لقد فعلتها أيها الوغد، ووشيت بي سأعرف كيف أنتقم منك، ولكنها سبقتني، وقتلت ذلك الظن، واستكملت كلامها قائلة:

– أنا أحفظ موضع كل ذرة تراب باستراحتي، واكتشفت تحريكك للكثير من موضعه، ولا يجرؤ غيرك على فعلها لذا لا تكررها مهما حدث، لقد كنت ممتنة لك بعدم العبث بالغرفة في ليلتك الأولى هنا، وأنا لا أعرفك فلا تدفعني للنقيض بعد أن عرفتك.

رغم أنها كعهدي بها جعلتني أنتقل بين المشاعر المتناقضة في آن واحد إلا أني كنت سعيدا جدا بتواجدها، وبكل ما تفعله بي، وكانت مكافأتها مفاجأة حقيقية لم تخطر لي على بال، فقد تقدمت بطلب التحاق بكلية التجارة بجامعة بيروت، تلك الجامعة الناشئة وقتها، والتي لها أفرع بأكثر من دولة عربية، ورغم أن مصاريفها باهظة إلا أنها كانت تساعد من هم مثلي، وكثيرا تجاوزوا سن الدراسة في نيل شهادة جامعية بأكثر من كلية نظرية منها كلية التجارة، دفعتني عنود للدراسة مجددا أملا في استكمال ما ينقصني، وقد يسرت لي كل السبل في تحقيق ذلك، وتكفلت هي بجميع المصاريف حتى تخرجي بعد أربع سنوات ذاب فيها الجليد تماما بيني وبينها، وطالت جلساتنا، وحديثنا العام والخاص، وأخيرا أظهرت لي قصائدها التي قرضتها، وكانت تخفيها بمخبئها الذي لا يعلم مخلوق بما يحويه، انتزعتني عنود من كل الماضي البغيض تماما حتى أنها أنستني أهلي المترقبين لفرصة الحج مع ثروة كبيرة تيسر لهم الحصول على الأفدنة التي وعدت بها، ولكني لم أرسل لهم حتى خطابا يطمئنهم عليّ، ووجيه رفيقي، والسبب الأول لكل ما أنا فيه لست أدري كيف وصل في يوم لرقم هاتف استراحة عنود، واتصل

لترد هي عليه، ونادتني لأجيبه، وهو يسأل عن أخباري، وما آلت إليه أحوالي، خفت نقل الحقيقة، فيحاول مقاسمتي ما أنا فيه فأخبرته بأني قد تدهور بي الحال، وما أجنيه تقريبا أنفقه كله، والعمل هنا شاق، ولكن لا سبيل آخر لي، وآلمني عرضه بأن يحاول مع صاحب المزرعة مرة أخرى لإعادتي، ولكني بالطبع رفضت، وفي يوم من جلساتنا الصباحية الممتدة بالمكتب الخلفي أنا وعنود، وبعد أن أصبحنا متقاربين لأبعد مدى حتى أنها في أحيان كثيرة كانت تفتح لي باب غرفتها، وهي بدون النقاب عندما أذهب طالبا أو مخبرا إياها بأي أمر، جاء أوان البوح بما يحتويه صدري، وقلبي لها فقلت:

– عنود هل البوح بحبي لك جريمة؟!...

ضحكت ضحكتها القصيرة، وقالت:

– لا يا وفيق الحب لم يكن يوما جريمة أبدا وأراه نعمة امتن الله بها علينا فقد أخرجتني من صحرائي القاحلة به.

كدت أن أحلق في عنان السماء باعترافها بأن الحب متبادل بيننا بهذه البساطة والتلقائية، ولهذا كان الطلب القادم مباشرا وسريعا، ولا يمكن التباطؤ فيه، وهو التقدم للزواج بها، ولكنها صمتت، وأطرقت برأسها في أسى وقالت:

- أنت تبلغ من العمر ستة وعشرين عاما يا وفيق، وأنا في الخامسة والثلاثين.

كان ردي مباشرا وسريعا حين قلت:

- هذا لا يمثل عقبة بالنسبة لي، ولم يشغل بالي يوما إن كنت تدركين محبتي الحقيقية لك فهذا يكفي جدا.

هزت رأسها بنفس الأسى، وتنهدت بعمق، وزفرت حمما وقالت:

- لو تجاوزنا مسألة السن هذه؛ وهي أيسر ما يكون ستجد جبل عثرة لا يمكن تجاوزه بأي شكل أبدا؛ وهو اسم العائلة عندي.

لم أفهم مقصدها، فحافظت على تحديقي بها منتظرا التوضيح أكثر فقالت بمرارة:

- عائلتي من كبريات عائلات الجنوب، ومصاهرتها لابد وأن تكون من عائلة بنفس الدرجة أو أعلى وإلا نالنا الكثير من التشهير وربما العار.

صحت قائلا:

- أهذا يحدث في بلد رسول الله ؟!

ضحكت ضحكتها القصيرة، ولكن كانت ممزقة جريحة وقالت:

- هل تعلم لو عشنا على الخطيئة في استراحتي هذه سيمر الأمر بسلام بالنسبة للأعراف عندنا؛ لأنه سيكون سرًّا أما لو حدث، وتزوجنا سيكون ذلك وبالا على العائلة الكبيرة لأنه سيكون علنا !.. مفارقة مدهشة تكشف لك كيف اعوجت الموازين بسبب تجاهلنا للصواب رغم أننا كما ذكرت أنت في بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

كانت الحيرة والدهشة يتملكان أرجائي، وأنا غير قادر على استيعاب ما ذكرته فقلت لها:

- أعتقد أن محبة الشيخ لي ستجعله يتجاوز ذلك بعد أن أنقذت حياتك وحياة ولده الوحيد.

رفعت رأسها وقالت باهتمام:

- لو فعلتها، وتحدثت إليه بذلك، فاعلم أن ذلك آخر يوم لك في بلدنا، امتنانه بما فعلت وتقديره لك بحدود آخرها أن تمس هذا الأمر الذي لو حدث لانهار كل شيء في ثوان.

شعرت بالخطر الفعلي على إثر جملتها هذه، واحترت أكثر فقلت لها مسرعا:

– ما رأيك أن تأتي معي لمصر، ونتزوج ونقيم هناك وتهربين من كل ذلك ؟

ضحكت مجددا، وقالت:

– دعك من أفكار الأفلام هذه؛ فذلك عار أكبر لن يتردد أبي في ملاحقتي وقتلي بسببه.

وأخيرا شملنا الصمت التام، وقد حافظت هي على التركيبة الثابتة في كل شأنها معي، وهو المزج في موقف واحد بين الفرحة الشديدة مع الحزن المضاعف، وبالطبع كانت الغصة التي في صدري، والحيرة التي تقتلني معشار ما يعتمل بها، ولم أجد ما يمكن قوله بعد ذلك، فاستأذنتها، وذهبت لغرفتي مستلقيا على السرير، وقد انهار الحلم الوحيد الحقيقي في حياتي بعيدا عن المادة، واللهاث خلفها، وكما كان إنقاذها منعطفا في سير الأحداث بيننا فقد كانت تلك المصارحة منعطفا أخطر ونقلة جديدة في حياتي للمرة الأخيرة.

فقد بدأت عنود في تجنبي؛ وكأن مجرد الحديث معي أو حتى رؤيتي يعد نكئا لجرحها الغائر، بل لقد بدأت في التغيب عن المخزن أياما عدة، وأخيرا نادت عليّ للجلوس معها بغرفتها في سابقة جديدة وأخيرة، كانت جالسة على كرسيها أمام المكتب، وقد أدارته جانبا فجلست قبالتها فتنهدت، وبدأت الحديث قائلة:

– يعلم الله يا وفيق مقدارك عندي، ولكنك تسببت في إرباكي، وكل حياتي لقد كنت أنطلق راضية بحالي، وقد نسقت شأني بالشكل الذي يمكنني من الانطلاق بلا عوائق، ولأني أمتاز بالتفكير العملي فأنا الآن أمام أحد خيارين أحلاهما مر، إما أن أمتنع عن المجيء وأترك هذا المخزن؛ وهذا مالا يمكنني فعله أو..

ارتفعت دقات قلبي للذروة مترقبا لقنبلة ستلقي بها بعد أن صمتت هكذا، وبالفعل فقد استكملت قائلة:

– أو أن تغادرنا أنت.

ياللهول هل سينهار كل شيء دفعة واحدة هكذا ؟!

أنا بالفعل أكن لها محبة، ولكن شبح العودة للفقر والذل أكثر رعبا ولا أطيقه، لا يا عنود أنا مستعد لأي اقتراح آخر المهم لا تلقي بي في هذا الأتون مرة أخرى كلماتك جمعت بين النقيضين كالعادة، فهي تفيض رقة وإحساسا ولكن بها قوة وتجبرا، فأنت حتما لن تضحي بمملكتك في سبيلي مهما كانت مشاعرك تجاهي.

ولكنها شاكرة انتزعتني من خيالاتي باستكمال حديثها قائلة:

– لهذا فقد رتبت لك أمر الانتقال للعمل محاسبا في إحدى شركات الأغذية، والتي يديرها أخي الآن في مدينة الرياض بعيدا عن هنا، وبراتب أفضل يعوضك عن هذا.

تبًّا لك يا عنود حتى الرمق الأخير تصرين على المزيج الفريد الخاص بك تخسفين بي الأرض، وترفعينني إلى عنان السماء أو العكس في أقل من لمح البصر، فشلت في قتل البسمة التي ارتسمت على وجهي فرحة بالمآل الذي سأذهب إليه، ولكن محوتها بسرعة، وقلت لها:

– هل معنى ذلك أني لن أراك أبدا؟!..

قالت، وقد بدأت دموعها في تبليل نقابها:

– ولن تسمع صوتي كذلك هذه هي لحظاتنا الأخيرة يا وفيق.

هزني تهدج صوتها الأخير، ولم أجد ما أقوله، وقد لفنا الصمت بعد أن فشلت هي الأخرى في ذكر المزيد، فقمت مستأذنا، ومنصرفا وأنا أنظر لأركان المخزن كأني أودع عزيزا، فقد حفظت كل طوبة وورقة شجر فيه، والمباني أراها تحدثني، وتنظر نحوي بأسى، وبينما أنا في طريقي إلى غرفتي لمحني العمال فنهضوا واقفين في فزع، ولكني تجاهلتهم وشعور الانكسار يلفني، ترى كيف سيكون الحال في العمل الجديد ؟ لن أجد القوة والسيطرة التي أعيشها هنا بل قد أجابه الصعاب كلها من جديد، ليس هينا

أبدا أن تخرج من مسار اعتدت عليه في حياتك إلى مجهول حتى لو كان فيه مبشرات بالأفضلية، ولكني مرغم ولا خيار لي فيه لقد أصدرت الملكة الأمر، وسارت في دروب التنفيذ بالفعل، ولم أكن أتخيل سرعة التنفيذ الجارية، فقد كنت ذاهبا للراحة قليلا بغرفتي، ولكن وجدت عدنان يطرق بابي، ويتساءل إن كنت قد أعددت حقيبتي أم لا، لهذه الدرجة تتعجلين صرفي يا عنود ؟!

وبعد ساعة انطلقت بي سيارة عنود لرحلة وأفق جديد في حياتي، وبمحطة الحافلات، ومن نافذة إحداها نظرت لمؤخرة سيارتها، وهي تغادرني منسابة، وساحبة معها آخر مشاعر حقيقية نبض بها قلبي يوما، وبعد رحلة شاقة وطويلة وصلت لمدينة الرياض ليقلني سائق آخر إلى مقر الشركة الضخمة بمبناها الكبير، وذهبت مباشرة لقسم الحسابات، والذي يديره مصري قابلني بود مصطنع، وتوجس فشل في كتمانه بسبب التوصية العليا بشأني، وقادني لمكتب أنيق في حجرة مكيفة الهواء بها حاسوب كان شيئا مبهرا جدًّا لي وقتها عام ١٩٩٧، وعندما ذكرت له بأني لم أتعامل معه من قبل؛ قال بكل بساطة :

– لا تقلق سوف نعلمك الكثير، ومنه كيفية العمل عليه،

وبينما نحن نتحدث عن طبيعة الحسابات، والملفات التي سأعمل عليها بشكل عام إذا بشاب مرتدٍ جلبابه الأبيض الناصع والناعم، وبغطاء الرأس المحكم بعقاله الأسود وبشاربه الدقيق يدخل، وينادي عليّ قائلا:

– مرحبا بك يا وفيق أخيرا التقينا هنا.

لوهلة لم أعلم من هو، ولكن مع التدقيق أكثر تذكرته إنه "مالك" ولكن تغير كثيرا بعد هذه السنوات القلائل، وشاربه الجديد هذا عبث بمعالم وجهه، صحت فرحةً بلقياه؛ فقد كان هو السبب المباشر في تغيير كل حياتي، واحتضنني الرجل بمنتهى البساطة مع الكثير من كلمات الترحيب، والتمنى بأن يطيب لي المقام هنا، وأعلمني بوجود سكن مؤقت لي حتى أجد لنفسي السكن المستقل واللائق.

وبعد انصرافه استغرق مديري المصري ثوان حتى يمحو بسرعة أمارات الدهشة التي كانت تظهره ببلاهة عجيبة وقال لي متعجبا:

– ظننت التوصية عليك لأمر بسيط، ولكن لم أتخيل أن تكون على صلة وثيقة وكبيرة هكذا مع صاحب الشركة !.. أين وكيف ومتى عرفته من قبل ؟!

سررت بما وقع في روعه تجاهي، وقررت استثمار ذلك فقلت له:

– هذه أمور وشئون خاصة جدا مرتبطة باسم عائلته الكبيرة في الجنوب، ولا يمكنني البوح بها.

هز رأسه سريعا ومتفهما، ورحب بي للمرة الثانية بود كبير ومُبالغ فيه، وقد حدث الأثر الذي رجوته وزيادة، وكان سببا في المعاملة الخاصة والجيدة التي حظيت بها فيما بعد.

شهر كامل تعلمت فيه كل شيء، وكان الراتب مضاعفا عما كنت أعمل به مع عنود، ولكن كان سكني ومأكلي ومشربي على نفقتي الخاصة، وهنا قررت وجوب نيل استراحة صغيرة، وعزمت العودة في إجازة قصيرة لبلدي أخرج بها من مشاعري التي ما زالت مضطربة، وفكري الذي لم يتوقف لحظة عن التفكير في عنود، والتساؤل الداخلي عما تفعل في كل ساعة تمر عليّ، وهل أصبحت تطيق البقاء في المخزن بدوني أم لا، وترى هل من الممكن أن تتصل طالبة عودتي ؟!..

ولكن مع النقلة الكبيرة في مستوى التعامل مع البشر، والسكن في العاصمة الرائعة، والراتب الذي ارتفع وجدت أنه من الصعب عودتي حتى لو اتصلت هي، لذا سفري لمصر سيكون أحد عوامل الانسلاخ منها لو فكرت في المطالبة بعودتي، وهذا ما لم يحدث أبدا.

بعد ما يقرب من خمسة أعوام دخلت قريتي مرة أخرى ولكن بشعور عجيب، السيارة الخاصة التي استأجرتها من المطار لتوصيلي كانت تسير، والأطفال شبه العراة بخرقهم البالية والقذرة يندفعون خلفها، وهم يصيحون كأنما هم أفراد قبيلة إفريقية يطاردون وحشا كاسرا بغية اصطياده، وفي النهاية لم يجدوا بدًّا من قذفها بالحجارة مما دفع السائق؛ لأن يسرع بها كي لا تصاب بأذى.

التأفف الكبير والندم على عودتي هما أول ما راود مشاعري على إثر هذا الاستقبال، وانطلقت السيارة داخل الشوارع الضيقة، والسائق يجاهد فاشلا في تجنب روث البهائم الذي يملأها، وأخيرا ظهر بيتنا كما هو بنفس كآبته وفقره بطابقه الوحيد المبني بالطوب اللبن يعلوه القش الكثيف الذي تستخدمه أمي كوقود حين الطبخ أو الخبز، توقفت السيارة أمامه، وصف كبير من الأطفال، وبعض النساء يقفون بعيدا مترقبين ومتسائلين من هذا ؟!

تخلصت من السائق بسرعة بمنحه أجره حتى لا يحاسبني على أي ضرر قد يلحق به أثناء وجوده هنا، وأخيرا طرقت الباب ليجيبني صوت أمي، ولكن بوهن متسائلا عن الطارق، وفور أن قلت بأني وفيق صدر منها زغرودة شاحبة متقطعة، وخرجت تحتضنني، وتقبلني بغزارة، وتغرق وجهي بلعابها، ورائحة فمها الكريهة تنال مني، وأنا أنظر نحو المشاهدين الذين تضاعفوا

بحرج، فحملت حقيبتي ودخلت متسائلا عن أبي وأخوتي وجدتي التي فوجئت بها قد ماتت منذ عام ونصف العام!

انطلقت أختي الصغري مسرعة لتستدعي أبي من حقله، والذي رأيت عمره قد تضاعف كثيرا عما تركته عليه، وأصبح الأنين يرافق كل حركاته من قيام وجلوس، كيف تعمل في الحقل بهذا الجسد الموجوع يا أبي ؟!

وأخيرا جاء موعد توزيع الهدايا؛ فقمت مسرعا، وفتحت باب البيت على مصراعيه، وجلست خلف الحقيبة بحيث يكون الباب في مواجهتي، واستمتعت كثيرا برؤية الأطفال وبعض الصبية، وهم يتطلعون في نهم إلى ما أقوم بتوزيعه على أفراد أسرتي.

وقضيت ليلة جحيمية أصطلي على فراشي بافتراس الكثير من الحشرات لجسدي، وقد احتلت البراغيث كل جنباتي، تعجبت كثيرا كيف كنت أتحمل ذلك قديما، وكيف كانت تمضى بنا الحياة هكذا ؟!!

وفي الصباح منحت أبي ثمن فدان ليشتريه باسمه مقابل القيراط الذي باعه قديما، وهو يتمتم بكلمات الشكر والثناء على الله عز وجل، ولم يوجه لي كلمة تعظيم واحدة بل لقد تزايدت مطالبه حين قال لي:

– لم يتبق إلا أختين وتكاليف زواجهما على عاتقك

من الواضح أن كل أموالي التي جاهدت في سبيل تحصيلها ستتبخر سريعا مع متطلبات هذه الأسرة الفقيرة التي حتما لن تنتهي، لذا قمت في الصباح الباكر، وتوجهت إلى القاهرة، وفتحت حسابا بنكيا، وأودعت به كل أموالي، وبهذا ستكون بعيدا جدا عن متناول أيديهم، وكان من الطبيعي ألا أتحمل البقاء بالقرية أكثر من أسبوع واحد، فقلت لهم بأن مدير الشركة قد استدعاني، ويجب أن أسافر، منحت أبي كثيرا من المال، وقلت له "حين زواج أيٍّ منهن اتصل بي، وسوف أرسل لك ما تريد من أموال"، وكلي ثقة بأنه لن يفعل؛ فهو لن يتسول ذلك مني؛ ولكني أبرأت ذمتي أمام نفسي، وأخيرا انطلقت مسافرا بعد أحضان كبيرة من أبي وأمي التي ألمحت بحلمها في تحقيق أمنيتها بزيارة قبر الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ولكني تجاهلت الرد عليها وقبلتها، وانطلقت وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأيتهما فيها.

هذا الأسبوع القاسي كان درسا بليغا لي بعدم التفكير في العودة لمصر، وأن أنعم بالعيشة الرائعة، والنظيفة بمدينة الرياض، وانتظمت بي الحياة في عملي الجديد الذي أحببته، وقد نسيت عنود تماما بل لقد أصبحت ذكرى سخيفة، وأنا أضحك على أيام المخزن، والعمل مع العمال الفقراء من الجنسيات المتعددة ظانًّا بأن ذلك منتهى الرقي والقوة، فقد اكتشفت القوة الحقيقية، والتي تُعد المحرك الكبير لجميع الأحداث إنها قوة المال، وقد سرت في طريق امتلاكها بشكل سليم فبعد خمسة أعوام، وبترقب مني

واصطياد لجميع أخطائه، تم عزل مدير قسم الحسابات؛ لأتولى منصبه وبراتب أعلى من راتبه هو، وامتلأ حسابي البنكي في القاهرة بتحويلاتي إليه، ولم أعلم شيئا عن أسرتي سوى مرتين فقط اتصلت فيهما أختي هناء، وفي كل مرة كانت تنبأني بوفاة أحد والديّ، كنت أحزن برهة، ولكن أجد مسألة نزولي لن تعيدهما من قبرهما، فكنت أرسل لهم مبلغا من المال كنوع من المواساة فقط حتى وقعت الكارثة منذ أربعة أشهر، فبعد وفاة الشيخ والد مالك قرر الأخير بيع الشركة، والعودة للجنوب مع أسرته التي أصبح هو رجلها الوحيد، وبهذا أصبح مستقبلي في مهب الريح، تُرى ماذا سيكون تصرف المالك الجديد معنا ؟!

وقد حدث الأسوأ بالفعل؛ فالمالك الجديد صرَّح في اجتماعه الأول بأنه سيغير النشاط تماما، وسيجلب عمالة أوروبية، ومنحنا شهرين لتصفية كل أمورنا بالشركة قبل صرفنا جميعا، وهنا ظهر لي أن العودة لمصر لا مفر منها، فلن أتحمل التذلل من جديد، وقد تخطيت الأربعين، ومعي مالٌ يسمح لي بالعيش الرغد في بلدي، ولكن اكتشفت شيئا فاتني تماما، ونسيته في غمار صراعي لأجل نيل قوة المال، فقد نسيت تكوين بيت وأن أتزوج ! لذا فكرت في أن الزواج بأي فتاة، وجلبها هنا شهرا قبل عودتي لمصر سيكون إبهارا لها، ووسيلة سيطرة أكبر عليها؛ لإني سأريها مالم تره أو تستطع رؤيته بدوني، كان تحت إمرتي شاب قاهري سألته إن كان بإمكان أسرته جلب عروس جيدة لي لنقضي شهر العسل هنا قبل عودتنا جميعا

لمصر، وبالفعل رد علي بعد يومين بأن لهم جارة مواصفاتها تفوق الخيال من أدب ودين وخلق قويم وسنها مناسب لعمري جدا، لم يكن يشغل بالي الفارق العمري هذا فثقتي بقوة المال جعلت لدي يقينا بأنها ستمحو أي عوائق، وبعد رؤيتي لصورتها، ووجدت ملامحها لا بأس بها طلبت منه أن يحدث أهله عني، ويطلبون يدها رسميا لي مع تجاهل ذكر انتهاء عملنا الحالي، وجاءتني الموافقة سريعا، ولم يحدثني أخوها إلا في مكالمة واحدة اتفقنا فيها فقط على المهر الكبير الذي سيناله مني رغم أنه لن يجهز لها أي شيء؛ لأنها ستسافر مباشرة بعد العقد الذي تم بتوكيل قمت به لوالد هذا الشاب، وفي خلال أسبوع واحد كنت قد اشتريت عروسا ذهبت لاستقبلها في المطار محاولا إبهارها بالسيارة، وبدلتي باهظة الثمن، وكلي ثقة بأنها ستكون أشبه بريفي هبط بلا توقع في قرية سياحية ذات خمسة نجوم.

كنت في صالة استقبال القادمين منتظرا عروسا في زيها الأبيض المتألق تخرج متلفتة حولها في انبهار بهذا الجديد الذي حتما تراه لأول مرة في حياتها، وسيكون نجاحي بعد ذلك في جعل هذا بداية المطاف، ويليه الكثير والكثير من المفاجآت، والتي ستبدأ بسيارتي الحديثة، والمعدة بكل وسائل الراحة، ولكن فوجئت بها قادمة بمنتهى الهدوء تخفي وجهها بنقاب أبيض يتناسب مع فستانها، وخطواتها واثقة وقوية رغم بطئها، وعندما رأتني واقفا بلوحة تحمل اسمها تقدمت نحوي، ونظرات الدهشة في عينيها

المتسعتين لم تفارق كرشي البارز، والذي تكون عبر عشر سنوات من الراحة التامة، والنهم الكبير للطعام معوضا كل أيام الجوع التي عانيتها قديما، إلى ماذا تنظرين يا فتاة ؟! لقد تحدثنا في مكالمة قبيل سفرك، وتعرفنا قليلا، ورأيت صورتي قبل مجيئك ووجهي المكتنز فيها من المؤكد أنبأك عن حال بقية الجسد الذي لم يظهر بها، أنت قادمة بأسرع زواج في التاريخ بسبب حلم لم يطرق خيالك، فقد هبط عليك الزوج الثري الناجح المقيم في أرض الحجاز كهدية من السماء، وهذا ما يجب أن يكون نصب عينيكِ دوما.

قلت لها مبتسما:

– حمدا لله على سلامتك يا..

ابتسمت بهدوء وقاطعتني قائلة:

– نسمة.. أحب اسم إلى قلبي، وهو ما كان أبي يناديني به، وأريد سماعه منك دائما في حياتي الجديدة معك.

توقفت برهة غير مدرك لهذا، ونظرت لاسمها الحقيقي على اللوحة، ولكن تداركت الأمر بسرعة؛ فهذا لا يمثل فارقا معي، فكثيرا ما نجد أسماءً رسمية مسجلة بالأوراق، ولكن صاحبها مشهور باسم آخر مختلف تماما؛ فلم يعنِنِي أي الأسماء تحمل، وهل سأناديها بنسمة أم باسمها الآخر الذي نسيته تماما بعدها، توجهت يدي مصافحة لها لتمد يدها بتردد مستسلمة

داخل كفي الضخمة؛ لأهزها بقوة ضاغطا عليها كي أبث فيها مشاعر تمكني وقوتي وسيطرتي، وبعد الترحيب التلقائي سرنا تجاه سيارتي وعندما أشرت لها من بعيد قائلا:

– هيا يا عروس إلى سيارتك التي تستحقينها.

نظرت نحوها مدققا، ومترقبا لرد فعلها، ولكن نظرتها لها لم تدم سوى ثوانٍ منصرفة عنها نحو أمٍ تجاهد في جعل ولدها القعيد لا يتحرك كثيرا بحركاته العصبية على كرسية المدولب، وتمتمت قائلة:

– الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلا.

تضايقت من انتهاك كل وسائلي بهذه السرعة من الواضح أنها متدينة بقوة، وهذا التدين سوف يفسد عليّ حياتي، ولهذا وبينما هي جالسة بجواري غير مندهشة أو متطلعة لمكونات السيارة الحديثة قلت لها:

– هل كنت منتقبة هكذا في مصر ؟

بكل بساطة قالت:

– لا ولكن وجدتها فرصة لارتدائه بما أنه الزي الرسمي هنا ولن أتنازل عنه بعدها.

فقلت بقوة:

– هو الزي الرسمي لأهل البلد، وليس لنا لذا ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي ترتدينه فيها.

نظرت نحوي بدهشة وقالت:

– كيف هذا ؟! ظننتك ستفرح لأني سأكون لك وحدك ولن يراني غيرك !

بصرامة قلت:

– تفكيري ليس هكذا.. ستكونين لي وحدي سواءً به أو بدونه.

برجاء كبير يغلف صوتها قالت:

– الدُر مكنون وثمين لأنه داخل صدفته في أعماق البحار

لم أفهم جملتها، وبالتالي لم يصلني مقصدها فقلت بعنف: انتهى هذا الأمر ولا تجادليني فيه.

اعتدلت في جلستها، وصمتت، وظللنا خمس دقائق بلا كلام، ثم نطقت بهدوء وقالت:

– أعتذر إليك، ولا أريد أن أغضبك في ليلتنا الأولى، وكلي ثقة بعد معرفتي جيدا أنك ستقبل الكثير مما أحلم به.

سعدت بسيطرتي وقوتي، وخضوعها بهذه السرعة فهذا ما أبغيه فلم أرد عليها، وقمت بفتح المذياع لتنطلق أغنية صاخبة، وأنا أنظر بطرف عيني نحوها؛ فوجدتها تلتفت بوجهها نحو النافذة في اعتراض مكتوم، وربما كانت تستغفر في صمت؛ فابتسمت بقوة منتشيا برد الفعل هذا، وقد وصلها الدرس الأول بأنه لا يجب معارضتي.

بالطبع لعلمي بالعودة إلى مصر في خلال شهر أو أقل لم أسع لتحديث شقتي؛ فقد حجزت غرفة لنا بأحد الفنادق ليلة واحدة لتكون وسيلة إبهار وسيطرة أخرى، وكانت العمالة هناك كالعادة من مختلف الجنسيات، ركنت سيارتي بالموقف، ومنحت العامل البنجالي بقشيشا كبيرا أمامها، وتوجهنا للاستقبال، ولكن كان الوحيد المتواجد به من جنسية لا أعلمها، وعندما أخبرته بأن لي حجزا مسبقا إذا به يرد بالإنجليزية، وبسرعة وقال كلاما كثيرا لا أعلم ما هو فحواه؛ فقلت له ببعض الكلمات القليلة التي أعرفها بالإنجليزية

– ماي رووم نمبر ٢٤٧

أعاد الوغد نفس كلامه الكثير؛ فأخذت أتطلع يمينا ويسارا باحثا عن أي فرد يظهر عليه أنه يجيد العربية؛ ليكون وسيطا بيننا، ولكن إذا بنسمة تنطلق متحدثة بالإنجليزية، وبأسرع مما كان يتحدث هو، فتنهد الرجل وأخذ يحاورها وهي ترد عليه، وأنا بينهما كالأصم لا أدري فيما يتجادلون، وقبل أن أصرخ فيها متسائلا عن الأمر إذا بها تقول لي:

– الغرفة التي قمت بحجزها نزيلها السابق امتدت إقامته لأسبوع قادم، ورفض مغادرتها لأخرى، وسوف يوفر لنا مشروبا مجانيا كاعتذار رمزي لتغييرها، ولكني رفضت هذا المشروب لأن به شبهة.

شعرت بالحنق والغيظ في أقل من ساعة فقط منذ ظهورها، وهي تحطم كل وسائلي واحدة تلو الأخرى لذا قلت لها بعنف:

– ولماذا ترفضين قبل أن تستشيريني.

نظرت نحوي طويلا كأنما تدرسني، وشعرت بها قرأت كل ما يختلج بي؛ فقالت بصوت تعجبت كيف يخرج منها هادئا هكذا:

– أعتذر لك على ذلك.

تصنعت الود، وكأني أكافأها على اعتذارها، وقلت لها:

– حسنا لن أصغرك أمامهم بقرارك هذا، ونحن لسنا في حاجة لأي شيء مجاني يمكننا شراء ما نريد.

في اليوم التالي توقعت أن أرى خيبة الأمل على وجهها عندما تطالع الشقة، وذلك لأنها كانت بسيطة الأثاث وغرفتين فقط، ولم تكن منسقة بالشكل الكافي مما يتناسب مع حياة شخص امتهن العزوبية لفترة طويلة؛ وذلك لأني لم أخبرها بأن عمرنا هنا لن يتعدى الشهر فقط، ولكن فوجئت بها تستطلع الشقة بملامح عادية ليس بها دهشة أو خيبة رجاء، وحتى عندما رأت مفارش غرفة النوم، وهي ملقاة على الأرض بجوار السرير صرفت نظرها عنها سريعا؛ كأنما لا تريد أن تظهر لي بأنها لاحظت شيئا يعيبني وبدلت ملابسها، وقالت لي ووجهها يحمل بسمة واسعة:

– المطبخ ليس به ما أبغي من مأكولات فهل من الممكن أن تذهب لتأتيني بالقائمة التي سأكتبها لك حتى أعد لك وجبة تنسيك كل ما أكلته من قبل ؟

كنت على وشك الصراخ فيها قائلا *" لست أنا من تصدرين له أوامر أو ترسلينني للشراء كصبي بقال صغير "* ولكن إغرائها لي بهذه الوجبة أسال لعابي بلهجة الثقة التي تتحدث بها، فرغم مؤهلها العالي والكبير، وإجادتها للإنجليزية من الواضح أنها سيدة مطبخ من الطراز الأول، وهذا مالم أجربه

أبدا فقبلت، وانصرفت لجلب ما تريد وبعد ثلاثة أرباع الساعة فقط عدت، وأنا أنظر بذهول لشقتي التي ظننت نفسي دخلتها خطأً، فبلمسات بسيطة جدا قلبتها رأسا على عقب، ومنحتها بُعدا ومشهدا خلابا لم أره من قبل، ولأول مرة يفوح منها رائحة ذكية، وكل شيء فيه منظم ومنسق بأروع ما يكون، يبدو أن المهر الكبير الذي دفعته ثمنا لها يستحق كل قرش فيه، وما أكد لي ذلك وجبتها الشهية بمذاقها الذي لم يطرق لساني من قبل فلم أجد بدًّا من الابتسام لها، ومدحها قائلا:

– أنت سيدة منزل رائعة بالفعل.

ابتسمت في سعادة طفولية وشكرتني على مجاملتي، وإذا بها تلقي رأسها على صدري، وتطوقني بذارعيها في رد فعل أدهشني، وتقول بصوت خفيض:

– وفيق أنا إنسانة بسيطة جدًّا وليس لي في الدنيا سواك، أرجوك حافظ عليّ واحمني وعاملني كطفلة، وسوف أكون لك أكثر من أمةٍ تعمل تحت قدميك.

أعجبني جدًّا تذللها والإعلان أنها بدوني لا شيء فابتسمت أكثر، وقلت لها:

– اطمئني ستعيشين معي حياة سعيدة يا نسمة.

وبعد ثلاثة أيام هادئة عدت للعمل؛ لأننا كنا في مرحلة التصفية التامة لكل شيء، وأهمها التصفية المالية التي كانت عملا مرهقا نفسيا وجسديا لي، وحاولت جس نبض "مالك" إن كان هناك عملا في الجنوب يمكنني مساعدته به آملا في أن يلحقني هناك بأي وظيفة تبقيني هنا، ولكنه بدبلوماسية ضحك وقال:

- يكفي ما قدمت يا وفيق لقد أتعبتك معي كثيرا بالفعل لا أعلم ما أنا مقبل عليه هناك، ولكن أنت أول من أناديه عند حاجتي.

فرحت بالوعد المبطن في كلماته ببحث فرصة العمل هناك، ومرت الأيام وقد انتهى كل شيء ولم يتبق إلا أسبوع على عودتي، وقررت مصارحة نسمة لكي تستعد، وكانت تلك مفاجأة حقيقية لها وأفلتت منه عبارة قاتلة حين قالت:

- لقد كان أحد أهم عوامل موافقتي على هذه الزيجة المكث هنا خارج مصر، وفي ذلك البلد تحديدا حتى أتمكن من الحج والعمرة وقتما شئت.

فصرخت فيها قائلا:

- معنى هذا أنك نادمة على الزواج بي ولا أصلح لك !! تذكري كم كنت تبلغين من العمر قبل التفكير في هذا.

اختلج وجهها بالألم، ولكنها محته بسرعة في قدرة مدهشة، وابتسمت ابتسامة كافحت كثيرا لرسمها، وهي تقول:

- لم أقصد ذلك.. لم أكن أعرفك وقتها لتقييمك حين وافقت، وإنما أقصد كنت أتمنى البقاء هنا بعيدا عن مصر، وأزماتها إن أمكن، وبجوار قبر الحبيب صلى الله عليه وسلم، أما الآن وبعد أن عرفتك فأنت زوجي وسوف أكون معك أينما ذهبت وثق بوفائي وإخلاصي لك.

لم أرد عليها، وملامحي ما زالت محتفظة بسحنتها الغاضبة رغم رضائي بردها، وقد حمل اليوم التالي ما يزيد من تذللها وخضوعها أمامي، فبعد زواج جميع أخواتي، وموت أبواي لم يعد هناك ما يربطني بقريتي، ولهذا كان تخطيطي هو العودة للإقامة بالقاهرة بجوار نقودي عازما البحث عن وظيفة جيدة بما لي من خبرة طويلة في العمل كمحاسب، والتي حتما ستكون بمقابل معقول هناك، ولكن ليس لي بها مقر أو سكن، ولا أعرف أحدا فيها، فورد بذهني اقتراحا يحل لنا هذه المشكلة، طلبت منها الاتصال بأخيها أن يستضيفنا لفترة وجيزة حتى نشتري شقة تليق بنا، وننتقل إليها، ولكن الوغد رد عليها بأنه تنفس الصعداء عندما تخلص منها، ومن همها فكيف تعود إليه بهذه السرعة، ورفض رفضا قاطعا، وأخبرها بأنه لا يريد رؤية وجهها، ولن يستقبلها حتى بالمطار، انهارت وبكت وانكسرت بأكثر مما فعلته بها بعد ذلك، رغم رفضه الذي أفسد خططي إلا أنه أسعدني بما فعله معها، فذكاؤها الكبير في التعامل معي، وشهادتها الأكبر، وقدراتها، وإمكاناتها

هذه قد تبخرت تماما، ولم يعد أمامها إلا التذلل والتودد الدائم لي فأنا الفرصة الأخيرة لها في الحياة بالفعل، وقد استثمرت ذلك جيدا في كل تعاملي معها، عندما طلبت مني أن نقوم بعمرة قبل نزولنا لمصر، وبهذا يكون شطر حلمها قد تحقق لم أقل لها سوى كلمة واحدة " لا " فلم تعقب، ولم تظهر ذرة تأفف فقد انتهى الأمر بالنسبة لها؛ فكلمتي سيف لا يمكن رده أو مجابهته، وهذا أروع ما يمكنني الحصول عليه.

عدنا لمصر لنقيم في فندق متوسط لمدة يومين، وقد وفى أخوها النذل بوعده، ولم يظهر أمامي إلى الآن حتى أني أجهل ما هي ملامحه، وبعد السؤال والبحث قمت بتأجير شقة رائعة في منطقة راقية تليق بي كملك متوج عاد من العالم السحري الذي حقق أحلامه القديمة بالفعل، وذلك كحل مؤقت حتى أستقر بعمل جيد، وبعدها يكون شراء شقة دائمة قريبة منه، ولكن فشلت كل محاولاتي لمدة شهر في البحث عن عمل، وبينما أنا جالس في يوم مهموما، والحيرة تتلاعب بي، ولا أدري كيفية التخطيط لحياتي القادمة إذا بها تتمهل وتتنحنح قائلةً ببطء، وهي تضغط على أحرفها في تركيز كبير:

– عندي لك حل أراه مناسبا، وأتمنى أن تدرسه جيدا قبل أن تقبله أو ترفضه.

نظرت نحوها متسائلا، فاستطردت بنفس التركيز قائلةً:

– تخصصي الذي درسته، وعملت فيه يمكنك افتتاح شركة في مجاله أنت مديرها، والقائم على كل شئونها، وأنا مجرد مستشارة فنية فقط لك أقترح عليك مجالات العمل وأقسامه، وكيفية إدارتها، وأنت من يقرر قبول أو رفض هذه المقترحات بما لك من خبرة وقدرة أعلى مني في الحياة، وبمعارفي من عملي القديم يمكنني جلب تعاقدات واستثمارات كبيرة لك كرد جميل بسيط لكل ما تفعله لي ولا يمكنني سداد معشاره.

رغم لهجتها التذللية واقتراحها الجيد إلا أني رفضت بدون ذرة مناقشة، فكيف أكسر وأحطم كل ما وصلت إليه معها ستكون هي السيدة التي فتحت لي مجال العمل وجلبت لي الاستثمارات، وإن كانت تتذلل الآن للموافقة، فذلك كي تصل لبغيتها، وبعدها سوف تتحكم في كل شيء بما لها من خبرة ومعرفة في هذا المجال الذي لا أدرك شيئا عنه، قلبت يديها متحيرة، وقالت ببطء:

– أشهد الله عز وجل أني ما طلبت ذلك إلا لأجلك أنت !!

وقامت مسلمة، ومنطلقة لغرفتها كعادتها عندما تعجز عن استكمال حوارها معي.

كنت أخرج كل يوما صباحا بسيارتي التي جلبتها معي من الرياض لأطرق أبواب الشركات الكبيرة التي حصلت على قائمة بأسمائها وعناوينها وأعود

عصرا منهكا، وعقلي يبحث في كل الحلول وأجدها كلها لا يمكنني الإقدام عليها، ولم تحاول هي النقاش مرة أخرى في مقترحها هذا.

وفجأة جاءني خاطر مذهل وفكرة أراها عبقرية تعجبت كيف لم أطرقها منذ اليوم الأول أو حتى قبل عودتي من الرياض، وعلى الفور وبلا تردد تناولت جوالي لأبدأ مكالمة طويلة المدى والمدة، فقد طلبت مالك وبعد أن سألته عن صحته وأحواله، وبعد أن أجابني أنه بخير، وقال بأنه ما زال يعمل على إدراك جميع تفاصيل أعمال أبيه في الجنوب، ولذا لم ير فرصة تناسبني أمامه بعد، كان ظنه بأني أتصل لأجل الوظيفة أو العودة للعمل معهم مرة أخرى، ولكن كانت مفاجأتي، وطلبي أكبر من ذلك بكثير فقد قلت له:

– كيف حال أختك عنود ؟

– بخير الحمد لله.

– هل تزوجت ؟

طال صمته، وقال بصوت خافت:

– لا!..

– مالك.. أنت في نفس عمري تقريبا، وبالتأكيد التقاليد البالية، والأعراف العجيبة التي تفسد حياة الكثيرين تستنكرها مثلي تماما.

صمتُّ آملا أن يرد عليّ بأي تعليق، ولكنه ظل ساكنا كذلك دافعا لي للاستطراد فأكملت قائلا:

- ما سأخبرك به هي أسرار لم يكن بإمكاني إخراجها من قبل، وأرجو ألا تغير شيئا بداخلك نحو عنود أو نحوي، أنا وعنود مرتبطين ببعضنا البعض بقصة حب كبيرة، ولكن بسبب أن العائلة يجب مصاهرتها بمن في نفس درجتها قتلنا ذلك الحب، وقررنا دفنه تماما بأعماق صدورنا، وكان الابتعاد خير علاج لهذا حتى لا نقع في أي محرم، وذلك هو السر الحقيقي لتركي العمل في المخزن لديها والمجيء إليك في الرياض، ويمكنك سؤالها عن ذلك ومدى صدقه، كنت أشعر بالراحة لقربي منها، وأننا في بلد واحد، ولهذا لم أتزوج طوال هذه المدة، ولكن بعد نزولي مصر إذا بكل شيء يشتعل بي، وأصبحت الحياة عندي هي أن أكون مع عنود، فكرت كثيرا، وألهمني الله عز وجل أنك بعد وفاة أبيك قد تخرج عن الصندوق، وتؤثر سعادة أختك عن بعض التقاليد والأعراف البالية، وأنت تعلم بامتلاكي الآن لثروة لا بأس بها، ويمكنني القيام على جميع نفقاتها، لذا أنا أطلب منك يد عنود بشكل رسمي.

صمت مالك كثيرا ولكن من الواضح أنه تذكر ما نسيه وقال لي:

- ولكنك تزوجت بالفعل يا وفيق قبل نزولك لمصر

رددت بسرعة قائلا:

– لقد فشل زواجي هذا بسبب حبي القديم فلم أطق الحياة مع زوجتي الجديدة، وأنا أضعها طوال الوقت في مقارنة ظالمة لها مع عنود، ونحن بالفعل في سبيل الانفصال الآن.

طال صمته بأكثر مما كان، ولكنه رد عليّ بصوت هاديء قائلا:

– لقد فاجأتني بالفعل بما لم يخطر على بالي لذا أرجوك دعني أستغرق الوقت المناسب للتفكير، ودراسة هذا الأمر وأنا من سيتصل بك لأبلغك بقراري أيًّا كان.

كادت الفرحة التي شملتني أن تدفعني لأتقافز كالأطفال، وكتمت صيحتها بأقصى ما يمكنني، لقد نجحت في الخطوة الأولى بالفعل ونلت فرصتي، لقد كانت الخشية من المصارحة بما بيني وبين عنود أن ينتهي أمري هناك فماذا بعد أن انتهي بالفعل؟ لم يعد هناك وجود لما أخشاه، ولهذا ألقيت بطعمي، وقد يعود لي بصيد ثمين لأعود هناك زوجا للسيدة، وصاحب أعمال وأموال كثيرة لأعيش الحياة الجميلة التي اعتدت عليها، وذلك إن وافق مالك على طلبي، والذي أثق بعدم تردد عنود في الموافقة عليه كذلك؛ فقد حفظت لها ما أرادت طوال هذه السنون، وذهابي لأخيها مباشرة يجعلني أتجاوز رفضها المحتمل، والذي قد يكون مبنيا على أوهام، فمالك ليس كأبيها حتما، أما في حال رفضه لن أخسر كثيرا فالأمر كان منتهيا بالفعل، ولكن هل يتسبب ذلك في أزمات لعنود ؟ هززت رأسي مهونا، وغير

عابئ بتلك المخاطر المحتملة عليها وكلي رجاء وأمل أن تنجح محاولتي، ولكن طرق سمعي نهنهات مكتومة، فالتفت ورائي لأجد نسمة غارقة في دموعها، وكان من الواضح أنها استمعت للمكالمة بأكملها؛ فصرخت بها كيف تتنصت علي مكالماتي هكذا ؟

ارتمت على كرسيها، وهي تجاهد في مغالبة بكائها وأخيرا قالت:

– وفيق لقد كنت مخلصة لك تحملت الكثير وما لا أطيقه لأجلك وكي لا أخسرك، لماذا أنا هينة عندك لهذه الدرجة ؟ هل رأيت مني سوءاً منذ مقدمي وحياتي معك ؟

لم يرق لي كلمة أنها تحملتني هذه فهاجمتها قائلا:

– الزمي حدودك يا نسمة أنا لا أعلم شيئا عن ماضيك ولا أي مصيبة تسببت في تأخير زواجك وأخيك الذي من دمك هذا رماك، وأسرع بالتخلص منك، من المؤكد أنه لم يفعل ذلك إلا لأنك بلاء كبير عليه لذا لا تدفعيني للبحث واستخراج ما خفي عني والذي أثق بعدم نصاعته.

ظلت محدقة فيّ مدة طويلة بعينين متسعين لا ترمشان أبدا، والدموع تنساب منها بشكل عجيب، وبعد هنيهة انهار هذا التخشب وسقطت فاقدة الوعي أمامي، لقد أصبحت عبئا كبيرا عليّ بالفعل.. حاولت إفاقتها بطرق كثيرة، وفشلت ولكنها استفاقت وحدها بعد نصف الساعة لتلزم الصمت

التام والسكون في سريرها والدموع لا تتوقف، وأنا كذلك لم أحاول تبرير ما فعلت أو تلطيف الأمر عليها، بل لقد شرعت في البحث عن مبرر لما سأقدم عليه في حال موافقة عنود ومالك على تلك الزيجة، لا يوجد مخلوق بلا خطأ أو خطيئة، ورغم أني بالفعل لم أر منها إلا كل خير، وكان تدينها حقيقا جدا، وليس نزعة تمر وتنزوي بمرور الوقت، فكم استيقظت ليلا لأجدها تتهجد وتصلي وصوتها الباكي لا يكف عن الدعاء لي ولها، وصيامها أغلب أيام الأسبوع لم يكن يقطعه إلا رغبتي فيها نهارا، والمرات القليلة التي خرجت معها فيها للتسوق كان تعاملها مع الناس راقيا بصوت خفيض، وبأقل ما يكون من الكلمات، وبصرها لا يطالع إلا ما تريد من شأن دون متابعة هذا أو ذاك، حتى التلفاز وفي المرات القليلة التي حاولت مشاركتي اهتماماتي، وبينما كنت أشاهد فيلما عربيا، وجاء مشهد شبه عارٍ أشاحت بوجهها، وظلت تستغفر كثيرا وقالت بهمس:

– أسأل الله عز وجل ألا يعاقبني على ذلك.

كنت أعلم أنها توجه لي تذكيرا غير مباشر، ولكني لم أعيرها اهتماما، ولا كأني سمعت همسها.

رغم كل ذلك حتما سأجد هذا الخطأ، وللأسف بعد طول بحث، وتنقيب لم أجد قشة واحدة يمكن بها تحريك ميزان سيئاتها معي.

بدأت في التعامل العصبي معها بمنتهى ذروته لأدفعها لتلك الأخطاء التي أتحجج بها قريبا، وكلي ثقة في موافقة عنود التي حتما تخطت الخمسين الآن، وستجد الزواج بي هدية سماوية جاءت بعد فوات الأوان، والتغيرات الاجتماعية الكبيرة التي حدثت بعد انتشار الفضائيات والإنترنت حتما عدلت الكثير من المعتقدات في تلك المجتمعات، ولكن نسمة تحملت في جلد عجيب.

وأخيرا جاءتني الهدية من السماء، أحد اللاهين أراد العبث، ومعاكستها ورغم ردها الصارم والقوي عليه، ورغم يقيني بانعدام معرفتها به أو وجود شبهة صلة من أي نوع إلا أني تلككت، وتصنعت المشكلة الكبرى، والفضيحة التي لم أنتظر رد مالك كي أتخلص منها بها، وقمت بتطليقها بمنتهى السهولة؛ لأن المؤخر كان بسيطا تهاون فيه أخوها مقابل المهر الكبير الذي اغتنمه، وكان في نيتي ردها مرة أخرى في حال رفض عنود ومالك لمطلبي، فلن أدفع مهرا جديدا في زيجة أخرى، وهي ليست بالسوء الذي يدفعني لكراهيتها.

بعد خروجها مهانة بفضيحة كبري في المنطقة الراقية التي كنا نقيم بها ظللت انتظر اتصال مالك، ولم يفعل فاتصلت به، وإذا بالوغد لا يرد عليّ يبدو أن المشروع قد انهار، ولكن منيت نفسي بوعده في الاتصال في حال القبول أو الرفض؛ فقررت الانتظار أكثر وأكثر، ولكن كان وقوعي في هذا الفخ معكم، وميتتي هنا هي النهاية الأخيرة لكل مشاريعي وآمالي.

الفصل الأخير

الرحم المسموم

سكت وفيق عن حكايته ليعم الصمت التام أرجاء المكان وأخيرا نطق باسم قائلا:

– هل تعلم يا وفيق؟.. لقد كنت أظن نفسي أكثركم ذنوبا وأشدكم جُرما، ولكن بعد الأهوال التي قصصتها خففت عني الكثير، والأعجب في أمرك أنك لا تستشعر أي ندم أو ذنب فيما فعلت وتقص الأمر علينا كأنه شيئ عادي جدًّا !!

تباطأ وفيق في الرد قليلا، ثم نظر نحو باسم وقال:

– لا يا باسم أنا بالفعل أقص عليكم كل شيء بأدق تفاصيله بما فيه كل ما دار بصدري، والذي لم يعلمه إلا الله، وذلك بسبب اقترابي من ملاقاته؛ وكأن اعترافي الآن أمامكم قد يخفف بعضا من العقاب الذي سألقاه.

قال نبيل بألم:

– كم هي تعيسة زوجتك هذه، والتي أراها مثالية لا تستحق كل ذلك فأي ذنب وقعت فيه، وعاقبها الله بك ؟!

قلَّب وفيق كفيه، وكأنما لا يجد إجابة، وعاد للتممد والنوم مرة أخرى، وكأنما يتعجل الموت الذي يخلصه من مشاعره التي تعتمل به الآن.

وأخيرا نظر نبيل نحو محمود الصامت تماما، والمتجمد بشكل عجيب، وقال له:

– لم يعد سواك يا محمود إنه دورك يا رجل، وإن كنت أراك أخفنا وطئا، وسيكون أكبر ذنوبك غالبا أنك أكلت قطعة الشيكولاته بدون علم أبيك.

كانت عبارة نبيل هي الحافز الذي تنتظره دموع محمود لتنهمر من جديد مع نهنهة عجيبة كأنما قد تذكر فقد عزيز فقال باسم مازحا:

– هل أثرت فيك ذكرى اختطافك للحلوى لهذه الدرجة ؟!

حاول محمود كفكفة دموعه، وأخيرا خرج صوته لأول مرة مبحوحا بقوة وقال:

– تقول بأني أخفكم ذنبا وهولا !! ما رأيك لو قلت لك بأن ذنبي هو مجموع كل فعلتموه وزيادة ؟!

فرك باسم كفيه بحماس، وقال:

– مرحى يبدو أن قاعدة "من تظنه موسى يكن فرعونا" صحيحة.. هيا أيها الرقيق الساهي قص علينا جرائمك البشعة، وبمنتهى التفصيل.

ظل محمود برهة يحاول لملمة شتات مشاعره، وأخيرا نطق بوهن، وبدأ يقص عليهم قصته.

*****

قصتان مرتا عليّ، ولم أعلم مدى عبقريتهما وتأثيرهما سوى الآن، القصتان وردتا في القرآن الكريم على رءوس الأشهاد منذ نزول آياته، وحتى تقوم الساعة، ولم يكن ذلك إلا للتحذير من عاقبتهما، وللأسف لا يعلم قيمتهما إلا من يقع في هذا الذنب.

الأولى قتل قابيل لهابيل رغم صلة الدم بسبب الغيرة التي سحقت قلبه، ولم يدر بقسوة ذنبه إلا بعد أن فاضت روح أخيه أمامه، ومشهده وهو يحمله، ويجري به يمينا ويسارا، والرعد يخسف بفؤاده، ويشل تفكيره، ولا يدري ماذا يفعل به بعد أن نال منه، والثانية ما فعله إخوة يوسف بأخيهم بسبب تفضيل أبيه له ومحبته الزائدة عنهم، وهذا هو الدافع أو التبرير لكل ما فعلت إن كان ما سأقصه عليكم يستحق التبرير.

كنت الابن الوحيد المدلل لوالدين متوسطي الحال، وبالطبع كمعظم الأسر يجدُّون في العمل والتخطيط لمستقبل أبنائهم، والادخار لهم؛ وقد نجحا في ذلك بالفعل برصيد بنكي باسم أبي به ما قد يساهم في بدء حياتي، وتكلفة تجهيز وزواج أختي التي جاءت بعدي بأربع سنوات لتنتهك كل

النعيم الذي كنت أرفل فيه، والتي رغم محبة أمي لي وتدليلها الزائد حتى الرمق الأخير إلا أنها كانت الأثيرة عند أبي فقد سماها باسم أحب مخلوق إلى قلبه وهي أمه – عليها رحمة الله –.. وأصبح يراها هي رحيق الحياة بالنسبة له، وهذا ما أوغر صدري نحوها ربما بأكثر مما حدث مع قابيل وأخوة يوسف مجتمعين، حتى أني أذكر عندما بلغت السادسة من عمري، وبينما هي في عامها الثاني تركتها تخرج من باب الشقة إلى نهر الطريق، وعندما استفاقت أمي لمغيبها، ووجدت الباب مفتوحا سألتني عنها هل خرجت أم لا تصنعت البراءة، وقلت لها لا أدري فنادت أبي الذي خرج مسرعا ليبحث عنها، ووقفت هي في الشرفة دامعة، وتنتظر ظهوره بصحبتها فكنت أقول لها مهدئا بمنتهى البساطة:

– لا تبكي يا أمي لقد ضاعت وانتهى الأمر نادي على أبي فلن يجدها.

وبالطبع كان ضربها في مغيبهم وتحطيم ألعابها وتمزيق أثوابها ولصق تهم كل ما ارتكبته أنا من خطايا بها كل ذلك كان هو العادي، ومع كل يوم كانت تكبر فيه كان الحقد في قلبي يزداد نحوها؛ فهي المتفوقة دراسيا، والتي تلزم الصلاة وتحفظ القرآن، وتطيع أبي في كل صغيرة وكبيرة على نقيضي تماما، وكلما قبّلها أبي وضمها لصدره وقال عبارته الأثيرة:

– أنت من خرجت بها من الدنيا، ومن ستنفعني في الآخرة

كلما تكررت هذه العبارة أمامي كلما تمنيت قتلها والتمثيل بجثتها ثم إشعال النار فيما تبقى منها.

وكان الطبيعي جدا تدينها الواضح عندما كبرت، ودخولها لكلية من كليات القمة بينما كنت أنا وقتها على وشك التخرج من كلية الزراعة، ولم أكن حتى أواظب على الصلاة إلى إذا صحبني أبي لها عنوة بعد سيل من الشتائم مع ذكر ما يجعلني على وشك إعلان خروجي من هذا الدين عندما يقارن بيني وبينها.

وأخيرا تغير كل شيء في لمح البصر؛ فقد مات أبي وأمي في نفس اليوم بصدفة عجيبة، ولم يعد لي في هذه الدنيا سواها، ولقد قالتها من بين دموعها لي:

- لم يعد لي في هذه الدنيا سواك يا محمود أنت الآن أبي وأمي وليس لي حياة بدونك.

كان المنطقي وقتها أن يرق قلبي نحوها، وقد صار زمام جميع الأمور بيدي وحدي، ولن أجد من اليوم من يفضلها عليّ وبإعلان ضعفها وحاجتها لي، وأني كل دنياها كل ذلك من المفترض أن يدفع شعورا بالمسئولية نحوها، وبالفعل رق قلبي قليلا ربما تأثرا بوفاة والديّ، ولكن بعد مرور شهرين فقط

بدأ شيطان الانتقام يعتصر فؤادي ويبث في نفسي كل المشاعر السلبية نحوها رغم طيبتها وحسن معاملتها لي.

بدأ ببث فكرة الاستحواذ على كل شيء لي وحدي، وقد كان من السهل إقناعها بعمل توكيل عام لي كي أتمكن من سحب الأموال المودعة في البنك باسم أبي بعد عمل إعلان وراثة بأننا الوريثان الوحيدان له، وهي بمنتهى البساطة والسذاجة لم تسألني أو تتخوف مني، وقمت بالفعل بسحب جميع الأموال المخصصة لي ولها مستقبلا، وأودعتها في حساب خاص فتحته لي، ولم أتوقف عند ذلك وإنما قمت ببيع نصيبها في الشقة لي وبهذا أصبحت الشقة باسمي أنا فقط، وبعد اطمئناني على سلبها كل حقوقها ما عدا قيمة المعاش المستحقة لها والتي تركتها لتتكفل بمصاريفها دون مطالبتي بشيء، وكان ذلك الخطأ الوحيد الذي أنبت نفسي عليه فيما بعد، وبدأت في مضايقتها والتضييق عليها، كنت أفرض عليها أن تقوم بتنظيف الشقة وإعداد المأكل والمشرب قبل ذهابها لكليتها، ورغم أني بالسنة الأخيرة في كليتي كنت أسهر بالخارج مع صحبتي الفاسدة منفقا عليهم ببذخ بعد أن أصبح في رصيدي الكثير ولا أعود إلا بعد منتصف الليل فارضا عليها ألا تنام حتى عودتي رغم علمي باستيقاظها فجرا للصلاة، وما كان يغيظني وبقوة هو عدم معارضتها لكل ذلك وتنفيذه بمنتهى الرضا والقبول، ولم يعوقها عن أي شيء من دراستها أو مذاكرتها أو حتى عبادتها التي كنت أظنها سابقا تمثيلا كي تنال رضا أكبر من أبي –رحمه الله– والذي

كان يفيض عليها كلما رآها متعبدة وملتزمة بكل ما يلقنه لها، بدأت في شتمها وأحيانا ضربها غير مراع لسنها، وهي لا ترد عليّ أبدا بأي قول يمكنني أخذه عليها، ولكن مررت يوما بباب غرفتها منتصف الليل لأجدها تبتهل باكية وتدعو لي أن يهديني الله، وأن يرقق قلبي نحوها، لم يكن الموقف يحتمل أي تمثيل أو مداهنة لي، وكان كفيلا بترقيق قلبي نحوها، ولكن مخزون سنين من الكراهية والحقد نحوها كان حاجزا كبيرا نحو ذلك، ودفعني للنقيض وهو طلبي منها ألا تصلي ولا تقرأ قرآنا أمامي، وفرحت جدا عندما رأيتها بدأت في استخدام الحاسوب، واستغراق معظم وقتها عليه ظنا مني بأن ذلك سيدفعها للفشل وإهمال مذاكرتها بمثل ما يحدث معي فأنا لا أريدها في يوم تخرجها ذات مهنة مرموقة تفوقني ويمكنها التخلص بها مني، بالطبع تتعجبون كيف خرجنا هكذا من رحم واحد ؟! أجيبكما بجملة كانت تقولها أمي عندما يشتد إجرامي نحو أختي أو تكثر أخطائي فقد كانت تقول لي:

- لقد تسمم رحمي بك، وستظل مسموما هكذا في حياتك؛ وذلك لأنها أصيبت بمرض تسمم الحمل أثناء مكثي برحمها.

ولكن ظهر ما غير الكثير وبدل موقفي نحوها بشكل عجيب، وذلك عندما عدت من كليتي عصرا ذات يوم مسرعا لجلب مبلغ من المال نسيت أخذه صباحا كي أتمكن من الصرف على لهوي المعتاد عقب انتهاء مواعيد

كليتي، بينما كنت أحكم غلق باب الشقة عقب دخولي وعند الاستداره لأكمل مسيري داخلها إذا بباب غرفتها ينفتح ليخرج منه بدرا مكتمل البهاء وهو يقول:

- سوف أضيف عليه السكر زيادة.

ثم نظرت نحوي وشهقت بفزع، وعادت مسرعة إلى داخل الغرفة، وهي تغلق الباب خلفها، وأنا متجمد في موضعي أحاول استرجاع تلك الملامح البارعة والدقيقة في كل تفصيلة جميلة بها، وبشعرها الأسود الكثيف والمنسدل على كتفيها..ياللهول هل يوجد جمال بمثل ما رأيت ؟!!

هممت بالذهاب لدخول الغرفة مستطلعا الكثير؛ ولكن خرجت أختي لتغلق الباب خلفها بعناية وهي تتساءل في دهشة:

- لماذا عدت الآن على غير عادتك؟!..

كنت أنظر نحو الباب وبصري يكاد أن يخترقه وتجاهلت سؤالها سائلا لها:

- من هذه الساحرة التي معك ؟!

- إنها سمر زميلتي، وخرجت بلا حجاب ظنا منها أننا وحدنا لتأكيدي بعدم مجيئك قبل منتصف الليل.

قلت فرحا:

- حسنا يجب أن أعتذر لها.

ابتسمت وقد فهمت مقصدي:

- سأعتذر لها نيابة عنك.

فقلت لها مهددا:

- لن أنصرف واترك لكما الشقة، وسأضيق عليكما إن لم أعتذر لها بنفسي.

تنهدت وقالت:

- حسنا سأستأذن منها أولا ابق هنا ولا تتحرك.

ولكني لم ألتزم بوعدي لها ودخلت مباشرة خلفها لأجد ذلك القمر المنير، وهو يعدل حجابه وقبل أن تنطق أختي قلت لها:

- أنا آسف جدًّا لم أكن أعلم بوجودك هنا، وإن كان ذلك من حسن حظي بالطبع.

نظرت أختي نحوي بعنف، ولكن قبل أن ترد هي نطقت سمر بارتباك قائلة:

– أنا من يعتذر لاقتحامي بيتكم، وأخذ راحتي بأكثر مما أستحق.

صوتها الساحر نال مني ووجنتيها المتوردتين باحمرار الخجل زادتا من بهائها، فقلت لها:

– هذا الجمال الأخاذ لا يعتذر أبدا.

ابتسمت ابتسامة فرحة وسعادة بجملتي، وحاولت مداراة وجهها بعيدا عني وصاحت فيّ أختي قائلة:

– الآن هل من الممكن أن تتركنا وحدنا ؟!

تحركت بقدمين مثقلتين ووجه سمر هو المرتسم أمامي ويشغل كل خيالي، وبدلا من الخروج للصحبة إياها قررت المكث بالبيت مجاورا لسمر بأقرب ما يكون، وتذكرت جملتها وأنا أمام الباب فاستدرت سائلا لها:

– أي شيء كنت ستزيدين له السكر بغمس إصبعك فيه ؟

ضحكت ضحكة مكتومة وردت عليّ أختي قائلة:

– إنه الشاي والذي أعتقد بأنه لم يعد يصلح الآن.

فقلت لها:

– حسنا سأعد لكما بدلا منه شايا لن يفارق طعمه لسانكما أبد الحياة.

وقبل أن ترد بالرفض الذي أتوقعه خرجت مغلقا الباب خلفي، واندفعت إلى المطبخ لأتفنن في إعداد الشاي بما يوفي بوعدي لهما، ولكن منعتني من الدخول مرة أخرى إلى حيث تتربع سمر بجلستها على عرش إعجابي، فاكتفيت بهز رأسي، وعدت لغرفتي منتظرا سماع الأصوات الدالة على انصرافها، والتي لم تأت سوى بعد ساعة، فخرجت مقابلا لها في الصالة وقائلا:

– أرجوا ألا ينقطع مجيئك هنا مرة أخرى بسببي.

فابتسمت بخجلها المعهود، وقالت بصوت خافت:

– إن شاء الله.

ما إن غُلق الباب خلفها حتى أسرعت نحو الشرفة مطالعا لها في مشيتها السريعة، وأخيرا انعطفت خارجة من شارعنا، فعدت لأجد أختي عاقدة ساعديها أمام صدرها وتنظر نحوي بعينين متسعتين قائلة:

– دعك من سمر فهي فتاة ملتزمة، وليست مثل اللاتي تعرفهن.

استفزتني بجملتها وكنت على وشك قول أني سأثبت لها النقيض، ولكن ذلك سيفسد لي خططي فقررت المهادنة حتى أتمكن مما أريد، وقلت لها مبتسما:

- يبدو أن تغييري والتزامي سيكونا على يد سمر هذه فأنا لم أرى جمالا كهذا من قبل، ومن الواضح أنها طيبة جدا وخلوقة بالفعل.

شعرت بالفرحة في صوتها، وهي تحاول أن تجعله صارما قائلة:

- ومن قال بأنك ستراها أو تحدثها فيما بعد ؟

قلت لها بتخابث:

- لو أردت تضييع فرصة التزامي وتغييري فلتكوني حائلا بيني وبينها.

تركتها وأنا أعلم بأنها ستفكر كثيرا فيما قلت، وستختبرني لترى هل هناك بالفعل فرصة لتغيري بسبب هذا أم لا

ولكي أمنحها طرف خيط عندما سمعت آذان المغرب خرجت مناديا عليها، وهي أمام الحاسوب قائلا:

- هل تريدين شيئا لأجلبه معي عقب صلاة المغرب جماعة بالمسجد ؟

نظرت نحوي مندهشة وكأنما هي تقول " الأمر جدي بالفعل"

وقالت لي:

- فلتجلب لنا بعض الخبز فقط لوجبة العشاء.

فابتسمت لها وقلت:

- حسنا وسوف أدعو لك في صلاتي.

خرجت ولدي يقين بعدم تصديقها لما أفعل وفهمها لمآربي من ذلك، ولكن توددي لها في الحوار، وتغيير معاملتي بشكل كامل في هذه الليلة لم أتخيل أن تكافأني عليه بتلك السرعة عندما قالت لي محذرة قبل ذهابها للكلية صباحا:

- سمر ستأتي معي اليوم فلا تعبث معها بمثل ما حدث أمس.

يالك من ماكرة لقد فهمت الرسالة، ولهذا فعلت ما لم تقم بالتحسب له وذلك بالمرور عليها في كليتها للمرة الأولى، وعندما علمت بأن انصرافها سيكون بعد محاضرة أخرى قد تستغرق ساعة كاملة ظللت منتظرا لها لأجدها قادمة بصحبة سمر، والتي كانت تتعثر في خطواتها عندما رأتني.

وقفت سمر أمامي، وعيناها لا تفارقا الأرض خجلا في صمت تام، وأنا أحدث أختي بينما عيناي مسلطتان عليها، وأخيرا وافقتا على مرافقتي إلى البيت؛ فأوقفت سيارة أجرة لتقلنا جميعا، وفي أول الشارع فارقتهما مسرعا حتى لا ألفت الأنظار لهذا الجمع، وصعدت لأطلب وجبة شهية، وثمينة لنا جميعا من أحد مطاعم الوجبات السريعة، وبينما ذهبتا للغرفة وإحكام غلقها عليهما أخذت أعد لهما المائدة بأفضل ما يكون، وأخيرا طرقت الباب لتفتح أختي سائلة عما هناك؛ فأخبرتها بأن الغداء معد ومنتظر لنا جميعا، نظرت للمائدة بدهشة كبيرة، وكتمت رفضها ونادت على سمر التي حاولت الانصراف قائلة بأنها يجب أن تتناول غدائها في بيتها، ولكني أقسمت عليها بأنها لن تنصرف قبل أن تجهز على ما جئت به لأجلها، بعد تردد جلست في مواجهتي لتتناول طعامها ببطء وخجل وأنا أرقب كل شاردة وواردة تخصها، وكل ثقتي بعلمها أنها تحت ميكروسكوب دقيق يرصد كل تفاصيلها، وعندما التفت جانبا كي أمد يدي متناولا شيئا ما عدت ببصري مسرعا نحوها لأقبض على نظرتها نحوي والتي انزوت بأسرع من البرق، مرحي يا فتاة لقد بلغت معك الكثير ولم تكوني بالصعوبة التي كنت أتخيلها.

فبدأت الحوار معها مباشرة قائلا:

– أين تسكنين يا سمر ؟

كان من الطبيعي أن ترد أختي عليّ بدلا منها، ولكن من الواضح أنها تنازلت كثيرا لأجلي، وتركتها تنطق بخفوت قائلة:

– الهرم.

فأخذت أسألها عن أشياء لا تهمني لمجرد أن تتخفف من حرج الحديث معي وقد كان، ففي النهاية ذهب الخفوت من صوتها الذي تغلف بالحماس في كثير من عباراتها، وأصبحت نظراتها إليّ مباشرة عند توجهها بالحديث معي، وأخيرا شكرتني على الوجبة الرائعة، واصطحبت أشياءها وخرجت، وأختي واقفة أمامي واضعة يديها على خصرها وتنظر لي بتمعن مبتسمة، وأخيرا نطقت وقالت لي:

– ثم ماذا ؟

أشرت بيدي بلا عناية، وأنا أتجاوزها قائلا:

– ولا أي شيء.

وتركتها ودخلت لغرفتي، ولكن لم أتمالك تفويت يومين من الخروج للهو مع أصدقائي، وبعد ساعة انصرفت ذاهبا لرحلتي اليومية بعد أخذ ما يكفيني من مال بدأ يتناقص بسرعة.

وعندما عدت مساءً وجدتها قد أعدت لي وجبة كبيرة وقالت لي:

– هذا سحور لأجل صيام الغد بإذن الله.

قلت لها محاولا التهرب من ذلك:

– أنا أصوم رمضان بشق الأنفس، ولن أستطيع ذلك.

فقالت بمكر:

– حتى لو استضفنا سمر للإفطار معنا ؟

لمعت عيناي وقلت لها:

– في هذه الحالة سأصوم كل الشهور معك.

وفي اليوم التالي عدت مبكرا، وأنا مشغول بإعداد كافة السيناريوهات التي قد أتعامل بها مع سمر للقفز درجة جديدة معها، ولكن عادت بدونها وخيبة الأمل تعلو قسماتها، وعندما سألتها عنها قالت والتأثر يشغل كل ملامحها:

– لقد رفضت بمنتهى العنف، وأقسمت أمامي بأنها لن تطأ شقتنا أبدا بعد اليوم، وعندما سألتها عن السبب قالت بأنها استفاقت، ولن تسمح للشيطان

أو هوى نفسها أن يستدرجها لشيء لا مجال له الآن، ولا يصح أن يكون بمثل هذه الطريقة أبدا.

صحت فيها بعنف قائلا:

- ماذا تعنين ؟

قالت لي ببطء:

- لقد أخطأت أنا في كل شيء أنت تعرف الصواب من الخطأ، وليست هذه طريقة أشجعك بها على الالتزام، إن لم تكن تتعبد تقربا لله وبدافع داخلي وحقيقي فلا قيمة لما تفعل، أما عن مقصدها هي إن كنت معجبا بها بالفعل وتريد الارتباط بها فليس هناك سوى طريق واحد معلوم وواضح كالشمس، ولقد استطاعت كبح جماح هواها حتى لا تنقاد إلى السير في طريق نعلم جميعا نهايته.

لوحت بيدي بعنف ووبختها هي وصديقتها التي لم أرها حتى اليوم إلا مرة واحدة، وخرجت ولم أعد سوى بعد منتصف الليل كعادتي الأصيلة.

وعدت مرة أخرى لمضايقتها والضغط عليها كي تنفجر، ولست أدري من أين كانت تأتي بكل هذا الصبر والجلد والتحمل، وبالطبع انتهت دراستي بعد الغش المعتاد في الامتحانات لأتخرج بتقدير مقبول، وتنجح هذه

اللعينة في عامها الجامعي الأول بتقدير جيد لتحافظ على تفوقها وسبقها لي في كل شيء، ولكن باق لها الكثير من السنوات، وإن ثابرت في الأولى فحتما لن تتحمل فيما يليها، ولن أدعها تكمل هذه الكلية أبدا، ولكن أرسل الله إليّ ما يشغلني عنها ما يقرب من العامين كانا من أصعب ما مرّ عليّ في حياتي كلها.

فبعد تخرجي وإعفائي من الخدمة العسكرية وجدت المال يتناقص بسرعة، وفي خلال عام أو عامين، وبعد توقف معاش أبي لي بعد تخرجي لن أتحمل العيش هكذا، بدأت البحث عن عمل في أي مجال يكن عائده مناسبا ولم أجد، فكل الأعمال تبدأ بعوائد شحيحة على أمل الارتفاع بعد نيل الخبرة، ولكن لم يكن لدي الصبر لرفع الراتب بعد هذه الخبرة المزعومة، لذا استجبت لحلم السفر بمثل ما تطلع إليه وفيق تماما بأنه البوابة السحرية، وبالطبع لم يشغل بالي توسلات أختي لي بعدم تركها وحيدة وأنها بدوني لن تحيا لحظة، فمهما كان قسوة ما تلاقيه مني فأنا أخيها وحاميها وراعيها على حسب تعبيرها، وأخيرا بعد دفع مبلغ محترم جدا حصلت على عقد العمل بإحدى دول الخليج، وانتهى الأمر واستعددت للسفر بعد استيفاء جميع أوراقه، ولكن توقف كل ذلك بمفاجأة قاسية نالت مني ودمرتني، فقد كان من مسوغات الحصول على تأشيرة دخول البلاد الشهادة الطبية بخلوي من فيروسات بي وسي والإيدز، ولكن ظهرت نتائج الفحوصات بأني مصاب بفيروس سي، وبالتالي ضاعت فرصة السفر، وضاع معها المبلغ الذي دفعته

للحصول على فرصة العمل هذه مع بث الكثير من الرعب بداخلي فسمعة هذا المرض قاتلة بيننا رغم كثرة المصابين به من المصريين، وعندما علمت أختي بمصابي انهارت كذلك، وانهمرت دموعها، وهي تحتضنني وتدعو لي بالشفاء، وتقول لي " ليتني كنت أنا المصابة وليس أنت" ولم تتوقف عن البحث على علاجه وسؤال زملائها الملتحقين بكلية الطب، وأخيرا عادت لي لتبشرني بأن العلاج متاح، ويمكنني الحصول عليه مجانا من معهد الكبد لأن تكلفته عالية جدًّا، وسرت بالفعل في طريق الحصول على هذا العلاج لأواجه عنت البيروقراطية ومعاملة المرضى كعبيد يتسولون منهم، وفي كل مرة كنت أعود محبطا، ومرهقا بسبب طول الانتظار، والسير، والسباب، والإهانة.. فكانت تقول لي:

- لا تشغل بالك يا محمود يمكنك سحب نصيبي في ميراث أبي لتعالج به على نفقتنا الخاصة بدلا من تعبك الغير محتمل هذا.

كان من المفترض أن يمزقني كلامها هذا ومعاملتها تلك، ولكن كان يخالجني النقيض فكنت أشعر بالسخط، وأتسائل من أين تأتي بهذه المثالية، والمشاعر الراقية الخيالية هذه، وبالطبع لم أخبرها عن سبب مثابرتي وصبري وتحملي لكل ذلك؛ وهو أن الرصيد البنكي لم يعد يكفي تكاليف هذا العلاج، وأخيرا بعد ستة أشهر من السعي، والجري في كل أنحاء معامل التحاليل، والأشعة، وأروقة بعض المستشفيات حصلت على

الموافقة ببدء العلاج على نفقة الدولة، كنت أظن ذلك نهاية المشقة، ولكن مع بدء العلاج اكتشفت بأن ذلك كان البداية لعذاب تعاطي ما يسمى بحقن الانترفيرون مع كبسولات مضادات الفيروسات، الحقنة الأسبوعية كانت تنال مني، وتقعدني تماما لمدة يومين أجد فيهما أختى قائمة على رأسي تخدمني وتجهز لي كل ما أحتاج قبل أن أطلبه منها، وبسبب العلاج، وقسوته ازدادت عصبيتي، وتضاعفت، وكانت تبتسم ببلاهة، وتقول لي:

– أعلم سبب عصبيتك هذه المرة، وهي على قلبي مثل العسل فلتفعل بي ما تشاء.

وأخيرا عندما نحل جسدي، وتساقط شعر رأسي، ونال الوهن مني تماما، وأصابتني الاضطرابات النفسية الناتجة كآثار جانبية لهذا العلاج أصبحت النهاية ماثلةً أمامي، وشعرت للمرة الأولى بأنه ليس لي في هذه الحياة إلا هي بمحبتها الصافية، وإخلاصها في خدمتي، وعنايتها بي حتى أنها كانت تتغيب في الأيام التي يشتد فيها تعبي، وتسعى لراحتي بشتى السبل كل ذلك دفع بمحبتها في قلبي، وغيّر مشاعري تجاهها، وندمت على كل ما فعلته تجاهها، وبدأت في الصلاة بالفعل، وأنا أبكي، وأستغفر الله على كل ذنوبي التي أسلفتها، ورغم التعب وقتها إلا أن هذين العامين كانا من أروع ما مر عليّ في حياتي كلها كاستقرار عاطفي فكل من حولك يغدقون عليك بالمحبة، والحنان، والرعاية حتى وإن كانوا جميعا فردا واحدا، وكثرة التعبد

وقراءة القرآن كانت تبث فيّ اطمئنانا عجيبا، وأخيرا بعد عام كامل من العلاج أعلن الأطباء تخلصي من الفيروس بشكل تام، حمدت الله وقتها على هذه النعمة ورويدا رويدا بدأ جسدي في استعادة ما سلبه المرض، وعدت كما كنت ولكن بمشاعر جديدة، سعيت للبحث عن عمل بأي عائد حتى لا أكون عالة أسحب من رصيد لم يعد يخصني بعد أن تجاوزت حصتي، وقد عزمت على منحها نصيبها حين زواجها، ولكن للأسف فشلت تماما في ايجاد عمل يمكنني تحمله نفسيا.

وحدث ما دفعني لسابق سيرتي، ففي ذات يوم طلبت مني أختي مرافقتها لحفل زواج إحدى صديقاتها، ووافقت بمنتهى البساطة، ونحن في الطريق فوجئت بها تخبرني بأنها سمر، فعادت لي ذكريات يومين لا يحتسبان من عمري، وجال بمخيلتي مشهدها بشعرها المنسدل، ووجها المتألق بجمال رباني أخاذ، تُرى كيف سيكون مصير سمر لو لم تتوقف في الوقت المناسب، وتعدل من مسارها ؟! تُرى من هو المحظوظ الذي حظي بها بعقليتها العملية وقوتها في كبح جماح نفسها ؟!

كنت متلهفا لرؤية هذه الملكة، وهي تتباهي بثوب زفافها، ولكن كان الفرح منفصلا بتواجد العريس وحده مع الرجال وسمر في مكان آخر بصحبة النساء، كان فرحا غريبا بلا رقص، ولا تدخين وحتى الأغاني كانت كأنها موشحات دينية، ولكن بالتدقيق في كلماتها وجدتها مكتوبة بعناية بالفعل، ما

شدني هو الزوج المحظوظ، والذي لم أستطع إعاقة حصوله على كنزه الفائز به الآن، كان بسيط الملامح يزين وجهه لحية خفيفة، والبسمة ملتصقة بوجهه، ولا تفارقه أبدا، والطيبة ترسم كل أماراتها عليه، هذا هو الرجل المناسب بالفعل لك يا سمر.

ولكن الغيرة بدأت تنهش في صدري عندما سألت مجاوري عن مهنته فأخبرني أنه معيد بنفس الكلية التي تدرس بها أختي وسمر، هكذا يكون الأمر.. متفوق بكلية من كليات القمة، وسوف يكون أستاذا بها من الطبيعي أن يكون هذا هو نصيبه أما أنا فلا وزن لي ولا قيمة، وبالتالي كان من اليسير عليها أن تشيح بنظرها عني بسرعة، بمجرد وصولي لهذه النقطة وجدت نفسي أحسد، وأحقد على كل من تمكن الوصول لمكانة عليا، هل كل ذلك فقط بسبب أنهم أجادوا المذاكرة وأنا لا ؟!!

وبدلا من التحسر على أني لم أفعل مثلهم؛ وجدت مشاعري تتصاعد بغليان عجيب داخلي نحو الجميع بما فيهم أختي مرة أخرى؛ فقد عادت لي ذكريات كراهيتي لها بسبب تفوقها هذا، وأنها كانت الأثيرة بسبب ذلك التفوق، أخذت في تذكر أيام إعلان النتائج في نهاية العام عندما كانت تعود متقافزة بفرحة لا مثيل لها، وأبي يتوقع لها درجة ما فتخبره بأنها أعلى من توقعه؛ فكان يغمرها تقبيلا، ويقوم بتوزيع الحلوى على الجيران، والنقيض معي عندما أعود له بالرسوب في مادة أو مادتين أو النجاح بعد درجات

الرأفة؛ فينالني منه التوبيخ، والتهديد بالطرد، وأني وبال وبلاء من الله على ذنب ارتكبه يتساءل ترى ما هو وما كان جرمه الشديد لهذه الدرجة ؟!

حسنا ستكون الحياة في عيني هكذا دوما.. فشلة مثلي لا يجدون عملا، وبالتالي بلا مستقبل حقيقي.. ومتفوقون يفوزون بكل ما هو مميز، وخلاب بمثل هذا العريس المسمى "وائل" والذي حتما ستختلف حياته تماما عني في كل شيء.

تركت الحفل بعدما شعرت بالاختناق من كم النقاء الذي يموج به، وخرجت أمام القاعة واشتريت علبة سجائر لأعود للتدخين مرة أخرى نافثا مع كل سحابة دخان حمما من الكراهية، والحقد نحو أي شيء جميل.

وأخيرا بعد ساعة انتهى ذلك الحفل، ورأيت العروس قادمة تتهادي بمنتهى الرقة بثوبها الأبيض، وقد أخفت وجهها بغلالة بيضاء خفيفة تظهر تضاريس وجهها فقط بلا تفاصيل ولكن ملامحها المنقوشة في خيالي رسمت لي الصورة كاملة بدون هذا الغطاء، ورأيت الشمس بازغة ليلا، وعندما تناول وائل يدها، وصحبها في خطوات بسيطة إلى السيارة ليستقلاها سويا كنت أتمنى لو انفجرت هذه السيارة حتى تهدأ البراكين الثائرة بداخلي، وأخيرا انطلقت السيارة بهما نازعة معها جزءا لا بأس به من قلبي اليائس والمحترق.

وبينما أنا في طريق العودة سألت أختي بعد طول صمت قائلا:

– هل كانت سمر توافق عليّ لو كنت تقدمت إليها قبل وائل هذا ؟

ترددت قليلا وكأنما تبحث عن رد مناسب وأخيرا قالت:

– بالطبع.. وما المانع ؟ فأنت مهندس زراعي رائع.

محاولة اصباغها لقبا كبيرا عليّ يقربني من درجة سمر العلمية كشفت لي محاولتها الكبيرة في المجاملة وتطييب خاطري فقد شعرت بما يعتمل بي حتما، وعلى نقيض ما أرادت فقد سكبت على حرائق مشاعري وقودا يجعلها تستعر بأكثر مما هي عليه.

فقلت لها بغيظ شديد:

– بالطبع لا.. فوائل هذا لم يكن يختار إلا من هي بمثل جمالها، وهي بالطبع لم تكن لتقبل إلا من كان في درجته

تنهدت، وتلعثمت قليلا ثم فاجأتني قائلة:

– للعلم فقط.. لقد طلب وائل التقدم للزواج بي بالفعل رغم أني أقل جمالا من سمر بكثير، ولست بمثل ما تصفها به وأنا من رفض.

سألتها مندهشا:

– ولم رفضت ؟!

ارتبكت قليلا وقالت:

– لا أريد ما يشغلني عن دراستي حتى أتخرج ويكون لي كيان مستقل.

وازدادت المشاعر السلبية بداخلي عقب جملتها الأخيرة وسعيها لهذا الكيان المستقل، والذي حتما ستنجح فيه، وسيكون رمزا بارزا ولافتة كبرى تقول لي كل يوم:

– يا فاشل يا فاشل يا فاشل...

نمت كراهيتها في قلبي من جديد، وكرهت معها سمر وزوجها وائل هذا، ولست أدري كيف تمكن مني شيطاني وبث تلك الفكرة العجيبة برأسي، فبعد عودتنا غافلتها وقلبت في قائمة الأسماء بجوالها، وحصلت على رقم سمر، وسجلته معي، وانصرفت للخارج، وقمت بالاتصال عليها، ولكن كان جوالها مغلقا، بالطبع سيكون غير متاحا الآن وهما يستنشقان عبيرا من الجنة، ويسبحان في أنهار من عسل مصفى لم يتغير طعمه!

فنمت ليلتي أتقلب على الجمر، وفي الصباح لم تهدأ تلك النيران أبدا، فاتصلت بها للمرة الثانية فوجدت الخط مشغولا، حسنا ها قد بدأت في استقبال مكالمات التهنئة، والأسئلة الخاصة عن الحياة الجديدة، فواصلت محاولات الاتصال حتى أسبق من يحاول الاتصال بها غيري، وبعد انتهاء المكالمة المنشغلة بها أخذت فرصتي لأسمع صوتها المتهدج بفرحة طعنتني بها كسهم متعدد الرءوس اخترق صدري وهي تقول:

- السلام عليكم.

تمالكت نفسي وقلت لها بصوت هادىء جدا:

- كيف حالك يا سمر، وهل كان حضن زوجك دافئا بما يرضيك ؟

شعرت بها، وهي مرتبكة، وغير مستوعبة لصدمة المفاجأة، فمن هذا الذي يعلم اسمها ويسألها هكذا بمنتهى الجرأة.

ولكنها أغلقت الخط بسرعة، فعاودت الاتصال بها فلم ترد مرة أخرى، ألححت في الاتصال؛ فأغلقت جوالها تماما ووجدت رقما غريبا يتصل بي لم يجل بخاطري أبدا أن تخبر زوجها، وأن يتصل بي سائلا لي من أنا، وعندما سألته عمن يكن هو؛ لأنه المتصل وبالتالي يعرف جهة اتصاله انفعل وثار، وقال بأني أتصل على زوجته، وأضايقها فعلمت بأنه وائل فلم أرد

عليه؛ فحذرني إن عدت لمضايقتها مرة أخرى سيتخذ معي إجراءً لن أحبه أبدا.

ابتسمت، وأغلقت الخط دون رد وقد وصلت لبغيتي، فحتما سيتشكك فيها، ويبحث عن قصص حبها القديمة التي تطاردها الآن، وتُرى لأي مدى كانت قد وصلت فيها، يكفى هذا التعكير لصفو أجوائهما في مقتبل أيامهما سويا.

وعادت معاملتي لأختي تسوء مرة أخرى، ولكن لم تصل للمدى السابق في قسوتها فقد انكسرت كثيرا بما حدث لي أثناء مرضي.

وأخيرا حصلت لي على عمل قالت بأنه سيكون مناسبا لفترة وجيزة، وبعد ذلك حتما سيتغير الحال، كان العمل في مزرعة كبيرة يمتلكها طبيب بيطري أخ لإحدي صديقاتها بضواحي الجيزة، وعندما ذهبت للعمل اكتشفت بأني تقريبا سأكون عاملا بما يشبه وظيفة الفلاح، ولكن كانت وسائل الري والحرث والرعاية لهذه المزرعة كلها حديثة، وبالتالي لم يكن العمل شاقا للدرجة التي تعجزني، والعائد المادي كان رائعا، والرجل كان دمث الخلق لأبعد مدى، وكان يراعي كل حرف ينطق به معي فيظهر الاحترام، والتبجيل بأنه سيستفيد من خبرتي في الكثير، ولكن كان يكلفني بالأعمال التي لا تتناسب مع لقب مهندس رزاعي، ويقول بأن هذه هي الأعمال التي تحتاج للتوظيف عنده، وبهذا فقد قبلت، وكان ذلك يستوجب سفري مسافة لا

بأس بها ذهابا وإيابا، وقد تخلصت أختي مني به فلم تعد تراني إلا برهة بسيطة من الوقت صباحا أو مساءً؛ وبهذا فقد مرت السنون سريعة لتتخرج من كليتها، وهي فرحة سعيدة، وكانت تظن أنها تزف إلي البشرى بهذا، ولم تعلم بأن ذلك كان طعنة لي، فهي بشهادتها تلك ستتوظف سريعا في عمل مرموق، وأنا أعمل في الحرث والري وتنقية الزروع من الحشائش والحشرات، ورعاية بعض المواشي كذلك، وكان ذلك بداية فصل جديد في المعاناة المتبادلة بيننا.

فقد تم تعيينها بمنتهى السرعة في شركة كبرى، وكان يوم التعيين هذا مأتما لي حاولت مجاملتها مباركا لها عندما أخبرتني، ولكن ارتعاد شفتيّ اثناء رسم بسمة مفتعلة حتما فضحني، وكشف ما هو كائن بقلبي، وجلست وحدي لا لأحاسب نفسي، وإنما متسائلا كيف أفلتت من بين يدي كان من المفترض عليّ مع الضغوط النفسية أن أمنع عنها معاش أبي حتى لا تجد ما تنفق به على دراستها العملية المكلفة تلك، ولكن لقد غادر السهم جعبته وانطلق، ولم يعد بالإمكان الإمساك به مرة أخرى، وها قد أصبحت ذات كيان مستقل كما كانت تسعى من قبل، لذا الذكاء الآن في عدم مصارعتها بل في استثمار ذلك، والاغتنام من معارفها، وعملها حتى تنقلني معها لعمل جديد ينتزعني من الروث الذي يغرقني معه كل يوم وقد كان، فبعد شهر واحد من تعيينها هناك وعدم نسيانها لطلبي أن تجد لي عملا مناسبا أخبرتني بأن شركتها في حاجة إلى موظف يقوم ببعض الأعمال الكتابية على الحاسوب

بما يشبه السكرتارية، وقد توسطت لي؛ وقبلوا وساطتها وسوف تقوم بنفسها بتعليمي ما يؤهلني للقيام بوظيفتي هذه، وبدأت العمل الذي كنت أظنه سيخرج بي من مستنقع الإهانة الأدبية لأجدني أقع في حفرة المقارنة المستمرة بيني وبينها، فهي المهندسة العبقرية ذات المكتب المستقل، والتي يعاملها الجميع بمنتهى الاحترام والتوقير والتبجيل، ويمر عليها عاملا القهوة والشاي ليتمسحا ببابها متسائلين عما ستتناول في هذا اليوم، ومترقبين للإكرامية التي ستغدق بها عليهم، بينما أنا الموظف البسيط الذي يأتي هؤلاء للجلوس والتسامر معه؛ لأنهم في نفس درجته، والأوامر التي تلقى عليّ من رؤسائي دوما صارمة وسريعة وغير قابلة للنقاش.

كل ذلك كان يوغر صدري، ويجعل المرارة دائمة بحلقي لذا كنت أتجنب إخبارهم بأنها أختي، ولم يكن يعلم بذلك إلا من توسطت لديهم لتعييني فقط، وأخيرا جاء موقف أعاد لي الثقة بنفسي، وأني بيدي الكثير، وأن الرجل يختلف عن المرأة مهما كانت مكانتها ودرجتها العلمية أو عقليتها الخارقة، فبعد عامين من العمل معها وجدتها تقدم قدما وتؤخر الأخرى والتردد والارتباك باديان بقوة على طلعتها، وأخيرا استجمعت شجاعتها وقالت لي:

– محمود أنت أخي حبيبي وكل سندي في الحياة.. هل من الممكن أن أطلب منك طلبا عجيبا لا يصح أن أتحدث فيه ولكن لابد منه الآن.. ولن ينقذني فيه إلا أنت.

تعجبت عن أي مطلب عجيب، وفي أي مأزق وقعت وترغب في عوني لها ؟!

فقلت لها ببطء:

– تفضلي بالطبع.

ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت:

– لي زميل مهندس كنا قد تواعدنا على الزواج، ولكنه ضعيف الثقة بنفسه وشخصيته مترددة وبسبب ذلك قد يتفلت مني، وبالفعل بدأت تظهر عليه أعراض هذا التفلت وإن لم أقم بخطوة جريئة وغير اعتيادية سأفقده نهائيًا، وهذه الخطوة ستكون من خلالك أنت.

فاجأني حديثها هذا بقوة، إذا أنتِ يا سومة يا من تظهرين بمظهر التدين والتعفف غارقة لأذنيك في بحر العشق والغرام !!!

صرخ نبيل قائلا:

– ماذا قلت يا محمود ؟؟؟.. سومة !!!

تهدج صوت محمود من بين دموعة التي عادت مرة أخرى وقال:

– نعم يا نبيل حديثي من البداية عن أختي سومة زميلتك، وبطلة قصة حبك التي دمرتها بأنانيتك، وهذا سبب بداية بكائي عندما أخبرتنا بقصتك، ولكن مهما فعلت أنت فليس لك بها صلة دم مثلي، وإن كان جرمك في حقها قيراطا فقد كان ذنبي معها قنطارا.

اعتدل نبيل في جلسته، وذهب عنه الوهن والتراخي اللذان قد تمكنا منه، وعيناه متسعتان من هول المفاجأة، وفي لمح البصر مر عليه جميع ذكرياته مع سومة وهو يعادلها مع ما قصه محمود، واختلجت ملامحه بشكل عجيب، وسالت دموعه للمرة الأولى وهو يقول:

– يا للهول.. ياللهول

ولم يستطع أن يكمل أو يعلق بحرف زائد وقد شعر بالانسحاق تحت ثقل شعوره بالذنب والتأنيب على ما اقترفه في حقها.

واستمر محمود كذلك في نشيجه، وقد توقف عن الحكي فهتف باسم قائلا:

– ما الذي جرى يا شباب ؟؟ لقد توقفت في منتصف الحديث هيا استكمل قصتك يا محمود، ما الذي طلبته منك وما كان رد فعلك ؟؟

وأخذ يهز وفيق النائم قائلا له:

– استيقظ يا رجل سيفوتك أهم لقطات العرض، اعتدل وفيق ساخطا، وهو يتمنى قتل باسم قائلا:

– أنا مستيقظ بالفعل أيها الشقي، وسمعت قصة الفيلم الهندي والذي أعلم خاتمته جيدا، سيظهر أن سومة ونبيل أخين من الرضاعة في النهاية.

ضحك باسم بقوة وقال:

– فلنستمع للبقية ونرى كيف سيكون ذلك.. هيا يا محمود استكمل قصتك العجيبة هذه.

لم يلتفت محمود نحوه، وتجاهل مزاحه الذي لا يتناسب مع الموقف، ومسح افرازات أنفه في كمه، وبدأ في تجفيف دموعه بكفيه، وحاول تمالك نفسه قليلا، ثم أكمل قصته قائلا:

– كانت فرصة حقيقية لأول مرة في حياتي للسخرية منها والتقليل من شأنها، أخيرا وجدت نقيصة لك وخطأً يمكن معايرتك به يا سومة، لذا فقد

شملتني الحماسة، ولست أدري هل استشعرت هي سعادتي بهذا الخبر، وهل فسرتها على وجهها الصحيح أم لا، وأخيرا قلت لها:

– أهلا أيتها الساهية هيا أخبريني عن غرامك وقصص عشقك الدفينة.

ضغطت بأسنانها على شفتها السفلي، وتمالكت نفسها بقوة للتجاوز عن الإهانة المبطنة في كلامي، والتي كنت أتعمد وصولها اليها، وقالت:

– لا يوجد غراميات كما تتخيل يا محمود هو زميل محترم وطيب ومتدين ومهتم بي بالفعل، وقد وصلت الآن لمرحلة تدفعني لوجوب التمسك، وبقوة به فهل ستساعدني أم لا ؟

سألتها قائلا:

– وكيف ستكون مساعدتي هذه ؟!

قالت بمنتهى السرعة، وكأنها تريد إزاحة ثقل من فوق صدرها:

– سأجعله يتعرف عليك بمصادفة مسبقة الإعداد، وتظهر له فيها معرفتك بما بيننا فهذا يعد ارتباطا، وإن لم يكن رسميا، وبما أعرفه عنه وعن أخلاقه سيكون موثقا خفيا يمنعه من التردد والتخلي عني.

كان الأمر هينا عليّ ولا شيء فيه رغم جرأته وخروجه عن التفكير المألوف، ولكن كيف أفوت فرصة كهذه لافشالها مرة واحدة في حياتها ؟.. لذا كان رفضى قاطعا، وهي تحاول إقناعي بأهميته لها، وأنا أتلكك بأن العرف والأخلاق والدين كذلك لا يوافقون ذلك، فيجب أن يكون الإقدام والتحرك الرسمي منه، وإن كان متدينا حقا أو ذا خلق قويم فلمَ التخوف منه ولمَ تأخره؟!

كان كلامي يمزقها، وأرى أثر ذلك على ملامحها، وكلما تمعر وجهها كلما تراقص قلبي فرحا في صدري؛ حتى أني تمنيت من كل قلبي أن يخدعها ولا يوفي بوعده لها، وعلى الفور بدأت البحث عما يبرز نجاحي مقارنة بفشلها الذريع هذا، يجب أن أتزوج لأريها وأشهر لها من الفاشل منا ورغم أن علاقاتي السابقة كلها كانت سطحية، ولم أشعر يوما بمودة تجاه أنثى إلا أن علياء جارتنا مدرسة اللغة الإنجليزية كانت تلفت انتباهي دوما بمحاولتها الدائمة في التودد لي، لذا بدأت التفكير فيها وجدتها هادئة، وسلوكها يبدو عليه أنه قويم فقررت ملاحقتها لمعرفة مدى مناسبتها لي، وتبعتها كثيرا في خروجها للمدرسة وبعض الدروس الخاصة التي تذهب إليها بالمراكز المتخصصة في مجموعات التقوية؛ فلم أر منها أي التفاتة أو موقفا يدينها بغير ما أعرفه عنها، لذا بعد أسبوعين فقط كنت أجلس مع أبيها طالبا يدها لتنطلق الزغاريد ليتمايل علي رنينها بيتنا لأول مرة بفرحة طال مغيبها، وكنت أنظر تجاه سومة أنتظر رؤية النقيض آملا أن تزلزلها هذه الزغاريد بألم الفشل

مقارنة بما أحققه، وتحققه علياء التي لم تدخل كلية الهندسة مثلها، ولكن كان وجهها هادئا مبتسما، وتظهر السعادة لأجلي وبالفعل لم أكن أدري هل هي سعادة حقيقية أم أن هذا خلاف ما تبطن.

ومرت السنون بسرعة، وقد وهنت سومة، وذهبت لمعة عينيها، وانطفأ تألقها وذبلت تماما، وكلما ازداد الانكسار كلما بزغ نجمي متألقا، وكلما تلكأ نبيل ارتفع شعوري بالظفر، ترى هل نفعك تفوقك وتميزك الآن يا سومة ؟! أنت امرأة نجاحك –حتى وإن كان فائقا– مرتبط برجل مهما كان فاشلا مثلي، أما أنا فنجاحي مرتبط بقوامتي وقوتي كرجل لا يتوقف على مؤهلات أخرى غير ذكورتي، ها قد انسحقت كل سنين عمرك البازغة وستزوي البقية بسبب رجل، وأنا السعادة سأرسمها وأحصل عليها وأمنحها لامرأة أخرى غيرك، علمت الآن معنى جملتك قديما عندما قلت بأنه لا حياة لك بدوني؛ لأني أنا الرجل الوحيد في حياتك وقتها؛ وعندما أنشغل بغيرك لابد من ارتباطك بآخر ليكمل لك أنفاسك المتبقية لتستمري في هذه الحياة وإلا ستموتين ببطء كما أرى الآن.

وأخيرا عادت في يوم لتبكي بكاءً مرا لم تذرف نصف دموعه يوم وفاة أبي وأمي، وظلت حبيسة غرفتها المظلمة لتدفن فيها كل آثار فشلها وهزيمتها، وبسبب استمتاعي بذلك لم أحاول تخفيف ما بها أو حتى سؤالها عنه وإن كنت أعلمه بدون إخبار، حتما ضايقها نبيل فقد تغيرت كثيرا في الآونة

الأخيرة، وذهب هدوؤها، وأصبحت عصبية كمدمن فقد جرعة المخدر لأيام ولا يجد لها بديلا، وبالتالي حساسيتها تضاعفت، ولم تعد تستطيع السيطرة على انفعالاتها حتى أنها بعد التغيب عن العمل في الشركة ليومين ذهبت لتنفعل على الجميع عند سؤالها عن تأخر العمل الذي كانت تقوم عليه، وقدمت استقالتها وخرجت لا تلوي على شيء، رائع جدا حتى الشهادة الكبرى التي نلتها لم تعد تنفعك وفقدت عملك الكبير الآن، ماذا بعد يا سومة هل ستنتحرين ؟!

كل ذلك كان كافيا للتشفى والرضا التام عن نفسي؛ فالأمور يتم تقييمها بمآلها ونهايتها وخواتيمها لذا بدأت في التعاطف معها، وما دفعني للجديد أكثر هو إلحاح علياء بالإسراع في إنهاء فترة الخطوبة، وإتمام الزواج حتى لو كان بتواجد سومة معنا في بيت الزوجية، وهو ما كنت أتعلل به لإطالة فترة الخطوبة زاعما أني أنتظر زواج سومة؛ حتى تخلو الشقة لي تماما، وكان هدفي الحقيقي هو الاستمتاع بنظرات الهزيمة في عينيها كلما رأتنا متمازحين سعداء ذهابا وإيابا، وأخيرا قررت إنجاز ما أرادت سومة سابقا، فذهبت إليها متمهلا، وطرقت باب غرفتها لأجدها ممسكة بمصحفها، وهي تقرأ فيه والدموع كالعادة نافورة مياة لا تنضب أبدا، جلست بجوارها وحاولت تلطيف الجو وقلت لها بهدوء:

– ماذا حدث يا سومة ولم استقلت ؟؟

مسحت دموعها بسرعة، وأشاحت بوجهها وقالت:

– وكأنك يهمك أمري!..

كانت أول مرة توجه لي لوما كهذا فقلت لها:

– أنت أختي ويهمني أمرك بالطبع، ولكي أبرهن لك ذلك أعطني رقم جوال زميلك هذا ودعي لي الباقي سأتصرف أنا بما لا يحرجك.

نظرت نحوي مطولا، وسالت دموعها مرة ثانية وقالت:

– جئت بعد فوات الأوان لقد انتهى الأمر بالفعل.

فوجئت بخبر تخلي نبيل عنها رغم توقعه المؤكد منها ومني ولكن لم أتوقع مجيئه في هذا التوقيت.

ولاعتقادي بأن الاستسلام هو ما يجعل الهزيمة متكاملة، ولو انهارت بمثل ما أرى سيكون الأمر قد انتهى بالفعل، يجب علينا المثابرة والقتال حتى الرمق الأخير ولا نستسلم من أول جولة مهما كانت قوة الخصم بادية أو النهاية ماثلة لا ندري فقد يتبدل الحال بما لا يخطر على بالنا أو بال هذا الخصم، لقد ظلت علياء في محاولاتها هذه ما يقرب من خمس سنين، وأنا لا يرد بخاطري أبدا الارتباط بها لعدم اهتمامي بالأمر، ولكن عندما قررت

كانت هي صاحبة النصيب، ترى هل سيكون الأمر على مآله هذا لو كانت توقفت عن محاولاتها المستمرة ؟!

لذا وبعد إعلاني الفائز في معركتي ولحاجتي إلى التخلص منها لأستكمل مرحلة جديدة من نجاحي هذا عزمت صادقا على مساعدتها، ربت على كتفها وقلت لها:

– رجاء امنحيني بياناته ولا شأن لك بما سيجري.

لهجة الصدق في صوتي وشعورها باهتمامي بها لأول مرة دفعها لمنحي ما أريد، كان من المفترض ألا أتباطأ معجلا بالتصرف معه، ولكن وفاة أحد جيراننا في نفس اليوم بتوقيت عجيب شغلني تماما عن ذلك، وربما شغلها كذلك عما بها، وقد وجدت مصابا ذكرها بأكبر انكسار في حياتها، وهو فقدان والدينا ليهون عليها ألمها وجرحها من نبيل قليلا، وبعد مرور عشرة أيام كانت قد تمالكت نفسها كثيرا، وانتهت مرحلة الصدمة، فوجدتها تسألني عما فعلت مع نبيل، وعندما علمت بتقاعسي المبرر قالت لي بهدوء:

– دعني أحاول للمرة الأخيرة معه، وبعد ذلك تدخل بما تراه صوابا أنت وقد وكلتك أمري.

وافقت على اقتراحها ولكن انهارت بأكثر مما كانت عندما علمت أنه أسرع بخطبة زميلته وأسقط في يدي، محاولة الإسراع بتزويجها فشلت تماما كيف سنتعامل معها الآن ؟!

وجاءتنا الهدية من السماء، علياء أخوها يعمل بالرياض اتصل بنا يسأل عن عروس لمديره المصري هناك، وبالطبع كانت سومة، والتي كان أبوها يدللها بأنها نسمة حياته ولم يناديها يوما إلا باسم "نسمة" هي المرشحة لهذا.

صرخ وفيق وهو يعتدل أكثر في جلسته قائلا:

– ماذا ؟؟ نسمة زوجتي هي أختك ؟!!!

قهقه باسم عاليا، وقال من بين ضحكاته:

– يبدو أن الفيلم الهندي سينتهي بأني أنا أخوها من الرضاعة بالفعل فلم يتبق إلا أنا !!

عقد نبيل حاجبيه بقوة وقال:

– نعم فسومة تزوجت وطُلقت بسرعة عجيبة.. ياللهول لقد أجهزت عليها ثم دفعت بها إلى الجحيم معك يا وفيق، بالطبع وافقت مسرعةً للتخلص

من الماضي العصيب معي، وقررت أن تبدأ حياةً جديدةً في أرض جديدة، وباسم جديد ينتزعها من كل عصارة الألم المرتبطة بي عبر سنين طوال !!

قال وفيق بألم:

– لو كنت أعلم معشار ما سمعته عنها الآن لتغير الحال معي تماماً.

ثم التفت نحو محمود قائلا:

– إذا أنت الوغد الذي لم أر وجهه، وباع أخته لي بمهر كبير ورفض حتى مجرد إقامتنا معه لأسبوع واحد.

ضحك باسم قائلا:

– تبخر شعوري بالإثم تماما الآن بعد تواجدي في مستنقع الأوغاد هذا.

حاول محمود أن يستجمع شتات نفسه ليستكمل قائلا:

– كما قال وفيق الفرصة كانت أكثر من رائعة سأتخلص منها وبمهر كبير بعد تبخر الرصيد البنكي الذي ادخره أبي لأجلنا، ومع راتبي الذي لم يكن يكفي أساسيات حياتي وحدي فما بالك بعد زواجي وتحمل مسئولية علياء معي، وبالفعل تم الزواج بسرعة ولم تكلفني سوى ثمن الفستان الذي اختارته، ولم تحاول حتى سؤالي عن نصيبها في ميراث أبيها سواءً كان في

الرصيد البنكي أو الشقة، وكانت المفاجأة بعد وقت وجيز اتصالها مخبرة إياي بالعودة، كنت في مرحلة ما بعد المعركة ولم يعد بي حاجة لأي جولات قادمة تؤكد نصري المستحق، ولكن شعرت بها عبئًا سيثقلني، وأنا أريد التحرر لأنهل من متع الحياة المستحقة لي، لذا رددت عليها بعنف وقسوة حتى أدفعها لعدم تكرار المحاولة كلما تعرضت لمشكلة مستقبلا.

ولكن بعد عودتها بشهر تقريبا إذا بها تتصل بي مستنجدة من مصيبة جديدة أخبرتني بأنها لا يمكن ذكر تفاصيلها لزوجها لأنه غبي ومحدود التفكير ويتصيد لها الأخطاء والهفوات والتي إن لم يجدها فهو يصطنعها.

قال وفيق بعنف:

– ماذا ؟!!

كتم باسم ضحكاته وهو يمسك بيد وفيق كأنما يمنعه من مشاجرة محمود، وقال له:

– هون عليك فبعد ما رأت منك من الطبيعي أن يكون هذا هو رأيها فيك فأنت لم ترحمها يا رجل.

ونظر تجاه محمود بعد أن سكن وفيق، وقال له:

– هيا أكمل يا رجل أشعر بك تختزن مفاجأة أخرى طالما تلح في الاستكمال هكذا متجاهلا كل ردود الأفعال.

نطر محمود نحوه بمرارة، واستكمل قائلا:

– بعد زجري لها وتذكيري بأني منعتها من الاتصال بي لأي شأن بكت، وقالت: فلتستمع لي فقط، ولترفض بعدها المهم أريد الشعور بأن هناك من يشاركني أي شيء.

قررت الرفض مسبقا، وقلت لها بنفاذ صبر:

– تفضلي ما هي مشكلتك ؟ فقالت بأن هناك ضابط أمن دولة اسمه باسم يترصد شقتها، ولا تدري السبب حتى أنه حصل على نسخة من مفتاح الشقة، ويبدو أنه يسعى لتلفيق قضية لها.

صاح باسم وقد اتسعت عيناه هو هذه المرة:

– أوبّا.. لقد حان دوري.. لا تتوقف استكمل قصتك.

استطرد محمود قائلا:

– قالت بأنها أخفت مسألة هذا الترصد عن زوجها بعد أن أخبرها حارس البناية سرًّا بما حدث من باسم يوم محاولة الهجوم عليها، وبما هو معروف

عنها من حسن معاملة معهم وعدها الرجل بكتمان الأمر تماما عن أي مخلوق حتى تعلم ما سر هذا الترصد ولمَ يسعى خلفهم، ولكن الخوف يشل أركانها ولا تدري ماذا تفعل، وتسألني فقط المشورة، صرخت فيها بأن تدينها هذا، وسيرها في موكب المتدينين حتما لصق بها شبهة الانتماء لجماعات إرهابية، وبالتالي سأتبرأ أنا كذلك منها، وإن كانت ستذهب في غياهب السجون فلا تشدني معها، وأخبرتها بأني حتى لن أرد على اتصالاتها إن فعلت مرة أخرى.

ولكن لم يمر سوى أيام قلائل، ووجدتها أمامي منهارة وعاجزة عن الكلام تماما، ونطقت بجملة واحدة شكلت قنبلة أمامي حين قالت:

- لقد طُلقت.

ياللهول لقد تعدي الأمر جميع الحدود بالفعل، كنت على وشك إتمام زواجي من علياء بعد أن أشرفت على الانتهاء من تجهيز الشقة بشكل جديد، فصرخت فيها سائلا عن سبب تطليقها، فبكت وانهارت، وقالت إن زوجها طعنها في شرفها بسبب صدفة اتصال عابث بها على هاتف الشقة الأرضي أثناء تواجده، منحتني مفتاح التخلص منها بهذا السبب، فوقفت وأشرت نحو الباب وقلت لها:

– لقد وصمت شرف العائلة تمامًا، حتى وإن كانت تهمة كاذبة فمن يُكذِّب رجلا تزوج منذ أشهر قليلة ؟!

المرأة هي المتهم الأول في مسألة الشرف هذه.. تفضلي لا أريد تلويث هذا البيت ولا أريد رؤية وجهك مرة أخرى، لي بيت وأسرة أريد بناءها، ولست على استعداد لهدمها قبل أن تبدأ بسببك وبسبب فشلك في كل شيء.

توقفت دموعها تماما، واتسعت عيناها بنظرة عجيبة، ومالت برقبتها قليلا تجاه اليمين حتى أني خفت، ظننت أنها حتما ستقتلني، ولكنها لم تسع حتى للشجار أو تذكيري أنها ليس لها إلا أنا، ولا بيت تذهب إليه إلا بيت أبيها، إنما أخذت نفسا عميقا، وكأنها تستجمع قوة كانت مبعثرة منها، وخرجت وهي تغلق الباب خلفها بعنف، وكانت تلك آخر مرة رأيتها فيها.

صمت الجميع دفعة واحدة بعد انتهاء محمود من حكايته كأن على رءوسهم الطير، كانت النهاية أبلغ من أي تعقيب قد يذكره أحدهم وبعد نصف الساعة تقريبا نطق نبيل قائلا:

– يالبؤسك يا سومة.. لقد تجرعت منا الألم والعذاب مثنى وثُلاث ورُباع رغم أنك كنت النسمة الحقيقية في هذه الحياة، والملاك الوحيد الذي نزل من السماء إلى الأرض، ولكن لم يولد من يستحقك، وكان نصيبك ملاقاة

شياطين الإنس، والذين يستحقون القتل أو الدفن جميعا أحياء، ما نحن فيه عقاب مستحق جرّاء ما فعلناه بها.

رفع باسم رأسه فجأة وقال:

- أوبّا.. لقد وجدت حل اللغز.

نظر الجميع نحوه متسائلين عما يعني، فاستطرد قائلا:

- كنا نتساءل جميعا كيف اجتمعنا هنا بدون سابق معرفة، وعمن تسبب فيما نحن فيه الآن، إنه الملاك الذي تتحدث عنه يا سيد نبيل، وقد تحول إلى شيطان الانتقام بعد ما لاقاه منا، إنها سومة العامل الوحيد المشترك بيننا جميعا والتي يمكنها الاتصال بنا فلديها أرقامنا، أخوها وزوجها وحبيبها السابق ورقم جوالي الذي كنت أتصل منه دائما، ومن السهل تغيير نبرتها بأي برنامج تغيير أصوات وتخلصت منا جميعا بضربة واحدة وذكية.

نظر نبيل نحوه غير مصدق ووفيق عاقدا حاجبيه بينما محمود عاد لسكونه مرة أخرى بعد انتهاء قصته، وأخيرا هزَّ نبيل رأسه قائلا:

- عقاب مستحق بالفعل، ونشكرها أنها لم تسع لقتلنا بيديها.

قال وفيق بسخط:

– وهل هناك قتل أبشع من هذا الموت البطيء الذي نحن فيه الآن ؟

قال نبيل مدافعا عنها:

– تذكر كان سعيها فقط تلفيق قضية لنا غالبا كنا سنخرج منها، ولكن بعد أن نتعذب في التحقيقات بمثل ما رأينا، أما غياب حراس المكان، وانقطاع الغوث عنا من المؤكد أنه ليس من ترتيبها.

لوح وفيق بيده، وعاد للنوم مرة أخرى حاول باسم أن يقول جملة ما، ولكن توقف قبل أن ينطقها، وعاد لصمته وتمدد نبيل في موضعه وهو يقول:

– ما يحدث لنا الآن هو عقاب إلهي حتما سيعقبه عذاب أليم في الآخرة جرّاء ما فعلنا بها؛ فلنستسلم للموت بهدوء، ونلزم الاستغفار بندم حقيقي عسى الله أن يخفف عنا هذا العذاب قليلا.

عاد الصمت مقهقها فوق رءوسهم وقد عادت له سلطته، وبالفعل خارت قواهم جميعا دفعة واحدة بعد أن انعدم الحوار بينهم واستسلامهم التام وظل كل واحد فيهم سارحا مع خياله ليسترجع ما فات، ولكن بعد استكمال القطع التي كانت غائبة عنه، وبعد سويعات وفي توقيت واحد أغمضت أعينهم، وقد أخذتهم سنة من النوم، وبدأ الوعي في مفارقتهم، والذي لا يدرون هل سيستيقظون منه مرة أخرى أم لا، وقد استسلموا تماما.

*****

استيقظت مصر كلها على ركام معركة قاسية خلفت وراءها الكثير من الضحايا في اليوم الأول من فبراير ٢٠١١، والتي اشتهرت بعد ذلك باسم معركة الجمل في محاولة يائسة لاقتحام وفض ميدان التحرير، وكان من عواقب تلك المعركة القبض على عشرين شابا حاولو الانصراف عقب الفجر قبل أن ينبلج ضوء النهار تم اصطيادهم واقتيادهم إلى مبنى وزارة الداخلية، واستقبلهم رجال أمن الدولة بما اعتادو عليه، وعند غروب الشمس كان الإنهاك قد نال من الضباط أنفسهم فراجع أحدهم أوراقه، وقال لمجاوره:

– فلنخفف الأعداد المتواجدة هنا.

سأله زميله مندهشا:

– هل ستطلق سراح بعضهم ؟

رد عليه بمنتهى البساطة:

– بالطبع لا ولكن لتذهب بالقدامي لأي مقر ناءٍ، واترك الجدد لاستكمال عملنا معهم.

وبعد ساعتين كانت سيارة مصفحة تخرج مسرعة من باب خلفي منطلقة نحو مقر القطامية ليلقوا بأكثر من ثلاثين شابا به.

فوجئ الشباب بأربعة رجال متمددين ومتراصين أمامهم بلا حراك، ظنوا للوهلة الأولى أنهم قد فارقو الحياة، كان بينهم طبيب أسرع لفحصهم وصرخ بأنهم ما زالوا أحياء، ولكن نبضهم ضعيف جدا مما يعني أنهم في الرمق الأخير، أخذ الشباب يدقون الباب، ويرفعون صياحهم حتى جاء الحارس الذي عاد للمكان برفقة النزلاء الجدد بعد أن تناساه تماما بما فيه بانشغاله بالأعمال الكبرى التي وقعت على عاتقهم بمبني الوزارة عقب ما سمي بانهيار الشرطة يوم الثامن والعشرين من يناير عام ٢٠١١، وعندما سألهم بعنف عن سبب الضجيج، وأخبروه بالأمر فقال لهم:

- فليذهبوا إلى الجحيم لن أفعل لهم شيئا.

صاح به الطبيب قائلا:

- هل يمكنك فقط جلب بعض الأدوية، وسوف أتعامل معهم ؟

تردد الرجل وقال:

- جلبها سيكون مرهقا، ولا يمكنني مغادرة المكان فنحن بمنطقة شبه نائية.

لمح الطبيب تردد الرجل، وأدرك بأن الأمور حتما تغيرت بعد أحداث الثامن والعشرين من يناير؛ فقال له:

– أثق بأنك لن تجازف بتحمل موت أربعة أفراد؛ لأن التهمة فيما بعد ستكون على عاتقك أنت، نحن محبوسون، ولا يمكننا الفرار سنعطيك المال اللازم، وتكاليف انتقالك كذلك.

وافق الرجل على مضض، وقد أعجزه الخوف من المصير المجهول عن حسن التفكير، وبعد ساعة كانت المحاليل الوريدية معلقة وسوائلها تتدفق بعروق الرجال لتعيد للقلب حيويته ونشاطه، وبعد ساعة أخرى استفاق نبيل، وبعده بخمس دقائق محمود وباسم دفعة واحدة، وأخيرا بعد ربع الساعة كان وفيق يفتح عينيه غير مصدق بأنه ما زال في هذه الدنيا.

وبعد أن تغير الحال وبدأ نبيل في السؤال عن الأخبار بالخارج، وكأن المفاجآت التي وقعت على رءوسهم منذ سويعات لم تكن كافية فوجئ مع الجميع بالأحداث الجسام التي هزت أرجاء الوطن في نفس التوقيت، وفجأة صرخ محمود قائلا:

– المهندس وائل ؟!!

التفت شاب هادئ الملامح يزين وجهه لحية خفيفة، ولكن كان رث الثياب التي يعلوها الكثير من الدم المتجمد بأطرافها ونظر نحوه متسائلا وقال:

– هل تعرفني ؟!

قال محمود بحماس:

- نعم أختي المهندسة سومة كانت زميلتك، وصديقة زوجتك.

اتسعت عيناه دهشة ثم علا ملامحه الأسى، وصافحه وهو يقول بحزن بالغ:

- البقاء لله وهنيئا لها.

صرخ الرجال الأربعة في صوت واحد وقد ارتجت مشاعرهم كأنما قد انفجرت بداخلهم قنبلة مدوية قائلين:

- ماذا ؟؟؟؟

جفل وائل وانتفض قليلا لهذا الصوت المفاجئ ونظر بقية الشباب نحوهم متعجبين عما يعني هذا وقال وائل ببطء:

- أنا أعزيك في الشهيدة باذن الله أختك سومة.

انهار محمود وتراخي جسده واغرورقت عيناه بالدموع، واستحالت الرؤية أمامه، وهو يقول غير مصدق:

- بالطبع تكذب كيف علمت بموتها، وماذا حدث ؟!!!

شعر وائل أنه ارتكب إثما بمقولته هذه، فقد كان يتوقع معرفة محمود بوفاة أخته، ولكنه استجمع أنفاسه، وقال:

- یاه.. حتى وفاتها لم تعلم بها !!

استمر محمود في بكائه، فتوجه نبيل ليصافح وائل قائلا:

- أنا نبيل أحد زملائك القدامي بالكلية، وقد لا تتذكرني، أرجوك قص علينا ما تعرفه بسرعة.

نظر وائل نحوهم بدهشة، وقال:

- هناك ما لا يمكن ذكره إلا مع أخوها فقط.

قال باسم بسرعة:

- أنت لا تعلم ما خلف الأكمة انطق، وأخبرنا فكلنا نعلم تفاصيل ما حدث في كل حياتها منذ مولدها.

لم يزل العجب من وائل، ولكنه قرر الحكي فقال:

- محمود طردها من بيت أبيها، ولم تجد مآلا لها بعد تطليقها، وتلويث سمعتها إلا عند صديقتها الأثيرة زوجتي؛ فجاءت إلينا محطمة ومنهارة،

وظلت يومين تقريبا لا تمس الطعام ولا تنطق، وزوجتي تقوم على رعايتها، وأخيرًا بدأت في التحرك، ولكن بروح عجيبة، وصوت أجش غليظ لم نسمعه منها من قبل، وكانت تختلي بنفسها كثيرا مع جوالها، وأخيرا ليلة الخامس والعشرين من يناير كانت منتشية وسعيدة لسبب مجهول، ولم تخبرنا قط ما سر هذا التبدل العجيب الذي انتابها حتى أني شككت في سلامة قواها العقلية، ولكن في يوم السادس والعشرين من يناير عاد لها الانهيار مرة أخرى؛ كأنما قد استفاقت من شيء مجهول، وظلت تبكي وتستغفر وتصلي يومها كله بلا طعام، وتقوم باتصالات كثير، وسمعتها تصرخ قائلة:

– أقسم لك لقد كان بلاغا كيديا أنا مستعدة لتسليم نفسي إن أطلقت سراحهم.

وعندما سألتها لم تنطق ولم ترد، وأخيرًا خرجت مع جموع الشعب يوم الثامن والعشرين من يناير ولم تعد بعدها، وبعد محاولات الاتصال الفاشلة بها، وقد توقفت شبكات الجوال خرجنا للبحث عنها لنجدها جثة هامدة في القصر العيني، وقد اخترقت رأسها رصاصة أمام مقر وزارة الداخلية ويومها ألقى القبض عليّ؛ لأني رفضت التوقيع على إقرار بأنها قد انتحرت، هذا كل ما أعرفه !!

احتضن نبيل محمود، وأخذ يربت على كتفه، وسالت دموعه بأغزر مما يفعل الأخير وقال بتهدج:

– يموت أفضل من فينا فداءً ليعيش أخبثنا!.....

ومرت الأيام قاتمة بطيئة ليأتي يوم الخامس من مارس عام ٢٠١١ ليقتحم الشباب مقرات أمن الدولة، وكان منها مقر القطامية ليخرج الجميع مهللين، ومستبشرين بينما نبيل ووفيق وباسم ومحمود على النقيض انطلقوا متفرقين، وكل منهم يجر قدميه بصعوبة، ويرى نفسه يتنفس هواءً غير مستحق له، وقد منحه إياه من تلقى منه العذاب ألوانا.

تمت بحمد الله

الكاتب فى سطور

د. أحمد السعيد مراد.طبيب وروائي من مواليد المنصورة عام ١٩٧٤ م.

عضو اتحاد كُتاب مصر.صدرت روايته الأولى " ملائكة وذئاب " في يناير ٢٠٠٨م.وتلاها خمس روايات مطبوعة كان أشهرها رواية " كتاب الأقدار " والتي صدر منها أكثر من طبعة.وله الكثير من الروايات والقصص القصيرة المنتشرة على شبكة الإنترنت، والتي لم تطبع بعد أشهرها روايتي " الزلزال " و " طيور جريحة "

صدر للمؤلف:

- ملائكة وذئاب
- التجربة الرهيبة
- مساومة الخطر
- بودنوفيسك
- الساعات الأخيرة
- كتاب الأقدار

Ahmedmorad٢٠٠٠@hotmail.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧